

سراج الظلم

في شرح تلخيص الحكم

تأليف العلامة الشيخ

أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٢٧٠هـ

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



دار الفتح للدراسات والنشر


سراج الظلم
في شرح تلخيص الحكم

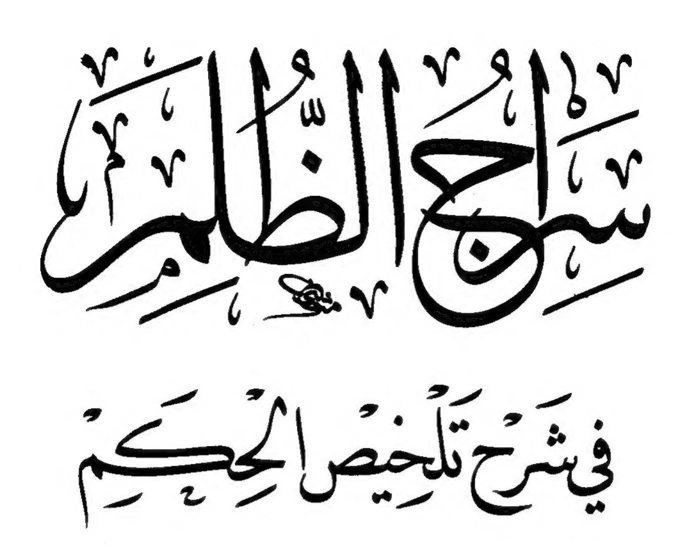
□ سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم
تأليف: العلامة الشيخ أبي بكر بن محمد بن عمر الملّا الحنفي الأحسائي
تحقيق: الشيخ يحيى بن محمد بن أبي بكر الملّا
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

قياس القطع: ١٧×٢٤
الرقم المعياري الدولي: ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-١٥١-٤
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٢٠٠٩/١٠/٤٣٩٧



دار الفتح للدراسات والنشر

هاتف ١٩٩ ٤٦ ٤٦ (٠٠٩٦٢)
جوال ٠٥٨ ٠٣٨ ٧٩٩ (٠٠٩٦٢)
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.daralfath.com



تأليف العلامة الشيخ

أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٢٧٠هـ

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



دار الفتح للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مُفِيض الإنعام على من عرفه، ومتولي من أيقظه إلى الحق وعَرَّفَه، وجاد عليه بالهبات العظام وأعظمُها المعرفة، وأخرجه من ظلمات الأوهام وأتحفه، ومَنَّ عليه بالإحسان بعد الإيمان والإسلام وشَرَّفه.

فسبحان من لا تشبه ذاتَه ذاتٌ ولا صفاتِه صِفَة، الذي لا تشتبه عليه الأصوات المختلفة، ويطلع على القلوب التي بذكره مُؤتلفة، وإليه منصرفة، ومن رحيق محبته مرتشفة.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد منبع العوارف والمعرفة، وعلى آله وأصحابه الموصوفين بالذين يدعون ربهم بالغداة والعشي فنِعم الصفة، وعلى من تبعهم من العلماء العاملين ومن اقتفى أثره وسلم تسليماً.

أما بعد،

فإنَّ علم التربية والسلوك، وتزكية النفوس، وتخليصها من آفاتها، مِن أجَلِّ العُلوم وأشرَفِها، وأكثرها نفعاً وأرفعها، ثماره يانعة لمقتطفيه، وأنواره لامعة لقاصديه، به تزكو الأنفاس، وتطهر القلوب من درن الأرجاس، وتسمو الأرواح نحو مراقي الفلاح، بعد إمداد الفتاح، عبر أحكامه، وشُعَبه ومعارفه، ومدارجه وأذواقه، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٠) باب سؤال جبريل النبي ﷺ، ومسلم (٩) باب الإيمان والإسلام والإحسان.

فالحاجة إلى هذا العلم ماسة، وخاصة في هذه الأيام التي نجد فيها اضطراباً عظيماً في قيمنا الخلقية، وتشتتاً في سلوكياتنا العملية بين ما نريده وبين ما نفعله في الواقع، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، قيام غير المتخصصين، من خلال منابر مختلفة، بالخوض في مفهوم الإيمان وطبيعته، مع عدم الرسوخ في معرفة القيم الروحية المثلى وممارستها، فلم ينتج عن ذلك في الغالب إلا مجهودات عقيمة تماماً، فضلاً عن كونها مُنَفِّرة.

وترجع أسباب هذه الحالة التي نعاني اليوم منها إلى البعد عن العلوم والأخلاق التي كانت توجه سلوكنا ومنهجنا الخلقي ردحاً من الزمن، فلا منجى من هذا الواقع الذي يجري اليوم إلا بالعودة إلى دراسة هذا المنهج الحق الذي كان عليه سلف الأمة، والالتفافِ حول رجاله المحققين الصادقين الذين وهبهم الله قدرة على التأثير الفَعَّال الإيجابي، طريقُهم في ذلك التمسك بالكتاب والسنة على وجه الإخلاص، فحركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، لا ما يدعيه المدعون.

قال أبو القاسم الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، ومذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أُعْطِي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة.

وهو ما يقتضي قولهم: الاستقامة أفضل من ألف كرامة.

فقد جعل أبو يزيد الاستقامة على الشريعة مصدر الحقيقة، وهذا ما يعنيه قولهم: «الشريعة شجرة تثمر الحقائق».

وقال سهلٌ التستري: أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء برسول الله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأقواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدَّه في ديوان الرجال.

وكلامهم في هذا الباب يطول.

وهكذا وقف هؤلاء القومُ في كل عصر ومصر يوضحون الحقيقة، ويفضحون المتطفلين على ميدان الإرشاد والتربية، ويتصدَّون لهم بالنقد. وفي نفس الوقت يُقِرُّون الصادقين على صواب ما يقومون به، ويشجعونهم، ويزكون أعمالهم وأحوالهم. فصدق فيهم قوله عليه الصلاة والسلام: «يحملُ هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُه، ينفونَ عنْهُ تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»[1]، ويصدق فيهم أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله»[2]، وتلك الطائفة التي لا يضرها من خالفها، ولا تنال منها قوة من قوى الإرهاب والعدوان والبطش، هي جوهر هذا الوجود، وسر هذه الخليقة، وحجة الله القائمة الناطقة بأنَّ رسول الله ﷺ قد بلَّغ الرسالة، وبأن القرآن قد حُفِظَتْ دعوتُه، وبأنَّ الأرض لا تخلو من قائمٍ لله بحقه.

عُرِفَ هؤلاء القوم عبر التاريخ بأنهم أحباب الله وأنصاره، قلوبهم أبداً ساجدة تحت العرش، وأرواحهم محلقة في محاريبه، وأنفاسهم عطرة بتسبيحه،

(١) أخرجه البيهقيّ في «السنن الكبرىٰ» (١٠: ٢٠٩)، والطبرانيّ في «مسند الشاميين» (١: ٣٤٤ برقم ٥٩٩)، وغيرهما.

(٢) أخرجه بنحوه البخاريّ (٧١)، ومسلم (١٧٦)، وغيرهما، من حديث معاويةَ رضيَ اللهُ عنه.

وأعمالهم مضيئة بذكره، جوهرُ حياتهم هو الصلة بالله، فلو تردد نَفَسٌ بعيداً عن هذه الصلة لما اعْتُبِرَ عندهم من أنفاس الحياة، ومُحِبَّةٌ: تعتبر الخواطر في سواه بُعْداً عن هُدَاهُ ورضاه.

والمنقب في تراثنا الإسلامي يجد متوناً بارزة تمثل هذا المنهج العملي لهؤلاء القوم حظيت بعناية كثير من العلماء، منها: كتاب «منازل السائرين إلى الحق المبين» الذي ألفه الشيخ أبو إسماعيل الهروي المتوفى سنة (٤٨١هـ)، فقد حظي هذا الكتاب بالاهتمام والدرس والشرح والاقتباس منه أو الاستشهاد بأقوال صاحبه فيه، وذلك عبر فترات زمنية متباعدة، وقد شرح هذا الكتاب علماء أجلاء منهم: الشيخ عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة (٦٩٠هـ)، والشيخ كمال الدين الكاشي المتوفى سنة (٧٣٠هـ)، وابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١هـ) الذي وسمه باسم «مدارج السالكين بين منازل إيَّاكَ نعبد وإيَّاكَ نستعين».

وهذا الكتاب الأخيرُ، على غرار الكتب العميقة التي تعتني بالتزكية، بل هو تحليل لما يعتلج شعور السالك من وجد وهيام، وشوق ومحبة ولهفة، إلى آخر ما يُعَبَّرُ عنه تارة بالأحوال، وتارة بالمقامات، وقد تتبع ابنُ القيم رحمه الله تلك الأحوال والمقامات واحداً واحداً بالشرح والتبيين والإيضاح، بأسلوب واضح خالٍ من التعقيد.

وإنَّ عملَهُ هذا يُعَدُّ إبرازاً لحقيقةٍ حاول البعض إقصاءها تارة، أو تجاهلها أو تهميشها تارة أخرى، وحاول البعض الآخر خلْقَ عداءٍ بينه وبين شيوخ التربية والإرشاد، والحق أن ابن القيم رحمه الله إنما عادى أولئك الأدعياء والمتطفلين على ميدان التربية والإرشاد، بينما كرس جهده في كتابه هذا لترسيخ المنهج الحق الصادق الصحيح وتبيينه، والدفاع عن حياضه وعلومه، وقد قال رحمه الله في

كتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين»[١]: فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على التعرف لمنزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم.

ومن المتون **أيضاً**، والتي انتشرت شرقاً وغرباً، واهتم بها العلماء المحققون: متن **«الحِكم العطائية»** لابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة (٧٠٩هـ)، وقد شُرِحَ هذا المتن بشروح كثيرة عبر مراحل تاريخية متعددة، نذكر من شراحها:

ـ الإمام محمد بن إبراهيم النَّفْزي الرُّندي المعروف بابن عبَّاد المتوفى سنة (٧٩٢هـ)، ولا نعلم أحداً سبق ابن عبَّاد إلى شرح الحكم، فهو أقدم شراحها، وذلك بعد مضي قرن من الزمن على تأليفها، وعنوان شرحه عليها: **«غيث المواهب العلية لشرح الحكم العطائية»**.

ـ والإمام العالم الفقيه المحدث العارف المربي الشيخ أحمد زَرُّوق الفاسي المتوفى سنة (٨٩٩هـ)، والذي شغف بالحِكم شغفاً خاصاً، فقد ثبت عنه أنه ما ينتهي من شرحها حتى يؤوب إلى شرحها من جديد حتى زادت شروحه على الثلاثين، فكان كتاب «الحكم العطائية» بالنسبة للإمام أحمد زروق كتابَ منهج تربوي عمِل على نشره بين تلامذته ومريديه.

ومنهم أيضاً:

ـ الإمام المربي صفي الدين أحمد بن محمد القُشَّاشي ـ بضم القاف ـ المدني المالكي الشافعي، الـمُجمَع على جلالته بين معاصريه، ومفتي المذهبين، والمتوفى سنة (١٠٧١هـ). وغيرُهم كثير.

---

(١) ص١٩٦.

وقد انتقى من هذا المتن ورتبه على الأبواب التي رتبها بعض العلماء ثم شرحه الإمام العلامة الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد الملا آل الواعظ الحنفي الأحسائي المتوفى سنة (١٢٧٠هـ)، وسمّاه: «**سراج الظلم بشرح تلخيص الحكم**».

وهو خلاصة أربعة شروح لهذا المتن هي: شرح ابن عبَّاد الرُّندي، وشرح الشيخ القُشَّاشي، وشرح الشيخ محمد بن أحمد الأهدل، وشرح الشيخ علي الحجازي.

ويسعدني كلَّ السعادة أن أُقَدم هذا الكتاب إلى كل طالب للحق والهداية، وقد بذلت وسعي في إخراجه ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله وسلم ويبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الحكم العطائية

كتابُ «الحكم العطائية» تعتبر دستوراً عملياً للتربية الإسلامية، صاغه مؤلفه في عبارات سهلة جزلة رائعة، يسهل على القارئ إدراك ما تحتويه من معان بديعة، وربما حفظها لتصبح جزءاً من رصيده، يتمثل بها في المواقف المختلفة التي يحسن فيها تلخيص المناقشة. ومن خلال النظر في متن الحكم يظهر جلياً أنّ أئمة التزكية والسلوك من أعظم المؤمنين توحيداً، لأنهم يمثّلون اجتهاداً في اتّباع الكتاب والسنة، يأخذ النفوس بالعزائم، ويروضها على تحمل المكاره، وإيثار الزهادة في الدنيا طمعاً في رضا الله، وغراماً بحبه، للوصول إلى جنته، وحسبُك أن تقرأ بعض الحِكَم لتخرج بهذا الحُكْم المتصف لهؤلاء العبَّاد الصادقين، انظر مثلاً إلى قوله:

«الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجودُ سرِّ الإخلاص فيها».

«لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

«خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجاً لك من حيث لا تعلم. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]».

هذه الكلمات العذبة الرائعة لا تصدر إلا عن قلب عارف مفعم بالإيمان، ونفس مطمئنّة راضية مرضية.

فالحكم العطائية تشهد لصاحبها أنه كان عالماً أديباً، واسع الأفق، مستنير الفكر، يعيش هموم مجتمعه الأخلاقية، ويُعَبِّرُ عنها تعبيراً أخَّاذاً، يقوم على المعنى

العميق، والصياغة الدقيقة، التي كشفت عن حقيقة التربية الإسلامية، وانفردت بتوجيه العالمين إلى الكمال.

وقد طبع هذا المتن طبعات عديدة مختلفة، واهتم به الكثيرُ من العلماء والصلحاء، شرحاً ودراسة وتعليقاً.

* * *

ترجمة صاحب «الحكم»

(ابن عطاء الله السكندري)

هو الإمام أبو الفضل الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الكريم، يعرف بابن عطاء الله السكندري، ويلقب بتاج الدين.

نقل ابنُ العماد (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ = ١٦٧٩م)، وابن حجر (المتوفى سنةَ ٨٥٢هـ = ١٤٤٩م) عن الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م) قوله فيه: «كانت له جلالة عظيمة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل»[١].

وقولَه أيضاً: «ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي ـ لما رجع من مصر ـ معظِّماً لوعظه وإشارته، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس، ومزج كلام القوم بآثار السَّلف وفنون العلم فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير».

ووصفه الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م) بقوله: «الشيخ العارف تاج الدين أبو الفضل السكندري، كان رجلاً صالحاً، يتكلم على كرسي في الجامع بكلام حسن، وله ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثارِ السلف»[٢].

---

(١) شذرات الذهب (٦: ١٩)، الدرر الكامنة (١: ٢٩٢)، طبقات الشاذلية (رقم ٢٣: ص١١٧)، وانظر والنجوم الزاهرة (٨: ٢٨٠).

(٢) الوافي بالوفيات (٨: ٥٧).

وقال الإمام تاج الدين السبكي (المتوفى سنةَ ٧٧١هـ = ١٣٧٠م): «كان إماماً عارفاً، صاحب إشارات وكرامات، وقدم راسخ في التصوف»[١].

ووصفه ابن عبَّاد (المتوفى سنةَ ٧٩٢هـ = ١٣٩٠م) بالشيخ الإمام المحقق العارف، المكاشف، الولي الرباني[٢].

وقال فيه ابن الملقن (المتوفى سنةَ ٨٠٤هـ = ١٤٠١م): «كان ينتفع الناس بإشاراته، له موقع في النفس وجلالة، ومشاركة في الفضائل»[٣].

وقال العسقلاني: إنه كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، صحب الشيخ أبا العباس المرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وأخذ عنه، وصنَّف مناقبَهما.

وهذا غيض من فيض، وإلا فكتب التراجم طافحة بالثناء عليه، ومجمعة على نسبة الفضل إليه.

توفي رحمه الله كهلاً بالمدرسة المنصورية في القاهرة في نصف جمادى الآخرة عام (٧٠٩هـ) ودفن بالقرافة[٤].

مؤلفاته:

كان ابن عطاء الله السكندري جامعاً لأنواع العلوم، من تفسير وحديث ونحو وأصول، وفقه على مذهب مالك، وغيرها من العلوم كما له مشاركة في

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٥: ١٧٦).

(٢) غيث المواهب العلية (١: ٤٥).

(٣) طبقات الأولياء (ص٤٢٢).

(٤) شذرات الذهب (٦: ٢٠)، والوافي بالوفيات (٨: ٥٧)، الديباج المذهب (ص٧٠)، وطبقات المفسرين (١: ٧٦).

الأدب، إذ له نظم حسن في الوعظ، ونذكر من قصائده بائيته التي ختم بها «لطائف المنن»، وله مقاطع شعرية منثورة في كتبه.

أما أسلوبه فيتميز بالإمتاع المفضي للإقناع، فكلماته بديعة، وعباراته عذبة، لها وقع في القلوب، ولذا وصفوا مصنفاته بأنها مفيدة ونافعة[١].

فمنها:

«تاج العروس وقمع النفوس»، «ترتيب السلوك»، وهي رسالة فيما ينبغي أن يكون عليه السالك، «التنوير في إسقاط التدبير»، «الحكم العطائية»، «شرح رائية أبي مدين»، «الطريقة الجادة في نيل السعادة»، «القول المجرد في الاسم المفرد»، «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن»، «مختصر تهذيب المدوّنة» للبرادعي في الفقه المالكي، «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح»، وغيرها من المؤلفات، وله مكاتبات لبعض إخوانه في الله، ومناجاة وأدعية مباركة.

* * *

(١) طبقات الشافعية (٥: ١٧٦).

ترجمة الشارح

هو الإمام العلامة الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عمر ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عمر الملا، المنسوب إلى بيت الواعظ الحنفي الأحسائي.

مولده:

ولد رضي الله عنه في مدينة الأحساء (مدينة هجر) بحي الكوت، والتي تقع في الجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية، في اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني من عام ١١٩٨هـ.

نشأته:

توفي والده وهو صغير، وتربى في حجر والدته وهو محفوف بعين عناية مولاه، وملحوظ بحفظه ورعايته إلى أن بلغ سن التمييز، وأُجلس عند المعلم، فأتقن الكتابة والقراءة، وأكمل حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولم يتجاوز عمره عشر سنين، فقد كان ذا حظ وافر من الفهم والذكاء.

شيوخه:

لقد جد واجتهد في تحصيل العلوم: النقلية والعقلية على عدة مشايخ ذوي تمكين، علماء جهابذة ميامين من علماء الأحساء ومن غيرهم ممن يقدم إلى الأحساء، التي كانت في ذلك الوقت محط رحال العلماء، وقبلة الفصحاء والبلغاء، ومناراً

للعلم. وكلما ظفر بشيخ متفنن في العلوم مع الإتقان اشتغل عليه حسب الإمكان، حتى برع في هذه العلوم وفاق أقرانه، وغدا من أفاضل علماء عصره.

ولقد تتلمذ الشيخ رحمه الله تعالى كما ذكرنا على جملة كبيرة من العلماء، ومن أبرزهم عماه:

ـ العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عمر الملا الحنفي.

ـ العلامة الشيخ أحمد ابن الشيخ عمر الملا الحنفي.

وأخذ كذلك عن:

ـ العلامة الشيخ حسين بن محمد بن أبي بكر الأحسائي الحنفي.

ـ العلامة الشيخ عبد الله الجعفري الطيار الشافعي.

كما أخذ من علماء الحرمين الشريفين أثناء سفره لأداء مناسك الحج، ومن أبرزهم:

ـ السيد محمد ابن السيد أحمد العطوشي المالكي المغربي ثم المدني، المدرس في المسجد النبوي الشريف.

ـ العلامة الجليل السيد ياسين ميرغني الحنفي المكي، المدرس بالمسجد الحرام.

وتلقى علم الأخلاق والآداب والسلوك إلى ملك الملوك، من الفاضل العالم العامل الناسك الزاهد الشيخ حسين بن أحمد، الشهير بالدوسري، الشافعي البصري ثم المكي.

عمله بالتدريس:

أجازه شيوخه بما تجوز لهم روايته وتُعلَم لديهم درايته من تفسير وحديث

وأصول وفروع من منقول ومعقول مما تلقوه عن مشايخهم، كما هو مذكور في أثباتهم.

كما أذنوا له بالإفتاء والتدريس، فأفتى ودرَّس في حياة أشياخه، وظهرت براعته وحسن تقريره، فأقبل عليه طلاب العلم من كل مكان ينهلون من علمه، وينتفعون بتربيته وسلوكه، فانتفع به خلق كثير.

صفاته:

كان رحمه الله تعالى عالماً مهيباً مطاعاً عند العامة والخاصة وولاة الأمر، بلغ من الشهرة، في عصره وبعدَ عصره، مقداراً لا مزيد عليه، ذا سياسة وعقل كامل رصين، بحيث إنّه لا يواجه أحداً بما يكره، بل كلّمه بالرفق واللين. صاحبَ إيثار وإنصاف وعفاف، ينصح الناس ويحببهم للائتلاف، وينهاهم عن الأمور التي تؤدي إلى الخلاف، ذا رحمة وشفقة وحمية دينية، يزجر عن الأفعال الردية الدنية، متواضعاً مع الكبير والصغير والغني والفقير، سمحاً ليناً حتى مع أولئك الذين يأتون لإيذائه.

زهده وقناعته:

فقد كان رحمه الله تعالى ممن طلَّق الدنيا البتَّه، وركب فرس الزهد، يبتعد عن الشبهة فضلاً عن الحرام، ليكون في تجلٍّ دائم مع ربه، متأسياً بقول سيد الناس: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد عما في أيدي الناس يحبك الناس»[1]. فكان من تعفّفه أنه لا يجعل غذاء جسمه إلا من غلات عقاراتِ مُلكِه، وأمّا ما كان تحت يده من غلات عقاراتِ وقفٍ فيعزِلُها في موضع وتُباع، ثم يصرفها بعد عمارتها في مصارفها.

---

(١) أخرجه ابن ماجَهْ (٤١٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤: ٣٤٨)، وغيرهما، من حديث سَهْل بن سعد الساعدي رضيَ اللهُ عنه.

منهجه اليومي:

العلم والتعليم، والوعظ والتذكير، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مع المواظبة على نوافل الطاعات من صلاة وصيام كما وردت بذلك السُّنَّة السَّنيَّة.

وكان رحمه الله تعالى يقوم للتهجد بعد النصف الأول من الليل ثم يدعو بعد فراغه بأدعية نافعة للخاصة والعامة، مواظباً على إحياء ما بين العشاءَين، وما بين الطلوعَيْن، وعلى صلاة الاستخارة كل يوم بعد الإشراق ركعتين، والإتيانِ بدعائها المخصوص.

وبالجملة، فأوقاته كلها معمورة بالطاعات: من تدريس أول النهار إلى الضحوة الكبرى، وبعد صلاة الظهر إلى قرب صلاة العصر، وبعدها إلى قرب المغرب، مستديماً في هذه الثلاثة الأوقات ما عدا يوم الجمعة ويوم الثلاثاء فيدرس آخر النهار فيهما. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

مؤلفاته:

إن رجلاً، بهذه المنزلة العلية من العلم والفقه في دين الله والزهد والورع، حَرِيٌّ بأن يكون من أصحاب التصانيف والتواليف، وهو كذلك، مع ما مرّ من شغل وقته بالتعليم والإرشاد، فقد ترك لنا مصنفات كثيرة جاوزت التسعين، منها الكتاب الكبير والرسالة الصغيرة، في مواضيعَ شتى تشهد بإمامته وجلالته، منها:

١ ـ إرشاد القاري لصحيح البخاري.

٢ ـ هداية المحتذي شرح شمائل الترمذي، (ط).

٣ ـ منهل الصفا في شمائل المصطفى ﷺ، (ط).

٤ ـ حادي الأنام إلى دار السلام، (ط).

٥ ـ خلاصة الاكتفاء في سيرة المصطفى والثلاثة الخلفاء.

٦ ـ عقد اللآلي في شرح بدء الأمالي، (ط).

٧ ـ روضة النواظر والألباب بذكر أعيان الصحابة الأنجاب.

٨ ـ منظومة تحفة الطلاب، في الفقه الحنفي، (ط).

٩ ـ زواهر القلائد على مهمات القواعد (في القواعد الفقهية)، (ط).

١٠ ـ منهاج الراغب شرح إتحاف الطالب، (ط).

وغيرها من المؤلفات الكثيرة.

وفاته:

توفي ـ رحمه الله ـ ليلة الخميس التاسع والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٢٧٠هـ بمكة المكرمة بعد قضاء مناسك الحج، وكانت وفاته وقت التذكير في الحرم الشريف، وغسله رجل موصوف بالصلاح من خواصِّ أصحاب الشيخ اسمه الشيخ محمود الكردي المكي، ودفن في حوطة الشيخ صالح الريس، وقد دفن في هذه الحوطه جمع من العلماء والصلحاء.

رحم الله المؤلف رحمة واسعة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

مخطوطتا الكتاب ومنهج التحقيق

اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب وإخراجه على نسختين خطيتين:

الأولى: ناقصة من أول الكتاب قرابة صفحة، وهي بخط الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عرفج، وعدد الصفحات (١٦٤) صفحة، في كل صفحة (٢٩) سطراً، في كل سطر (١٠) كلمات تقريباً. وقد انتهى منه كاتبه في (١٤ جمادى الأولى ١٢٦٧هـ)، أي: قبل وفاة المؤلف بثلاث سنوات.

الثانية: بخط عبد العزيز بن محمد بن قاسم بن حميد. وعدد الصفحات (١٨١) صفحة، في كل صفحة (٢٤) سطراً، في كل سطر (١٢) كلمة تقريباً. وقد انتهى منه كاتبه في (١٧ محرم ١٢٨٥هـ)، أي: بعد وفاة المؤلف بـ(١٥) سنة.

وكان عملي في الكتاب على النحو التالي:

١ ـ نسخت النسخة المخطوطة ثم قابلته عليها.

٢ ـ راعيت في كتابة النص القواعد الإملائية المتعارف عليها في الوقت الحاضر.

٣ ـ قمت بضبط الحِكَم بالشكل، وميزتها بخط مختلف عن الشرح.

٤ ـ صَدَّرْتُ الكتاب بمقدِّمة بيَّنت فيها الحاجة إلى مثل هذه الكتب، خاصة في وقتنا الحاضر.

٥ـ وضعت ترجمة موجزة لصاحب «الحكم» الإمام ابن عطاء الله السكندري، وأتبعته بترجمة الشارح رحمهما الله تعالى.

٦ ـ خرّجت الآيات والأحاديث الواردة في الكتاب حسب الاستطاعة.

٧ ـ ترجمت لكثير من الأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب.

٨ ـ ألحقتُ الكتاب بفهرسة الحكم المشروحة، وفهرسة عامة للموضوعات، وفهرسة أبجدية للحكم.

وقد بذلت جهدي في إخراجه ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وأسأله عز وجل أن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يجزل المثوبة لمؤلفه ولكل من ساهم في إخراجه.

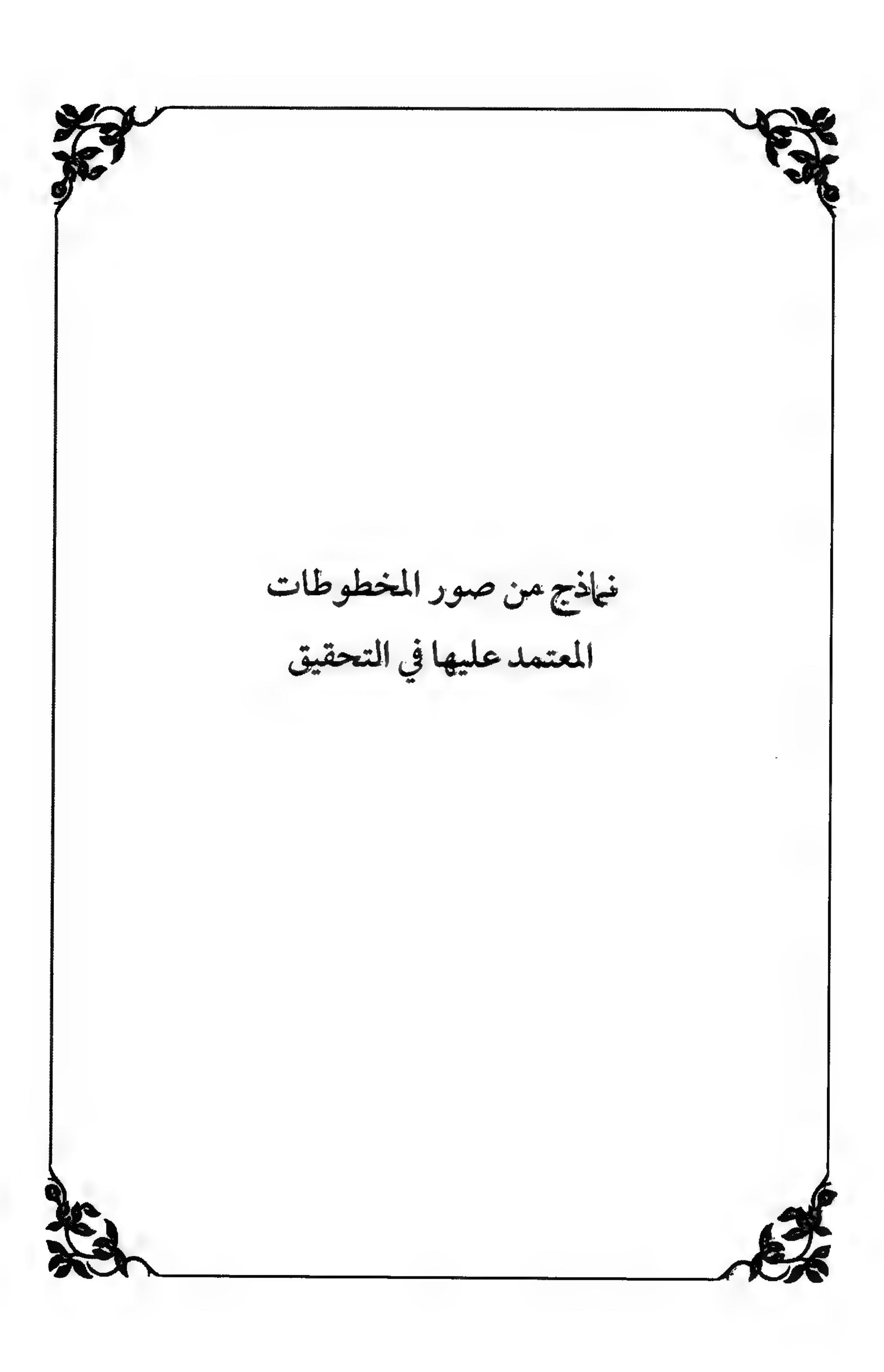
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الأحساء

٢٧/٦/١٤٢٨هـ

وكتبه المفتقر إلى عفو المولى

يحيى ابن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



نماذج من صور المخطوطات

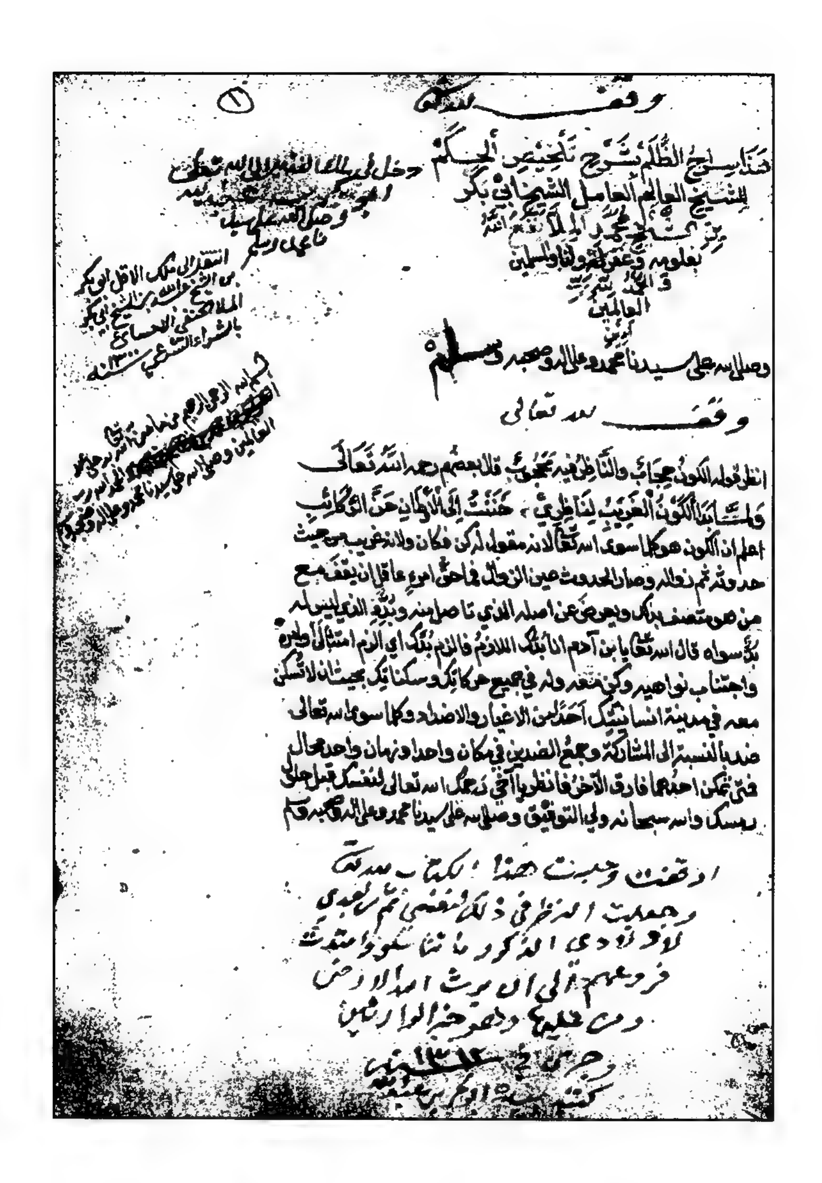
المعتمد عليها في التحقيق

إليه بشرعه وأمر بتبليغه. أما بعد: كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب لآخر
فهذا أي المؤلف الحاضر في الذهن تلخيص أي اختصار الحكم العطائية
بفتح العين نسبة إلى الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد
الكريم بن عطاء الله الإسكندري المالكي الشاذلي المتوفى سنة تسع وسبعمائة
رحمه الله تعالى ورضي عنه مرتب على الأبواب لتسهل مراجعتها على الطلاب
عند قصد المطلوب من كل باب التي رتبها بعض العلماء من الصوفية
وهو الشيخ العلامة أبو الحسن علي الهندي رحمه الله تعالى كما رأيته منسوبا إليه
والله سبحانه الموفق لا غيره والتوفيق خلق قدرة الطاعة في العبد وضده
الخذلان وهو خلق قدرة المعصية فيه أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه
وأفاض علينا من سوابغ نعمه آمين. هذا باب بيان العلم
النافع اعلم أن طلب العلم الذي لا يتم الإيمان والإسلام بدونه فرض عين على
كل مسلم ومسلمة وهو العلم بالله ورسوله واليوم الآخر والعلم بما أوجب الله
تعالى فعله من الفرائض وبما أوجب تركه من المحارم ويدل لذلك قوله صلى الله
عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا
العلم ولو بالصين. قال العلماء رحمهم الله تعالى ما وجب عليك عمله وجب عليك
العلم به والحاصل أنه يجب على المسلم أن يعلم بوجوب جميع الواجبات العينية
وبتحريم جميع المحرمات التي هو مستهدف للوقوع فيها كالزنا واللواط وشرب
المسكر وظلم الناس والسرقة والخيانة والكذب والغيبة وأشباه ذلك وأما
العلم بشروط البيع والشراء والمعاملات والنكاح فيجب على من أراد الدخول
في شيء منها أن يعلم حكم الله فيها وما يصح به وما تفسد به ويجب على من عنده
مال تجب فيه الزكاة العلم بأحكامها وعلى مستطيع الحج العلم بأركانه وشروطه
وأما الاتساع في العلوم الدينية النافعة والاستكثار منها والزيادة على قدر
الحاجة فذلك من أعظم الوسائل إلى الله تعالى وأفضل الفضائل عند الله عز وجل
ولكن مع الإخلاص لوجه الله تعالى في طلب العلم ومطالبة النفس بالعمل به وتعليمه

(صورة الصفحة الأولى من المخطوطة الأولى)

كلها غيبًا في العرش لانها في طيه ولا ظهور إلا للعرش ولا للهواء وإنما الظهور التام
له عز وجل تحققت الإشارات بالأنوار كما بين الهواء والعرش وتحوت الأعيان بمحيطات
أفلاك الأنوار كما بين الرحمة والرحمانية ومحيطات أفلاك الأنوار هي أسماء الله تعالى الحسنى
والله أعلم بأنه احتجب بسرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار عزه الله
تعالى اقتضت كونه كلما سواه محجوبًا عن رؤية الله عز وجل فإنه العزيز في معناه المنيع
الذي لا يوصل إليه وذكر السرادقات مضافة إلى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن بأنه
تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار كالنهاية وبمحاسن صفاته
وأسمائه فبظهوره له وتجليه بها تحققت عظمته أسرار العارفين كيف تخفى
و[illegible] في [illegible] كيف تغيب وأنت الرقيب [illegible] هذا [illegible] لا اتصال فيه
وقد تقدم معناه صريحًا من كلام المؤلف رحمه الله وهذا آخر ما يسر الله تعالى جمعه
من شرح تلخيص تبويب الحكم والله سبحانه المسؤول أن يعفو عن الخطأ والمعنى الذي
وقع عن سهو قلم أو خلل في الفهم وسقم مع الهم التعرض لإيضاح شيء من كلام المؤلف
رحمه الله تعالى من تلقاء نفسي إذ لا إدراك لأمثالي في فهم المراد منه ولا لقاصر مثلي
من أبناء جنسي وقد وقع الفراغ من ذلك بعون الله الملك في اليوم التاسع
من شهر ذي الحجة الحرام آخر شهور السنة السادسة والستين بعد المايتين والألف
من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة وأكمل التحية بقلم جامعه المسكين الفقير
إلى عفو الغني القدير أبي بكر بن محمد بن عمر الملا سامحه الله تعالى وأسبغ عليه نعمه
ووالديه وغفر له ولوالديه ولذريته ولمشايخه وأحسن إليه آمين كذا بخط شيخنا أطال
الله تعالى عمره وختم بالصالحات عمله وقد وقع الفراغ منه بقلم أفقر الورى أحمد بن عبد الرحمن
بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر رابع عشر جمادى أول من سنة ألف ومايتين وسبعا
وستين وألف من هجرته صلى الله عليه وسلم والحمد لله الذي هدانا لهذا
وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا
الله تعالى

(صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة الأولى)



هذا سراج الظلم شرح تلخيص الحكم للشيخ العالم العامل الشيخ أبي بكر ابن الشيخ محمد الملا نفعنا الله بعلومه وغفر له ولوالديه والمسلمين ... العالمين آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وقف لله تعالى

انظر قوله الكون عجائب والناظر فيه محجوب. قال بعضهم رحمه الله تعالى
ولما بدا الكون الغريب لناظري ... حننت إلى الأوطان حن الركائب
اعلم أن الكون هو كل ما سوى الله تعالى لأنه مقول لكن فكان ولأنه غريب من حيث
حدوثه ثم تعالى وصار الحدوث عين الزوال فأحق امرئ عاقل أن يقف مع
من هو متصف بذلك ويعرض عن أصله الذي تأصل منه ويتبع الذي ليس له
بد سواه قال الله تعالى يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك أي الزم امتثال أوامره
واجتناب نواهيه وكن متعبدا له في جميع حركاتك وسكناتك بحيث أنه لا تسكن
معه في معية أنسا بشيء أحد من الأغيار والأضداد وكل ما سوى الله تعالى
ضد بالنسبة إلى المشاركة وجمع الضدين في مكان واحد وزمان واحد محال
فمتى تمكن أحدهما فارق الآخر فانظر يا أخي رحمك الله تعالى لنفسك قبل حلول
رمسك والله سبحانه ولي التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

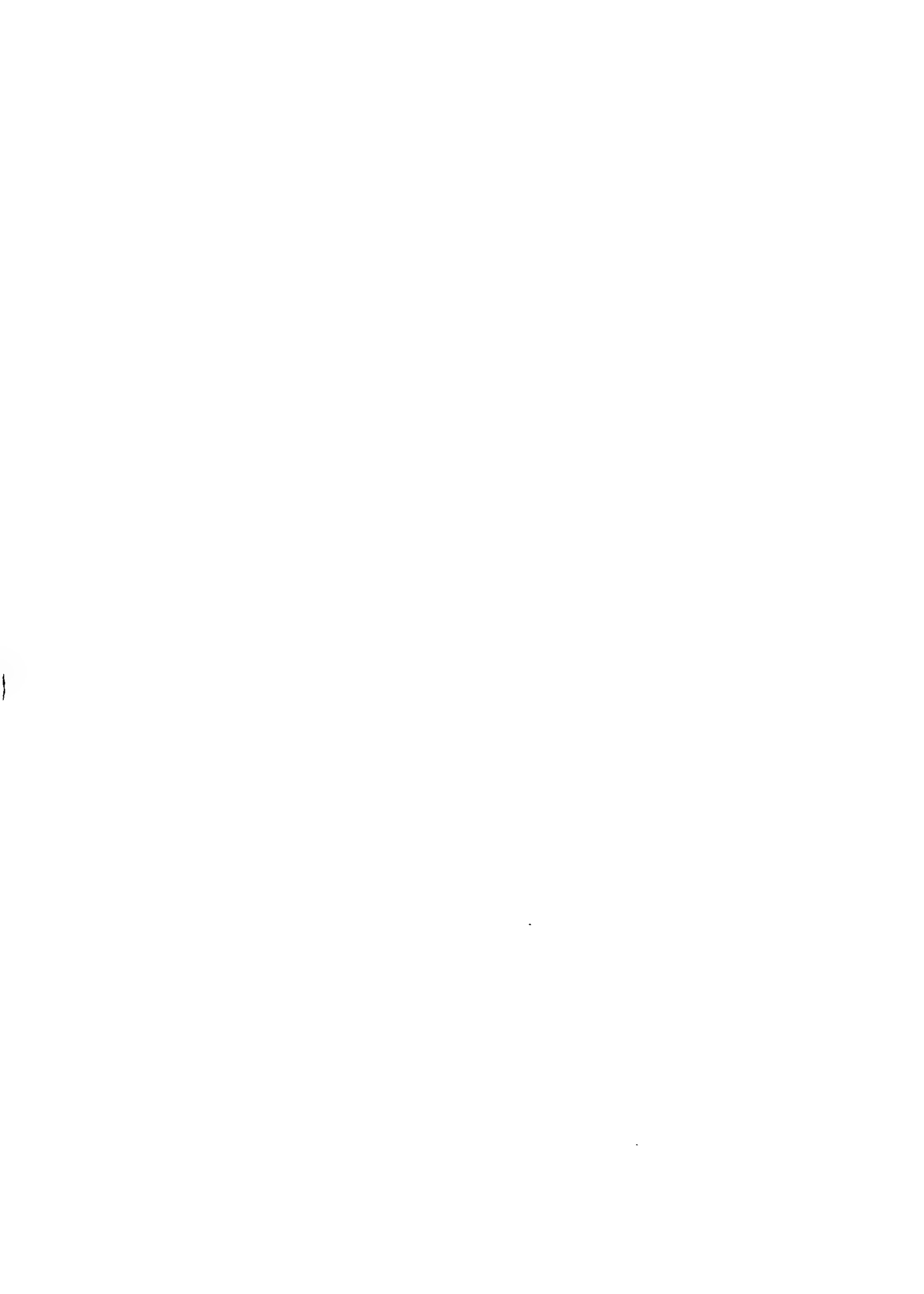
(صورة المخطوطة الثانية التي يظهر فيه عنوان الكتاب)

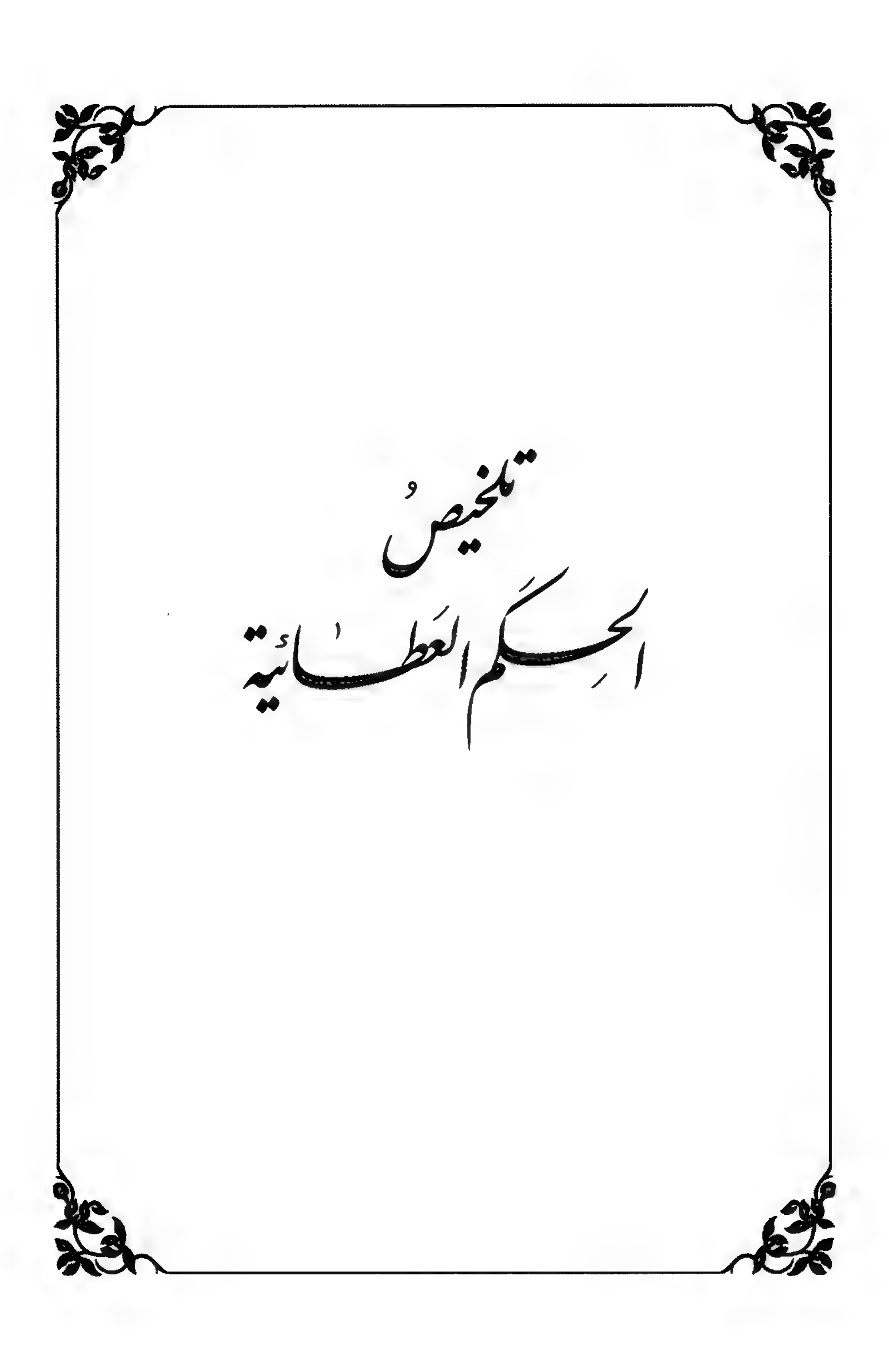
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله بارئ الخلق من العدم المتفضل عليهم بسوابغ النعم والصلوة والسلام
على سيدنا محمد افضل العرب والعجم المبعوث الى كافة الامم وعلى آله اولي
الفضل والكرم واصحابه ينابيع العلوم والحكم (وبعد) فهذا شرح لطيف
على ما لخصته من الحكم العطائية لحل مشكله وكشف معضله جمعته
من شروح اهل الفن الذين سلكوا طريق الحق وتركوا سبيل الظن كشرح الشيخ
محمد بن عباد وشرح الشيخ ابي علي الحجازي وشرح السيد محمد بن احمد الشهير
بالاهدل وشرح الشيخ احمد القشاشي وغيرها من الكتب وعزوت في الاغلب
كل عبارة الى كتابها متنصلا من عهدتها حيث لم ابلغ من الفهم مبلغ اصحابها
ولم اذق شيئا من رحيق شرابها وانما غايتي ان تطفلت بنقل كلامهم لتعود
بركته علي وان لم اصل الى ادنى مراتبهم ولو لم يكن لي من ذلك الا التشبه بهم
والتعلق بالانتساب الى بعض ما ساروا به كما قيل
فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ... ان التشبه بالكرام رباح
وقد آثرت فيه مما
ذكرت اوضح العبارات معرضا عما خفي في ذلك من لطائف الاشارات وسميته
سراج الظلم بشرح تلخيص الحكم والله سبحانه المسؤول ان يجعل سعيي في جمعه من
العمل المقبول انه اكرم مأمول (بسم الله) الجار والمجرور متعلق بمحذوف
تقديره اؤلف لان كل فاعل يبتدئ فعله ببسم الله يضمر ما جعل التسمية
مبدأ له والاسم مشتق من السمو وهو العلو والله علم على الذات الواجب الوجود
المستحق لجميع الكمالات لذاته (الرحمن الرحيم) صفتان لله عز وجل (الحمد) هو لغة
الوصف بالجميل وعرفا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لانعامه واللام في (لله)
للاستحقاق اذ هو المستحق للحمد على الاطلاق (والصلوة) هي من الله تعالى رحمة
مقرونة بتعظيم ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين تضرع ودعا (والسلام)
بمعنى التسليم اي التحية بالسلام (على سيدنا) اي افضل معاشر المخلوقات
(محمد رسول الله) والمراد به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والرسول انسان ذكر حر اوحي
اليه

(صورة الصفحة الأولى من المخطوطة الثانية)

ومحيطات افلاك الانوار هي اسماء الله تعالى الحسنى واسرار علم يا من احتجب في
عزه عن ان تدركه الابصار عزة الله تعالى اقتضت كون كل ما سواه محجوبا عن
رؤيته الله عز وجل فان العز معناه المنيع الذي لا يوصل اليه وذكر السرادقات
مضافة الى العز واحتجابه فيها مجاز حسن يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت
عظمته الاسرار بكمال بهائه ومحاسن صفاته واسمائه فيظهر خلقه وتجليه
بها تحققت عظمته اسرار العارفين كيف تخفى وانت الظاهر ام كيف تغيب
وانت الرقيب الحاضر هذا كله بين لا اشكال فيه وقد تقدم معناه غير مرة
من كلام المؤلف رحمه الله وهذا اخر ما يسر الله تعالى جمعه من شرح تلخيص
تبويب الحكم والله سبحانه المسؤول ان يعفو عن الخطا في المعنى الذي وقع
عن سبق قلم او خلل في الفهم وسقم مع اني لم اتعرض لايضاح شيء من كلام
المؤلف رحمه الله تعالى من تلقاء نفسي اذ لا ادراك لامثالي في فهم المراد منه
والا لقاصرين من ابناء جنسي وقد وقع الفراغ من ذلك بعون القادر المالك
في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة الحرام آخر شهور السنة السادسة
والستين بعد المائتين والالف من الهجرة النبوية على مهاجرها افضل الصلاة
واكمل التحية بقلم جامعه المسكين الفقير الى عفو الغني القدير ابي بكر بن محمد الملا
سامحه الله تعالى واسبغ عليه نعمه ووالى وغفر له ولوالديه ولذريته ولمشايخه
واحبته امين كذا بخط الشيخ رحمه الله تعالى وقد وقع الفراغ منه بقلم افقر
الورى الى الله تعالى الغني صح عبد العزيز بن محمد بن قاسم بن حميد سابع عشر عاشور الحرام من سنة
الف ومايتين وخمسة وثمانين من هجرته صلى الله عليه
وسلم والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا
لنهتدي لولا ان هدانا الله
تعالى
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة الثانية)





تلخيص الحكم العطائية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد،

فهذا تلخيصٌ من الحكم العَطَائيّة مُرَتَّبٌ على الأبواب التي رتبها بعض العلماء من الصوفية، والله سبحانه الموفق.

باب العلم

١ـ العِلْمُ النَّافِعُ هو الذي يبْسطُ في الصَّدرِ شُعاعه، ويُكْشَفُ بهِ عنِ القَلْبِ قِناعه.

٢ـ العِلْمُ إنْ قارَنَتْهُ الـخَشْيَةُ فلَكَ، وإلّا فَعليْكَ.

باب الإخلاص

٣ـ الأعمالُ صُوَرٌ قَائمةٌ وأرْواحُها وجُودُ سِرِّ الإخْلاص فِيها.

٤ـ ما أرادتْ هِمَّةُ سالِكٍ أن تَقِفَ عندَ ما كُشفَ لـها إلّا ونادَتْهُ هَواتِفُ الحقيقةِ: الذي تَطْلُبُ أمامَكَ، ولا تبرَّجَتْ ظَوَاهِرُ المكوَّنَاتِ إلّا ونادَتْهُ حَقائقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٥ـ لا تَرْحَلْ مِن كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فتكُونَ كحِمارِ الرَّحَى، يَسِيرُ والذي ارتحَلَ

إليه هُوَ الذي ارتحَلَ مِنه؛ ولكِنِ ارْحَلْ منَ الأكوانِ إلى المُكَوِّن، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢].

٦- لا عَمَلَ أَرْجَى للقَبولِ مِن عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُوده، ويُحتقَرُ عندَكَ وُجُودُه.

٧- لا تُفْرِحْكَ الطَّاعة؛ لأنها بَرَزَتْ منْك، وافْرَحْ بها لأنها بَرَزَتْ منَ اللّٰـهِ إلَيْكَ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

٨ - كَفَى مِن جَزَائِهِ إيَّاكَ على الطَّاعةِ أَنْ رَضِيَكَ لها أهلاً.

٩- كَفَى العَامِلِينَ جَزَاءً ما هُوَ فاتِحُهُ على قُلُوبِهم في طاعتِه، وما هُوَ مُورِدُهُ عَليهم مِن وُجُودِ مُؤَانَسَتِه.

١٠- مَن عَبَدَهُ لشيءٍ يَرْجُوهُ منهُ، أو لِيَدفَعَ بطَاعتِهِ وُرُودَ العُقُوبةِ عنه، فما قامَ بحَقِّ أوصَافِه.

١١- متى طَلَبْتَ عِوَضاً على عمَلٍ: طُولِبْتَ بوُجُودِ الصِّدْقِ فيه، ويكفي المُرِيبَ وِجْدانُ السَّلامة.

١٢- لا تَطْلُبْ عِوَضاً عَن عَمَلٍ لَستَ لـهُ فاعلاً، يكفي منَ الجَزاءِ لكَ عَلَى العَمَلِ أن كانَ لهُ قابلاً.

١٣- أنتَ إلى حِلْمِهِ إذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إذا عَصَيْتَه.

١٤- رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْك مِن حيثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إلَيْك.

١٥- استشرافُكَ أن يَعْلَمَ الخَلْقُ بخُصُوصِيَّتِك، دَلِيلٌ على عَدَمِ صِدْقِـكَ في عُبُودِيَّتِك.

١٦ـ غَـيِّبْ نَظَرَ الخَلْقِ إلَيْك بنَظَرِ اللّـهِ إلَيْك، وغِبْ عن إقبالِهِم عَلَيْك بشُهُودِ إقبالِهِ عَلَيْك.

١٧ـ لا يكُنْ طَلبُكَ تَسبُّباً إلى العَطاءِ مِنه فيَقِلَّ فَهْمُكَ عنه، ولْيكُنْ طَلبُـكَ لإِظْهارِ العُبُودِيّة، وقياماً بحقِّ الرُّبُوبِيَّـة.

١٨ـ كيفَ يكُونُ طَلبُكَ اللاّحِقُ سَبباً في عَطائِهِ السَّابق!

١٩ـ جَلَّ حُكْمُ الأزَل أَن يَنْضافَ إلى العِلَل.

٢٠ـ كما لا يُحِبُّ العَمَلَ المُشْترَك، كذلك لا يُحِبُّ القلبَ المُشْترَك. العَمَلُ المُشْترَكُ لا يَقبَلُه، والقَلبُ المُشترَكُ لا يُقبِلُ عَلَيْه.

٢١ـ ما أحْبَبْتَ شيئاً إلا كنتَ لـهُ عَبْداً، وهُوَ لا يُحِبُّ أن تكونَ لِغيرِهِ عَبْداً.

٢٢ـ رُبَّما وَقَفَتِ القُلُوبُ معَ الأنوار، كما حُجِبَتِ النُّـفُوسُ بكثائفِ الأغيَار.

٢٣ـ ليسَ المُحِبُّ الذي يرجُو مِن محبُوبِـهِ عِوَضًا أو يَطلُبُ مِنه غَرَضاً، فإنّ المُحِبَّ: مَن يَبذُلُ، ليسَ مَن يُبذَلُ لهُ.

٢٤ـ كيفَ تَطلُبُ العِوَضَ على عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْك! أم كيفَ تَطلُبُ الجَزاءَ على صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إلَيْك!

باب العزلة

٢٥ـ ما نَفَعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزْلةٍ يَدخُلُ بها مَيْدانَ فِكْرة.

٢٦ـ ادْفِنْ وُجُودَكَ في أَرضِ الخُمُولِ، فما نَبَتَ مِمَّا لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتاجُه.

٢٧ـ سُبْحانَ مَن لم يَجْعَلِ الدَّليلَ على أوليائِهِ إلّا مِن حيثُ الدَّليلُ عَلَيْه، ولم يُوصِلْ إليهم إلّا مَن أرادَ أن يُوصِلَهُ إلَيْه.

باب رعاية الوقت

٢٨ـ ما مِن نَفَسٍ تُبْدِيه، إلّا ولهُ فِيكَ قَدَرٌ يُمْضِيه.

٢٩ـ إحالتُكَ الأعمالَ علَى وُجُودِ الفَراغِ مِن رُعُونَاتِ النَّفْس.

٣٠ـ ما فات مِن عُمْرِكَ لا عِوَضَ لهُ، وما حَصَلَ لكَ مِنهُ لا قِيمةَ له.

٣١ـ الـخِذْلانُ كلّ الـخِذْلاَنِ أن تَتَفَرَّغَ منَ الشَّواغِل، ثُمَّ لا تَتوَجَّهَ إلَيْه، وتَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْه.

باب الذكر

٣٢ـ لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ معَ اللّـهِ فيه؛ لأنّ غَفْلتَكَ عَن وُجُودِ ذِكْرِهِ أشدُّ مِن غَفْلتِكَ في وُجُودِ ذِكْرِه، فعَسَى أن يَرْفَعَكَ مِن ذِكْرٍ معَ وجُودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ معَ وُجُودِ يَقَظة، ومِن ذِكْرٍ معَ وُجُودِ يَقَظةٍ إلى ذِكْرٍ معَ وُجُودِ حُضُور، ومِن ذِكْرٍ معَ وُجُودِ حُضُورٍ إلى ذِكْرٍ معَ غَيْبةٍ عمّا سِوَى المذْكُور، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

باب الفكر

٣٣ـ الفِكْرةُ: سَيْرُ القلبِ في ميادينِ الأغيار.

٣٤ـ الفِكْرةُ سِرَاجُ القَلْب، فإذا ذَهَبَتْ فلا إضاءةَ لهُ.

٣٥ـ الفِكْرةُ فِكْرتان: فِكْرةُ تصديقٍ وإيمان، وفِكْرةُ شُهُودٍ وعِيَان. فالأُولى لأربابِ الاعتبار، والثَّانِيةُ لأربابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصار.

باب الزهد

٣٦ـ ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِن قَلْبِ زاهد، ولا كثُر عَمَلٌ بَرَزَ مِن قَلْبِ راغب.

٣٧ـ لِيَقِلَّ ما تَفْرَحُ بهِ يَقِلَّ ما تحزَنُ عليه.

٣٨ـ الطَّيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِيَ مسافةَ الدُّنيا عنك، حتَّى تَرَى الآخرةَ أقرَبَ إِلَيْكَ مِنْك.

٣٩ـ العطاءُ منَ الخَلْقِ حِرْمان، والمَنْعُ منَ اللّـهِ إحْسَان.

٤٠ـ الأكوانُ ظَاهِرُها غِرَّة، وباطِنُها عِبْرة، فالنَّـفْسُ تَنْظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتِها، والقَلْبُ يَنْظُرُ إلى بَاطِنِ عِبْرَتِها.

٤١ـ إنْ أردتَ أن يكُونَ لكَ عِزٌّ لا يَفْنَى، فلا تَسْتَعِزَّنَّ بعِزٍّ يَفْنَى.

باب الفقر والفاقة

٤٢ـ ورُودُ الفَاقات أعيادُ المُرِيدين.

٤٣ـ رُبَّما وَجَدْتَ منَ المَزِيدِ في الفَاقاتِ مَا لا تَجِدُهُ في الصَّومِ والصَّلاة.

باب تزكية النفس والتحذير من دسائسها

٤٤ـ تشوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ منَ العُيُوب، خيرٌ مِن تشوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عنكَ منَ الغُيُوب.

٤٥- اخْرُجْ مِن أَوْصافِ بَشَرِيَّتِكَ عَن كلِّ وَصْفٍ مُناقِضٍ لِعُبُودِيَّتِك، لِتكُونَ لِنداءِ الحقِّ مُجيباً، ومِن حَضرتِهِ قريباً.

٤٦- أَصْلُ كلِّ مَعْصِيةٍ وغَفْلةٍ وشَهْوة: الرِّضَا عنِ النَّفْس، وأَصْلُ كلِّ طَاعةٍ ويَقَظةٍ وَعِفَّة: عَدَمُ الرِّضَا مِنكَ عنها.

٤٧- ولأنْ تَصْحَبَ جاهلاً لا يَرضَى عن نفسِهِ، خيرٌ لكَ مِن أنْ تَصحَبَ عالِماً يَرضَى عن نَفسِه، فأيُّ عِلْمٍ لعالِمٍ يَرضَى عن نفسِه! وأيُّ جَهْلٍ لِجاهلٍ لا يَرضَى عن نفْسِه!

٤٨- كيفَ تُخرَقُ لكَ العوائدُ وأنتَ لم تَخرِقْ مِن نفسِكَ العوائد!

٤٩- كيفَ يُشرِقُ قَلبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنطبِعةٌ في مِرآتِه! أم كيفَ يَرحَلُ إلى اللّٰـهِ وهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَواتِه! أم كيفَ يَطمَعُ أن يَدخُلَ حَضْرةَ اللّٰـهِ وهُوَ لم يَتطَهَّرْ مِن جَنَابَةِ غَفَلاتِه! أم كيفَ يَرْجُو أن يَفهَمَ دَقائقَ الأسْرارِ وهُوَ لم يَتُبْ مِن هَفَواتِه!

٥٠- لا يُخافُ عَليكَ أن تَلتَبِسَ الطُّرُقُ عليكَ، وإنَّما يُخافُ عَليْكَ مِن غَلَبَةِ الهَوَى عليك.

٥١- النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ بِما يَظُنُّونَ فيك، فكُنْ أنتَ ذامّاً لِنَفْسِكَ لِـمَا تَعلَمُهُ منها.

٥٢- المؤْمِنُ إذا مُدِحَ اسْتَحَى منَ اللّٰـه تعالَى أن يُثْنَى عليْه بوَصْفٍ لا يَشهَدُهُ مِن نفْسِه.

٥٣- أجْهَلُ النَّاسِ مَن تَركَ يَقِينَ ما عندَهُ لِظَنِّ ما عندَ النَّاس.

٥٤- الـمؤْمنُ يَشغَلُهُ الثَّناءُ على اللّٰـهِ تعالَى عَن أن يكُونَ لِنفْسِهِ شاكراً، وتَشغَلُهُ حُقوقُ اللّٰـهِ تعالَى عن أن يكُونَ لِـحُظُوظِهِ ذاكراً.

٥٥ـ إِذا التَبسَ عليْكَ أمرانِ فانْظُرْ أثقَلَهُما علَى النَّفْسِ فاتْبَعْهُ، فإِنّهُ لا يَثقُلُ عليها إلاّ ما كان حقّاً.

٥٦ـ لولا مَيادِينُ النُّفُوس ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائرين، إِذْ لا مسافةَ بينكَ وبَيْنَهُ حتَّى تَطْوِيَها رِحْلتُك، ولا قَطِيعةَ بيْنكَ وبيْنَهُ حتَّى تَمْحُوَها وصْلتُك.

باب الاعتدال بين الخوف والرجاء

٥٧ـ مِن عَلاَمَةِ الاعتمادِ علَى العَمَلِ: نُقصانُ الرَّجاءِ عند وُجُودِ الزَّلَل.

٥٨ـ لا يَعظُمِ الذَّنْبُ عندَكَ عَظَمةً تَصُدُّكَ عَن حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ، فإنّ مَن عَرَفَ رَبَّه، اسْتَصغَرَ ـ في جَنْبِ كَرَمِهِ ـ ذَنْبَه.

٥٩ـ لا صغيرةَ إذا قابَلكَ عَدْلُه، ولا كبيرةَ إذا واجَهكَ فَضْلُه.

٦٠ـ لا نهايةَ لِمَذامِّكَ إنْ أرجعَكَ إليك، ولا تَفْرُغُ مَدائِحُكَ إن أظهَرَ جُودَهُ عَلَيْك.

٦١ـ إذا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فلا يكُنْ سَبباً يُؤَيِّسُكَ مِن حُصُولِ الاستِقامةِ معَ رَبِّك، فقد يكُونُ ذلكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيك.

٦٢ـ الرَّجاءُ: ما قارَنَهُ عَمَل، وإلّا فهُوَ أُمْنِيَة.

٦٣ـ إنْ لم تُحْسِنْ ظَنَّكَ بهِ لأجْلِ وَصْفِه، فحَسِّنْ ظَنَّكَ بهِ لوُجُودِ مُعاملتِهِ معَك، فهل عَوَّدَكَ إلّا حُسْناً؛ وهلْ أسدَى إلَيْك إلّا مِنناً؟!

٦٤ـ إذا أرَدْتَ أن يَفتَحَ لكَ بابَ الرَّجاءِ فاشهَدْ ما مِنْهُ إلَيْك، وإذا أرَدْتَ أن يَفتَحَ لكَ بابَ الخوفِ فاشهَدْ ما مِنْكَ إليه.

٦٥ـ منِ استغْرَبَ أنْ يُنقِذَهُ اللهُ تَعالَى مِن شَهْوتِه، وأن يُخْرِجَهُ مِن وُجُودِ غَفْلَتِه، فقدِ استَعْجَزَ القُدْرةَ الإلهيَّة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٥٤].

٦٦ـ لا يُخْرِجُ الشَّهْوةَ منَ القَلْبِ إلّا خَوْفٌ مُزْعِج، أو شَوْقٌ مُقْلِق.

٦٧ـ لا تيْأَسْ مِن قَبُولِ عَمَلٍ لم تَجِدْ فيهِ وُجودَ الحضُور، فرُبَّما قُبِلَ منَ العَمَلِ ما لم تُدْرِكْ ثَمرَتَهُ عاجِلاً.

باب آداب طلب الدعاء

٦٨ـ لا يكُنْ تأخُّرُ أمَدِ العَطاءِ معَ الإلحاحِ في الدُّعاءِ مُوجِباً لِيَأْسِك، فهُوَ الذي ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يَختارُ لك، لا فيما تَختارُهُ لِنفْسِكَ، وفي الوقْتِ الذي يُرِيدُ، لا في الوقْتِ الذي تُريد.

٦٩ـ لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إلى غيرِه، فالكرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمال.

٧٠ـ مَتى أطلَقَ لِسانَكَ بالطَّلَبِ فاعلَمْ أنّهُ يُرِيدُ أنْ يُعْطِيَك.

٧١ـ ما طَلَبَ لكَ شيءٌ مِثْلُ الاضْطرار، ولا أسرَعَ بالمواهِبِ إليكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافتقار.

٧٢ـ رُبَّما استَحْيا العارِفُ أن يَرفَعَ حاجتَهُ إلى مَوْلاهُ اكتفاءً بمشيئتِه، واعتماداً علَى قِسمتِه، فكيفَ لا يَستَحيي أن يَرْفَعَها إلى خَلِيقتِه!.

٧٣ـ لا تَستَبْطِئْ مِنهُ النَّوالَ؛ ولكنِ استَبْطِئْ مِن نَفْسِكَ وُجودَ الإقبال.

٧٤ـ خيرُ ما تَطلُبُهُ مِنهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنك.

باب التسليم لأمر الله تعالى وترك الاختيار

٧٥ـ إرادتُكَ التَّجرِيدَ معَ إقامةِ اللّـهِ تعالَى إيَّاكَ في الأسْبابِ، منَ الشَّهوةِ الخفِيَّة، وإرادتُكَ الأسبابَ معَ إقامةِ اللّـه تعالَى إيَّاكَ في التَّجرِيدِ انحِطاطٌ عنِ الهِمَّةِ العَلِيَّة.

٧٦ـ أرِحْ نَفسَكَ منَ التّدبير، فما قامَ بهِ غيرُكَ عنكَ لا تقُومُ بهِ أنتَ لِنَفسِك.

٧٧ـ اجتهادُكَ فيما ضُمِنَ لكَ، وتقصِيرُكَ فيما طُلِبَ منكَ، دليلٌ علَى انطِماسِ البَصِيرةِ مِنْك.

٧٨ـ ما تَرَكَ منَ الجَهْلِ شيئاً مَن أرادَ أن يُحْدِثَ في الوقتِ غيرَ ما أظهرَهُ اللهُ تعالَى فيه.

٧٩ـ ما تَوقَّفَ مَطلَبٌ أنتَ طالِبُـهُ بربِّك، ولا تَيسَّرَ مَطلَبٌ أنتَ طالبُـهُ بنَفْسِك.

٨٠ ـ الغافلُ إذا أصبحَ نَظَرَ ماذا يَفْعَل، والعاقلُ ينظرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بـهِ.

باب الصبر على البلايا والشدائد

٨١ ـ إذا فَتَحَ لكَ وِجهةً منَ التَّعرُّفِ فلا تُبالِ معَها وإنْ قَلَّ عَمَلُك، فإنَّهُ ما فَتَحَها لك إلّا وهُوَ يُرِيدُ أنْ يَتعرَّفَ إليك، ألَم تَعلَمْ أنَّ التَّعرُّفَ هُوَ مَوْرِدُهُ إلَيْك، والأعمالُ أنتَ مُهْدِيها إلَيْه! وأينَ ما تُهْدِيهِ إلَيْهِ ممَّا هُوَ مُورِدُه عَلَيْك!

٨٢ ـ لا تَستَغْرِبْ وُقُوعَ الأكدار ما دُمْتَ مُقِيماً في هذِهِ الدَّار، فإنَّها ما أبْرَزَتْ إلّا ما هُوَ مُسْتَحِقٌّ وَصْفِها وواجِبُ نَعْتِها.

٨٣ - لِيُخَفِّف ألمَ البلاءِ عَلَيْك، عِلمُكَ بأنهُ المُبْتلي لك، فالذي واجَهَتْكَ مِنهُ الأَقدار هُوَ الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيار.

٨٤ - مَن ظَنَّ انفِكاكَ لُطفِهِ عَن قَدرِه، فذلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِه.

باب ذكر خفايا ألطافه ومنته على العباد

٨٥ - إنَّما جَعَلَ الدَّارَ الآخِرةَ محَلاً لِجَزاءِ عِبادِهِ المُؤمنين؛ لأنَّ هذِهِ الدَّارَ لا تَسَعُ ما يُرِيدُ أنْ يُعطيَهُم، ولأنَّهُ أجَلَّ أقدارَهُم عَن أنْ يُجازِيَهُم في دارٍ لا بقاءَ لها.

٨٦ - رُبَّما فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وما فَتَحَ لَكَ بَابَ القَبُول، وقَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فكانَ سَبَباً في الوُصُول.

٨٧ - مَتَى أَوْحَشَكَ مِن خَلْقِهِ، فاعلَمْ أنَّهُ يُرِيدُ أنْ يَفتَحَ لكَ بابَ الأُنسِ بـه.

٨٨ - لَمَّا عَلِمَ الحقُّ مِنكَ وُجُودَ المَلَل، لَوَّنَ لكَ الطَّاعات، وعَلِمَ ما فِيكَ مِن وجُود الشَّرَه، فحَجَرَها عَليكَ في بعضِ الأوقات؛ لِيكُونَ هَمُّكَ إقامةَ الصَّلاة، لا وُجُودَ الصَّلاة، فما كُلُّ مُصلٍّ بِمُقيم.

٨٩- إذا أرادَ أن يُظهِرَ فضلَهُ عَلَيْك، خَلَقَ الطَّاعةَ ونَسَبها إلَيْك.

٩٠- لولا جميلُ سِتْرِه، لم يكُنْ عَمَلُكَ أهْلاً للقَبُول.

٩١- أوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدمتِه، وما أوْجَبَ عليْكَ إلّا دُخُولَ جَنَّتِه.

٩٢- لا تَنفَعُهُ طاعَتُك، ولا تَضُرُّهُ مَعصِيَتُك، وإنَّما أمَرَكَ بهذِهِ، ونَهاكَ عَن هذِهِ لِمَا يَعُودُ عَلَيْك.

٩٣ـ إنَّما جَعَلَها محَلًّا للأغيار، ومَعدِناً لِوُجُودِ الأكدار، تزهِيداً لكَ فيها.

٩٤ـ إذا عَلِمتَ أنَّ الشَّيطانَ لا يَغفلُ عَنكَ، فلا تَغْفلْ أنتَ عمَّن نَاصِيتُكَ بيَدِه.

٩٥ـ جَعَلَهُ لكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إلَيْه، وحَرَّكَ علَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إقبالُكَ عَلَيْه.

٩٦ـ أكرَمَكَ بِكراماتٍ ثلاثٍ: جَعَلَكَ ذاكراً له؛ ولولا فضلُهُ لم تكُنْ أهلاً لِجَرَيانِ ذِكْرِهِ عليك، وجَعَلَكَ مذكوراً بِهِ، إذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْك، وجَعَلَكَ مذكوراً عندَهُ، فتَمَّمَ نِعمتَهُ عليك.

باب الصحبة

٩٧ـ لا تَصحَبْ مَن لا يُنهِضُكَ حالُه، ولا يَدُلُّكَ علَى اللّـهِ مَقالُه.

٩٨ـ رُبَّما كنتَ مُسِيئاً فأراكَ الإحسانَ مِنكَ صُحبتَكَ إلى مَن هُوَ أسوأُ حالاً مِنك.

٩٩ـ ما صَحِبَكَ إلّا مَن صَحِبَكَ وهُوَ بِعَيْبِكَ عليم، وليسَ ذلك إلّا لِمَوْلاكَ الكريم.

١٠٠ـ خيرُ مَن تَصحَبُ مَن يَطلُبُكَ لكَ، لا لشيءٍ يَعُودُ مِنكَ إليه.

باب الطمع

١٠١ـ ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلّا علَى بَذْرِ طَمَع.

١٠٢ـ أنتَ حُرٌّ ممَّا أنتَ مِنهُ آيِس، وعَبْدٌ لِمَا أنتَ لهُ طامع.

باب التواضع

١٠٣ـ مَن أثبَتَ لِنفسِهِ تَواضُعاً فهُوَ المُتكبِّرُ حقًّا، إذْ ليسَ التَّواضُعُ إلّا عَن رِفْعةٍ، فمَتى أثْبَتَّ لِنفْسِكَ تَواضُعاً فأنتَ المُتكبِّر.

١٠٤ـ ليسَ المُتواضِعُ الذي إذا تَواضَعَ رَأَى أنّه فَوْقَ ما صَنَعَ، ولكنَّ المُتواضِعَ: الذي إذَا تَواضَعَ رَأَى أنَّهُ دُونَ ما صَنَع.

١٠٥ـ التَّواضُعُ الحقيقيُّ هُوَ ما كانَ ناشئاً عن شُهُودِ عَظَمتِه وَتَجَلِّي صِفَتِه.

١٠٦ـ مَعصِيةٌ أورَثَتْ ذُلاًّ وافتقاراً خيرٌ مِن طَاعةٍ أورَثَتْ عِزّاً واستكباراً.

باب الخوف من الاستدراج

١٠٧ـ خَفْ مِن وُجُودِ إحسانِه إليك، ودَوامِ إساءَتِكَ معَهُ، أن يكُونَ ذلكَ استِدراجاً لك، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

١٠٨ـ مِن جَهْلِ المُريدِ أنْ يُسيءَ الأدَبَ فتُؤَخَّرَ العُقُوبةُ عنه، فيقُولَ: لو كانَ هذا سُوءَ أدَبٍ لَقَطَعَ الإمْداد، وأوجَبَ البِعَاد، فقد يُقْطَعُ المَدَدُ عنهُ مِن حيثُ لا يَشعُرُ، ولو لم يكُنْ إلّا مَنْعُ المزِيدِ، وقد يُقامُ مَقامَ البُعْدِ مِن حيثُ لا يَدرِي، ولو لم يكُنْ إلاَّ أنْ يُخَلِّيَكَ وما تُرِيد.

باب الوِرْد والوارد

١٠٩ـ إذا رأيتَ عَبْداً أقامهُ اللهُ بِوُجُودِ الأوراد، وأدامهُ عليها معَ طُولِ الإمداد، فلا تَستَحقِرَنَّ ما مَنَحهُ مَوْلاه؛ لأنَّكَ لم تَرَ عَلَيْهِ سِيماءَ العارِفين، ولا بَهجةَ المُحِبِّين، فلولا وارِدٌ ما كان وِرْد.

١١٠- لا يَستَحْقِرُ الوِرْدَ إلّا جَهُول. الوارِدُ يُوجَدُ في الدَّارِ الآخِرة، والوِرْدُ يَنطَوِي بانْطواءِ هذِهِ الدَّارِ، وأولَى ما يُعْتَنَى بِهِ ما لا يُخلَفُ وُجُودُه. الوِرْدُ هُوَ طالبُهُ مِنك، والوارِدُ أنتَ تَطلُبُهُ مِنْه، وأينَ ما هُوَ طالبُهُ مِنكَ ممَّا هُوَ مَطلَبُكَ مِنه.

١١١- تَنوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ لِتَنوُّعِ وارِداتِ الأحوال.

١١٢- حُسْنُ الأعمالِ نتائجُ حُسْنِ الأحوال، وحُسْنُ الأحوالِ منَ التَّحقُّقِ في مَقاماتِ الإنزال.

١١٣- لا يَنبغي للسَّالكِ أنْ يُعَبِّرَ عن وارِداتِه، فإنَّ ذلك ممَّا يُقِلُّ عَمَلَها في قلْبِه، ويَمنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ معَ رَبِّه.

١١٤- لا تَطلُبَنَّ بقاءَ الوارِداتِ بعدَ أن بَسطَتْ أنوارَها، وأودَعَتْ أسرَارَها، فلَكَ في اللّـهِ غِنىً عن كلِّ شيء، وليسَ يُغْنِيكَ عنهُ شيء.

باب مراتب السالكين عموماً وخصوصاً

١١٥- قَوْمٌ أقامَهُمُ الحقُّ لِخدمتِه، وقَوْمٌ اختَصَّهُم لمحبَّتِه، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

١١٦- ليسَ كلُّ مَن ثَبَتَ تخصِيصُه كَمُلَ تخليصُه.

١١٧- السِّتْرُ علَى قِسمَيْنِ: سِتْرٌ عنِ المَعصِية، وسِتْرٌ فيها، فالعامَّةُ يَطلُبُونَ منَ اللّـهِ تَعالَى السِّتْرَ فيها خَشْيةَ سُقُوطِ مَرتبتِهم عندَ الخَلْق، والخاصَّةُ يَطلُبُونَ السِّتْرَ عَنها خَشْيةَ سُقُوطهم مِن نَظَرِ المَلِكِ الحقّ.

١١٨- شَتَّانَ بَيْنَ مَن يَستَدِلُّ بِهِ ومَن يَستَدِلُّ عَلَيْه، المُستَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحقَّ لأهلِه، وأثبَتَ الأمرَ مِن وُجُودِ أصْلِه، والاستِدلالُ عَليهِ مِن عَدَمِ الوُصُولِ إلَيْه،

وإلّا فمَتَى غَابَ حتَّى يُستَدَلَّ عَلَيْه! ومتَى بَعُدَ حتَّى تكُونَ الآثارُ هيَ التي تُوصِلُ إلَيْه!

باب القبض والبسط

١١٩ـ العارِفُونَ إذا بُسِطُوا أخوفُ مِنهُمْ إذا قُبِضُوا، ولا يَقِفُ علَى حُدُودِ الأدَبِ في البَسْطِ إلاّ قليل.

١٢٠ـ البَسْطُ تَأخُذُ النَّـفْسُ مِنهُ حَظَّها بوُجُودِ الفَرَح، والقَبْـضُ لا حَظَّ للنَّفْسِ فيه.

باب الأنوار التي تنكشف بها الحقائق

١٢١ـ الأنوارُ مَطايا القُلُوبِ والأسرار.

١٢٢ـ النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ، كما أنَّ الظُّلْمةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فإذا أرادَ اللهُ تَعَالَى أنْ يَنصُرَ عَبْدَهُ أمَدَّهُ بِجُنُودِ الأنوار، وقَطَعَ عنهُ مَدَدَ الظُّلْمِ والأغيار.

١٢٣ـ لو أشرَقَ لك نُورُ اليَقِينِ لرَأيتَ الآخِرةَ أقرَبَ إليكَ مِن أنْ تَرحَلَ إلَيْها، ولَرَأيتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا قد ظَهَرَتْ كِسْفةُ الفَناءِ عليها.

١٢٤ـ رُبَّما وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأنوارُ، فوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بصُوَرِ الآثار، فارْتَحَلَتْ مِن حيثُ نَزَلَتْ.

١٢٥ـ فَرِّغْ قَلبَكَ منَ الأغيار يَمْلأْهُ بالمَعارِفِ والأسرار.

١٢٦ـ رُبَّما وَقَفَتِ القُـلُوبُ معَ الأنوار، كما حُجِبَتِ النُّـفُوسُ بكثائفِ الأغيار.

باب قرب العبد من الله تعالى والتخلق بأخلاقه

١٢٧ـ وُصُولُكَ إلى اللّـهِ وُصولُكَ إلى العِلمِ به، وإلاَّ فجَلَّ رَبُّنا أنْ يَتَّصِلَ بشيءٍ أو يَتَّصِلَ بهِ شيء.

١٢٨ـ قُرْبُكَ مِنهُ أن تكُونَ مُشاهِداً لِقُربِه، وإلّا فمِن أيْنَ أنتَ ووُجُودُ قُرْبِهِ؟!

١٢٩ـ لو أنكَ لا تَصِلُ إلَيْهِ إلّا بَعْدَ فَناءِ مَساويك، ومَحْوِ دَعَاويك، لم تَصِلْ إلَيْهِ أبداً، ولكِنْ إذا أرادَ أنْ يُوصِلَكَ إلَيْهِ غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِه، ونَعْتَكَ بِنَعْتِه، فوَصَلَكَ إلَيْهِ بما مِنهُ إلَيْك، لا بما مِنكَ إلَيْه.

١٣٠ـ مَنَعَكَ أنْ تَدَّعِيَ ما ليسَ لكَ ممَّا للمخلُوقينَ، أفيُبِيْحُ لكَ أن تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وهُوَ رَبُّ العالَمِين؟!

١٣١ـ تَحَقَّقْ بأوصافِكَ يُمِدَّكَ بأوصافِه، تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدَّكَ بِعِزَّتِه، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدَّكَ بِقُدرتِه، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدَّكَ بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه.

١٣٢ـ لا تَـمُدَّنَّ يَدَكَ إلى الأخْذِ منَ الخلائقِ إلّا أنْ تَرَى أنَّ المُعطِيَ فيهم مَوْلاَك، فإذا كنتَ كذلِكَ فخُذْ ما وافَقَكَ العِلمُ.

١٣٣ـ الصَّلاةُ طُهْرَةٌ للقُلُوبِ مِن أدْناسِ الذُّنُوب، واستِفتاحٌ لِبابِ الغُيُوب.

١٣٤ـ الصَّلاةُ مَحَلُّ المُناجاة، ومَعْدِنُ المُصافاة، تَتَّسِعُ فيها مَيادِينُ الأسرار، وتُشْرِقُ فيها شَوارِقُ الأنوار. عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فقَلَّلَ أعْدادَها، وعَلِمَ احتِياجَكَ إلى فَضْلِهِ فكَثَّرَ أمْدادَها.

باب بيان قرب الله من المخلوقات

١٣٥- الحقُّ ليسَ بِمحجُوب، وإنَّما المحجُوبُ أنتَ عنِ النَّظَرِ إلَيْه، إذْ لو حَجَبَهُ شيءٌ لَسَتَرَهُ ما حَجَبَه، ولو كان لهُ ساتِر، لكانَ لِوُجُودِهِ حَاصِر، وكلُّ حاصِرٍ لِشيءٍ فهُوَ لهُ قَاهِر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

١٣٦- كانَ اللهُ تَعَالَى ولا شيءَ معَهُ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كان.

١٣٧- العَجَبُ كلُّ العَجَبِ ممَّن يَهرُبُ ممَّن لا انفكاكَ لهُ عَنهُ، ويَطلُبُ ما لا بقاءَ لهُ معَهُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

١٣٨- أنتَ معَ الأكوانِ ما لم تَشهَدِ المُكَوِّنَ، فإذا شَهِدتَهُ كانتِ الأكوانُ معَك.

١٣٩- مَن عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كلِّ شيء، ومَن فَنِيَ بِهِ غابَ عَن كلِّ شيء، ومَن أَحَبَّهُ لم يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شيئاً.

١٤٠- إنَّما حَجَبَ الحقَّ عَنكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنك.

١٤١- إنَّما احتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِه، وخَفِيَ عنِ الأبصارِ لِعظيمِ نُورِه.

١٤٢- تَطَلُّعُكَ إلى بقاءِ غيرِهِ دليلٌ على عَدَمِ وِجْدانِكَ لهُ، واستِيحاشُكَ بِفُقدانِ ما سِواهُ دليلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلَتِكَ به.

١٤٣- ما تَجِدُهُ القُلُوبُ منَ الهُمُومِ والأَحزان، فلأجْلِ ما مُنِعَتْ مِن وُجُودِ العِيَان.

١٤٤ـ مَتَى آلـمَكَ عَدَمُ إقْبالِ النّاسِ عَلَيْكَ بِالبرِّ والمَدْحِ والإكرام، أو تَـوَجُّهُهم بالذّمِّ إليك فارْجِـعْ إلى عِلْمِ اللّـهِ فِيك، فإنْ كان لا يُـقْنِعُكَ عِلمُه، فمُصِيبتُكَ بِعَدَمِ قَناعتِكَ بِعِلمِهِ أَشَدُّ مِن مُصِيبتِكَ بِوُجُودِ الأذى مِنهُم.

١٤٥ـ إنَّما أَجْرَى الأذى عَليكَ مِنهُم كي لا تكُونَ ساكِناً إليهم، أرادَ أنْ يُزعِجَكَ عَن كلِّ شيء؛ حتَّى لا يَشغَلَكَ عَنهُ شيء.

باب بعض خصائص العارف بالله تعالى

١٤٦ـ ما العارِفُ مَن إذا أشارَ وَجَدَ الحقَّ أقرَبَ إلَيْهِ مِن إشارتِه؛ بلِ العَارِفُ: مَن لا إشَارةَ له؛ لِفَنائِهِ في وُجُودِه، وانطِوائِهِ في شُهُودِه.

١٤٧ـ مَطلَبُ العارِفِينَ منَ اللّـهِ عزَّ وجَلَّ: الصِّدْقُ في العُبُودِيَّة، والقِيامُ بحقِّ الرُّبُوبيَّـة.

١٤٨ـ العارِفُ لا يَزُولُ اضْطِرارُهُ، ولا يكُونُ معَ غيرِ اللّـهِ قَرارُه.

١٤٩ـ الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقَبضُوا، لِشُهُودِهمُ الثَّناءَ منَ الخَلْق، والعارِفُونَ إذا مُدِحُوا انبَسطُوا، لِشُهُودِهِم ذلك منَ المَلِكِ الحَقّ.

باب التفرس والاستدلال بالشيء على الشيء

١٥٠ـ مَن رَأيْتَهُ مُجِيباً عَن كلِّ ما سُئِلَ، ومُعَبِّراً عَن كلِّ ما شَهِدَ، وذاكِراً كلَّ ما عَلِمَ، فاستَدِلَّ بِذلك عَلَى وُجُودِ جَهْلِه.

١٥١ـ مِن عَلامةِ النُّـجْحِ في النِّهايات: الرُّجُوعُ إلى اللّـهِ عزَّ وجَلَّ في البِدايات.

١٥٢ـ مِن عَلامةِ مَوتِ القَلْبِ: عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى ما فاتَكَ منَ المُوافَقات، وتَرْكُ النَّدَمِ علَى ما فَعَلْتَ مِن وُجُودِ الزَّلاَّت.

١٥٣ـ مَن وَجَدَ ثَمرةَ عَمَلِهِ عاجِلاً، فهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُول.

١٥٤ـ إذا أَرَدْتَ أنْ تَعرِفَ قَدْرَكَ عِندَهُ فانظُرْ في ماذا يُقِيمُك.

١٥٥ـ الحُزْنُ علَى فُقدانِ الطَّاعةِ، معَ عَدَمِ النُّهُوضِ إليها، مِن عَلامةِ الاغْتِرار.

١٥٦ـ مَتَى كنتَ ـ إذا أُعطِيتَ ـ بَسَطَكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المَنْعُ، فاستَدِلَّ بذلكَ علَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِك، وعَدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِك.

١٥٧ـ مِن عَلامةِ اتِّباعِ الهَوَى المُسارَعةُ إلى نَوافلِ الخَيْرات، والتَّكاسُلُ عنِ القِيامِ بالواجِبات.

١٥٨ـ ما استُودِعَ في غَيْبِ السَّرائِرِ ظَهَرَ في شَهادةِ الظَّواهِر.

باب تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ﴾ [لقمان: ٢٠].

١٥٩ـ نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوجُودٌ عنْهُما، ولا بُدَّ لكُلِّ مُكَوَّنٍ منْهُما: نِعمةُ الإيجاد، ونِعمةُ الإمْداد.

١٦٠ـ مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعةَ والغِنَى بهِ عَنْها، فاعلَمْ أنّهُ أسبَغَ علَيْكَ نِعمهُ ظاهرةً وباطِنة.

١٦١ـ مِن تَمامِ النِّعْمةِ عَلَيْكَ؛ أنْ يَرزُقَكَ ما يَكفِيك، ويَمنَعَكَ ما يُطْغِيك.

١٦٢ـ مَتَى جَعَلَكَ في الظَّاهرِ مُمْتثِلاً لأمرِهِ، ورَزَقَكَ في الباطِنِ الاستِسلامَ لِقَهْرِه، فقد أعظَمَ المِنَّـةَ عَليك.

باب بيان الشكر

١٦٣ـ مَن لم يَشْكُرِ النِّعَمَ فقد تعَرَّضَ لِزَوالِها، ومَن شَكَرَها فقد قَيَّدَها بِعِقالِها.

١٦٤ـ مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوُجْدانِها، عَرَفَها بِوُجْدانِ فُقْدانِها.

خاتمة في ذكر شيء من مناجاته معَ ربِّه سبحانه وتعالى

١٦٥ـ إلهي: أنا الفَقِيرُ في غِنَاي، فكيفَ لا أكُونُ فقيراً في فَقْرِي!

١٦٦ـ إلهي: أنا الجاهِلُ في عِلْمي، فكيفَ لا أكُونُ جَهُولاً في جَهْلي!

١٦٧ـ إلهي: مِنِّي ما يَليقُ بلُؤْمي، ومِنْكَ ما يَليقُ بِكَرَمِك.

١٦٨ـ إلهي: وَصَفْتَ نفْسَكَ باللُّطْفِ والرَّأْفةِ بي قَبْلَ وجُوْدِ ضَعفي، أفتَمْنَعُني مِنهُما بَعْدَ وجُودِ ضَعْفي!.

١٦٩ـ إلهي: إنْ ظَهَرَتِ المَحاسِنُ مِنِّي فبفَضْلِك، ولكَ المِنَّةُ عَلَيَّ، وإنْ ظَهَرَتِ المساوِئُ مِنِّي فبِعَدْلِك، ولكَ الحُجةُ عليَّ.

١٧٠ـ إلهي: ما ألطَفَكَ بي معَ عظيمِ جَهْلي، وما أرحَمَكَ بي معَ قَبِيحِ فِعْلي.

١٧١ـ إلهي: كلَّما أخرَسَني لُؤْمي، أنْطقَني كَرَمُك، وكُلَّما آيَسَتْني أوصافي أطْمَعَتْني مِنَنُك.

١٧٢ـ إلهي: مَن كانت مَحاسِنُهُ مَساوي، فكيفَ لا تكُونُ مَساوِيهِ مَساوي! ومَن كانَتْ حَقِيقَتُهُ دَعَاوِي، فكيفَ لا تكُونُ دَعاوِيْهِ دَعاوِي!

١٧٣ـ إلَهي: هذا ذُلِّي ظاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْك، وهَذَا حالي لا يَخْفَى عَلَيْك، مِنْكَ أطلُبُ الوصُولَ إلَيْك، وبِكَ أستَدِلُّ عَلَيك، فاهْدِنِي بِنُورِكَ إلَيْكَ، وأقِمْني بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْك.

١٧٤ـ إلَهي: عَلِّمْني مِن عِلْمِكَ المخزُون، وصُنِّي بِسِرِّ اسمِكَ المَصُونِ.

١٧٥ـ إلَهي: حَقِّقْني بِحقائقِ أهلِ القُرْب، واسلُكْ بي مَسَالِكَ أهلِ الجَذْب.

١٧٦ـ إلَهي: أغْنِنِي بتدبِيرِكَ لي عَن تدبِيرِي، وبِاختيارِكَ لي عنِ اختيارِي، وأوْقِفْني عَلَى مَرَاكِزِ اضطِرارِي.

١٧٧ـ إلَهي: أخْرِجْني مِن ذُلِّ نَفسي، وطَهِّرْني مِن شَكِّي وشِرْكي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسي.

١٧٨ـ إلَهي: بِكَ أستَنْصِرُ فانصُرْنِي، وعَلَيْكَ أتَوَكَّلُ فلا تَكِلْنِي، وإِيَّاكَ أسأَلُ فلا تُخَيِّبْنِي، وفِي فضْلِكَ أرغَبُ فلا تَحرِمْني، ولِجَنابِكَ أنْتَسِبُ فلا تُبْعِدْني، وبِبَابِكَ أقِفُ فلا تَطرُدْني.

١٧٩ـ أنتَ الّذي أشْرَقْت الأنوارَ في قُلُوبِ أولِيائِكَ حتَّى عَرَفُوكَ ووَحَّدُوكَ، وأنْتَ الّذي أزَلْتَ الأغيارَ مِن قُلُوبِ أحبابِكَ حتَّى لم يُحِبُّوا سِواك، ولم يَلجَؤُوا إلى غَيْرِك، أنتَ المُؤْنِسُ لهُم حيثُ أوحَشَتْهُمُ العَوالم.

وأنتَ الَّذي هَدَيْتَهُم حتَّى استبَانَتْ لهُمُ المَعالم.

ماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ؟! وما الَّذي فَقَدَ مَن وَجَدَك؟!

لقد خَابَ مَن رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، ولقد خَسِرَ مَن بَغَى عَنكَ مُتَحَوَّلاً.

كيفَ يُرْجَى سِواكَ وأنتَ ما قَطَعْتَ الإحسان؟! وكيفَ يُطلَبُ مِن غيرِكَ وأنتَ ما بَدَّلْتَ عادةَ الامتنان؟!

يا مَن أذاقَ أحِبَّاءَهُ حلاوةَ مُؤَانَستِهِ فقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقين، ويا مَن ألْبَسَ أولِياءَهُ ملابِسَ هَيْبَتِهِ فقامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّين.

١٨٠ـ أنتَ الذَّاكِرُ مِن قَبْلِ الذَّاكِرين، وأنتَ البادِئُ بالإحسانِ مِن قَبْلِ تَوَجُّهِ العابِدِين، وأنتَ الـجَوَادُ بالعطاءِ مِن قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِين، وأنتَ الوَهَّابُ لنا، ثُمَّ أنتَ لِـمَا وَهَبْتَنا من الـمُسْتَقرِضين.

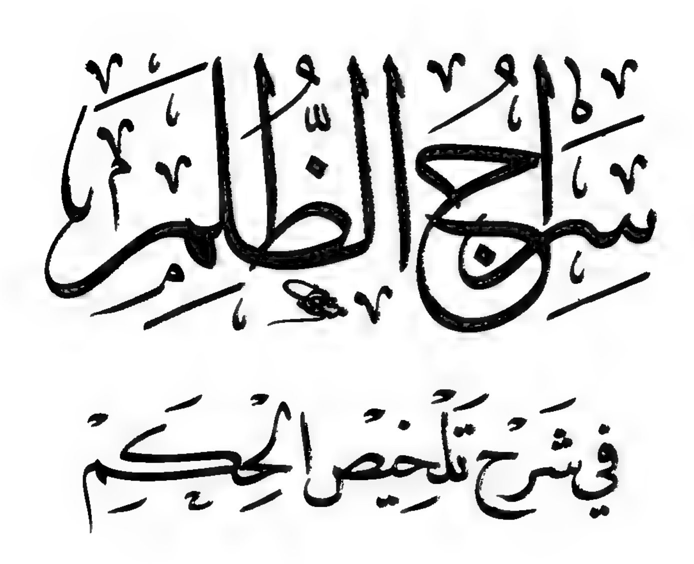
١٨١ـ إلَهي: اطلُبْني بِرحمتِكَ حتَّى أصِلَ إليْكَ، واجْذُبْني بِمِنَّتِكَ حتَّى أُقْبِلَ عَلَيْك.

١٨٢ـ إلَهي: إنَّ رَجَائي لا يَنقَطِعُ عَنْكَ وإنْ عَصَيْتُـك، كما أنَّ خَوْفي لا يُزَايِلُني وإنْ أطَعْتُك.

١٨٣ـ إلَهي: كيفَ أخِيبُ وأنتَ أمَلي؟! أم كيفَ أُهانُ وعَلَيْكَ مُتَّكَلي؟!

١٨٤ـ أنتَ الذي لا إلهَ غَيْرُك، تَعَرَّفْتَ لِكلِّ شيءٍ فما جَهِلَكَ شيء، وأنتَ الذي تَعَرَّفْتَ إليَّ في كلِّ شيء، فرَأيْتُكَ ظاهراً في كلِّ شيء، فأنتَ الظَّاهِرُ لِكلِّ شيء.

مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار، ومَـحَوْتَ الأغيارَ بِمُحِيطاتِ أفلاكِ الأنوار، يا مَنِ احْتَجَبَ في سُرادِقاتِ عِزِّهِ عَن أنْ تُدْرِكَـهُ الأبصار، يا مَن تَـجَلَّى بِكمالِ بَهائِهِ فتحَقَّقَتْ عَظَمَتهُ الأسرار، كيفَ تَخْفَى وأنتَ الظَّاهِر؟! أم كيفَ تَغِيبُ وأنتَ الرَّقيبُ الحاضِر؟!



في شرح تلخيص الحكم

تأليف العلامة الشيخ

أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٢٧٠هـ

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



دار الفتح للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله بارئ الخلق من العدم، المتفضل عليهم بسوابغ النعم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ أفضل العرب والعجم، المبعوث إلى كافة الأمم، وعلى آله أولي الفضل والكرم، وأصحابه ينابيع العلوم والحكم.

وبعد،

فهذا شرحٌ لطيفٌ على ما لخصتُهُ من «الحِكم العطائية»، لحل مشكلة، أو كشف معضلة، جمعتُه من شروح أهل الفن، الذين سلكوا طريق الحق وتركوا سبيل الظن، كشرح الشيخ محمد بن عبَّاد[1]، وشرح الشيخ علي الحجازي[2]،

(١) ابن عباد هو: الإمام محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك النفزي الرندي (٧٢٣ - ٧٩٢هـ) نعته معاصروه ـ ومنهم: أبو زكريا السراج في «فهرسته» ـ بالإمام العالم المصنف السالك العارف الرباني المحقق، ذي العلوم الباهرة والمحاسن المتظاهرة.. إلى أن قال: «ثم أخذ في التصوف وبحث عن الأسرار الإلهية حتى أشير إليه، وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات، وألف فيه تآليف عجيبة بديعة، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين»، وقال عنه الإمام أحمد زروق: وكتبه شاهدة بكماله علماً وعملاً، كافية في تعريفه، وكان الذي طالبه بوضع شرح «الحكم» أبو زكريا السراج، ولا نعلم أحداً سبق ابن عباد إلى شرح الحكم، فهو أقدم شراحها، وذلك بعد مضي حوالي قرن من الزمان على تأليفها، وعنوان شرحه عليها «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية». (نيل الابتهاج ص٢٧٩ وما بعدها).

(٢) هو: الشيخ الصالح العالم العلامة أبو الحسن علي الحجازي، واسم كتابه: «الأنفاس الزكية في شرح الحكم العطائية».

وشرح السيد محمد بن أحمد الشهير بالأهدل، وشرح الشيخ أحمد القشاشي[١]، وغيرِها من الكتب، وعزوت في الأغلب كلَّ عبارة إلى كتابها، متنصلاً من عُهدتها، حيث لم أبلغ من الفهم مبلغ أصحابها، ولم أذق شيئاً من رحيق شراب أربابها، غير أني تطفلت بنقل كلامهم، لتعود بركتُه علي وإن لم أصل إلى أدنى مرامهم، ولو لم يكن لي من ذلك إلا التشبهُ بهم، والتعلق بالانتساب إلى بعض مآربهم، كما قيل:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهمْ إنَّ التشــبهَ بالكــرام رَبَـاحُ

وقد آثرتُ فيه مما ذكرتُ أوضح العبارات، معرضاً عما خفي في ذلك من لطائف الإشارات، وسميته: «**سراجَ الظلم بشرح تلخيص الحِكم**».

والله سبحانه المسؤول أن يجعل سعيي في جمعه من العمل المقبول، إنَّه أكرم مأمول.

(**بسم الله**) الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أؤلف؛ لأنَّ كل فاعل يبتدئ فعلَه ببسم الله يُضمِّنُ ما يجعلُ التسميةَ مبدأً لـه، **والاسم** مشتق من السمو وهو العلو. **والله**: علم على الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع الكمالات لذاته.

(**الرحمن الرحيم**) صفتان لله عز وجل. (**الحمد لله**) هو لغةً: الوصف بالجميل. وعرفاً: فعلٌ ينبئ عن تعظيم المنعم لإنعامه. واللام في لله للاستحقاق، إذ هو المستحق للحمد على الإطلاق. (**والصلاة**) هي من الله تعالى رحمة مقرونة بتعظيم،

---

(١) الصفي القشاشي، هو: الإمام صفي الدين أحمد بن محمد بن يوسف الدجَاني (بتخفيف الجيم)، المعروف بالقشاشي، المدني، المالكي، الشافعي، المجمع على جلالته بين معاصريه، مفتي المذهبَيْن، واسم كتابه: «المواهب اللدنية في شرح الحكم العطائية».

ومن الملائكة استغفار، ومن المؤمنين تضرع ودعاء. **(والسلام)** بمعنى: التسليم، أي: التحية بالسلام **(على سيدنا)** أي: أفضلنا معاشرَ المخلوقين، **(رسول الله)** والمراد به نبينا محمد ﷺ. والرسول: إنسان ذكر حرّ أوحِي إليه بشرع وأمر بتبليغه. **(أما بعد)** كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر **(فهذا)** أي: المؤلَّفُ الحاضر في الذهن **(تلخيصٌ)** أي: اختصار **(من الحكم العَطَائِيَّةِ)** بفتح العين، نسبة إلى الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله الإسكندري المالكي الشاذلي المتوفى سنة تسع وسبعمئة رحمه الله تعالى، ورضي عنه. **(مُرَتَّبٌ على الأبواب)** لتسهُلَ مراجعتها على الطلاب عند قصد المطلوب من كل باب. **(التي رتبها بعض العلماء من الصوفية)** وهو الشيخ العلامة أبو الحسن علي الهندي[1] رحمه الله تعالى كما رأيتُه منسوباً إليه **(والله سبحانه الموفق)** لا غيره. والتوفيق: خَلْقُ قدرةِ الطاعة في العبد، وضده الخِذلان، وهو: خَلْق قدرة المعصية فيه، أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه، وأفاض علينا من سوابغ نعمه. آمين.



(١) هو: الشيخ الكامل سيدي علي الهندي نزيل مكة، قال الإمام الشعراني في «الطبقات الكبرى» (٢: ١٦٧): اجتمعت به في مكة سنة ٩٤٧هـ وترددت إليه وتردد إليَّ، وكان عالماً ورعاً زاهداً نحيف البدن لا تكاد تجد عليه أوقية لحم من كثرة الجوع، كثير الصمت، كثير العزلة، لا يخرج من بيته إلا للصلاة في الحرم فيصلي في أطراف الصفوف ثم يرجع بسرعة، وأدخلني داره فرأيت عنده جماعة من الفقراء الصادقين في جوانب حوش داره، كل فقير له خص يتوجه فيه إلى الله تعالى؛ منهم التالي، ومنهم الذاكر، ومنهم المراقب، ومنهم المطالع في العلم، ما أعجبني في مكة مثله، وله عدة مؤلفات منها: ترتيب الجامع الصغير للحافظ السيوطي، ومنها: مختصر النهاية في اللغة.

باب العلم

هذا (**باب**) بيان (**العلم**) النافع.

اعلم أنَّ طلب العلم، الذي لا يصح الإيمان والإسلام بدونه، فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وهو العلم بالله ورسوله واليوم الآخر، والعلم بما أوجب الله تعالى فعلَه من الفرائض، وبما أوجب تركه من المحارم، ويدل لذلك قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[1]، وقوله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو

(١) أخرجه ابن عدي (٥: ١٨١٠)، والبيهقي في الشعب (١٦٦٣- ١٦٦٦)، والأوسط (ص١٨ مجمع البحرين) عن ابن مسعود، وفي الأوسط (ص ١٨ مجمع البحرين) عن ابن عباس، وكذا البيهقي عن أبي سعيد، وتمام في فوائده عن ابن عمر، والخطيب في تاريخه عن علي، ورواه ابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس بن مالك بزيادة: «وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهرَ واللؤلؤَ والذهب».

قال البيهقي في الشعب: متنه مشهور، وإسناده ضعيف، وقد روي من أوجه كلها ضعيفة.

وقال النووي في فتاويه: هو حديث ضعيف، وإن كان معناه صحيحاً.

وقال السخاوي في المقاصد: رجاله ثقات، بل يروى عن نحو عشرين تابعياً عن أنس، وفي كل منها مقال.

وقال جمال الدين المزي: إنه روي من طرق تبلغ رتبة الحسن.

بل قال الحافظ العراقي في شرح ألفية الحديث (٢: ٢٦٨): إن بعض الأئمة صحح بعض طرقه.

وقال الحافظ السيوطي: إنه يبلغ رتبة الصحيح؛ لأني وقفت له على سبعين طريقاً وقد جمعتها في جزء. ونقل المناوي عنه قال: جمعت له خمسين طريقاً وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه.

تنبيه: قال الحافظ السخاوي في المقاصد (ص٢٧٧): ألحق بعض المصنفين بهذا الحديث «ومسلمة» وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحاً.

بالصين»[١]. قال العلماء رحمهم الله تعالى: ما وجب عليك عمله وجب عليك العلم به، والحاصل: أنه يجب على المسلم أن يعلم بوجوب جميع الواجبات العينية، وبتحريم جميع المحرمات التي هو مستهدف للوقوع فيها: كالزنا، واللواط، وشرب المسكر، وظلم الناس، والسرقة، والخيانة، والكذب، والغيبة، وأشباه ذلك.

وأمَّا العلم بشروط البيع والشراء والمعاملات والنكاح فيجب على من أراد الدخول في شيء منها أن يعلم حكم الله فيها، وما تصح به، وما تفسد به.

كما يجب على من عنده مال تجب فيه الزكاة العلم بأحكامها، وعلى مستطيع الحج العلم بأركانه وشروطه، وأمَّا الاتساع في العلوم الدينية النافعة، والاستكثار منها، والزيادة على قدر الحاجة فذلك من أعظم الوسائل إلى الله تعالى، وأفضل الفضائل عند الله عز وجل؛ ولكن مع الإخلاص لوجه الله تعالى في طلب العلم، ومطالبة النفس بالعمل به، وتعليمه لعباد الله، مريداً بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة.

وينبغي للعالم بأمور الدين الظاهرة أن يضيف إلى ذلك العلمَ بالأخلاق الباطنة من صفات القلوب، والعلم بأسرار الأعمال وآفاتها، والعلم بالوعد والوعيد الواقعَيْنِ في الكتاب والسنة، من ذكر ثواب المحسنين، وعقاب المسيئين، فبذلك يتم أمر العالِمِ، ويكمل النفع به، والانتفاع به، فإنَّ هذه العلوم لا يتم بعضها بدون بعض، وهي علوم السلف الصالح، يعرف ذلك من طالع سيرهم. انتهى. من «النصائح الدينية»[٢].

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب والمدخل، وابن عبد البر في العلم من رواية أبي عاتكة عن أنس، وأبو عاتكة منكر الحديث. وقال البيهقي: هذا حديث مشهور وأسانيده ضعيفة، (وأخرجه ابن عبد البر أيضاً من رواية الزهري عن أنس، وفي إسناده يعقوب بن إسحاق العسقلاني، فقد كذبه البيهقي).

(٢) النصائح الدينية، للسيد عبد الله الحداد (ص٦٥ – ٧٧).

وقال ابن عباد في شرحه للحكم العطائية[١]: واعلم أنَّه قد ورد في الكتاب والسنة في فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة، ولا يُرجى حصول ذلك إلا لمن صَحَّتْ نيَّته، وصِحَّةُ نيَّتِه في ذلك أن يكون غرضه فيه طلبَ مرضاة الله تبارك وتعالى، واستعماله فيما ينفع عنده، وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، فهذه النية الصحيحة التي تُحْمَد عاقبتُها آجلاً، وتجنى ثمرتها في طاعة الله تعالى عاجلاً.

قال سفيان الثوري[٢] رضي الله عنه: إنَّما يُتَعَلَّمُ العلمُ ليتقى به الله عز وجل، وإنما فَضُلَ العلم على غيره لأنه يتقى الله به.

فإن اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه؛ بأن يستشعر به التوصل إلى منال دنيوي؛ من مال، أو جاه، فقد بطل أجره، وحَبط عمله، وخسر خسراناً مبيناً. قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال الحسن[٣] رضي الله عنه: عقوبة العالم موتُ القلب. قيل له: وما موت

---

(١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية (٢: ١٢٨)، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، مات سنة (١٦١هـ).

(٣) إذا أطلق الحسن فهو: الحسن البصري، وهو: أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان إمام أهل البصرة وخير الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الشجعان، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ (٦٤٢م)، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، وكان في غاية الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف هائلة وقد سلم من أذاه، وقد توفي بالبصرة سنة (١١٠-٧٢٨م)، (الأعلام للزركلي =

القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة.

فإن انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدَّى به أو أنه يتولَّى الأعمال السلطانية، كائنة ما كانت، أو يتوصَّل به إلى اكتساب مال من حرام، أو شبهة، فقد تعرَّض لغضب الله تعالى وسخطه، وباء بإثمه وآثام المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خيراً له من العلم، وأحمدَ عاقبة.

والغالب على طلبة العلم في هذه الأعصار هذا الوصف المذموم؛ لأنَّ حبَّ الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرصُ على التقدُّم والرياسةِ قد ملكهم فأصمَّهم وأعماهم، ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى، ولا تخفى، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يخرج في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين، يلبسون للنَّاس جلود الضأن من اللِّين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوبُ الذئاب، يقول الله تبارك وتعالى: أبي تغترُّون أم عليَّ تجترئون؟ فبي حلفتُ لأبعثنَّ على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران»[1]. رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه.

وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، قلوبهم خربة من الهدى، ومساجدهم عامرة منه أبدانهم، شر من تظل السماء يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود»[2]. انتهى.

= ٢: ٢٤٢). وفي صفة الصفوة لابن الجوزي (٣: ٢٣٣): أنه ولد في خلافة عمر، وحنكه عمر رضي الله عنه بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ، فربما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها، تعلله به، إلى أن تجيء أمه، فيدر ثديها فيشربه، فكانوا يقولون: فصاحته من بركة ذلك.

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٤) عن أبي هريرة، و(٢٤٠٥) عن ابن عمر، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عمر لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ومعنى: (يختلون الدنيا بالدين)، أي: يطلبون الدنيا بعمل الآخرة وأمور الدين. والختل: الخداع والمراوغة.

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٤: ٢٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٥٨).

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

١ـ (العِلْمُ النَّافِعُ هو الذي يبْسطُ في الصَّدرِ شُعَاعُه، ويكْشَفُ بِهِ عنِ القَلْبِ قِنَاعُه).

قال ابن عباد: العلم النَّافعُ هو العِلْم بالله تعالى، وصفاته، وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم الذي يبسط في الصدر شعاعه، فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف عن القلب قناعه، فتزول عنه الشكوك والأوهام. وفي حكمة داود عليه السلام: «العلم في الصدر كالمصباح في البيت».

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: العلم النافع هو: علم الوقت، وصفاء القلب، والزهد في الدنيا، وما يقرِّب من الجنة، وما يبعد من النار، والخوفُ من الله، والرجاء فيه، وآفات النفس، وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه: نور يقذفه الله تعالى في قلب من شاء، دون علم اللسان: المنقول والمعقول.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنَّما العلم هو نور يقذفه الله في القلوب.

وإنما منفعة العلم أن يُقرِّب العبدَ من ربه، ويبعده من رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته، ومنتهى طلبه وإرادته.

قال الجنيد[1] رضي الله عنه: «العلم: أن تعرف ربَّك، ولا تعدوَ قدرك».

---

(١) هو: الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري؛ نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم =

وهذه عبارة مختصرة وجيزة جمع فيها رحمه الله تعالى مقصود علم الصوفية؛ وهو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه، وهذه هي العلوم التي ينبغي للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل، ولا يقنع منها بكثير ولا قليل، وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي[1] رضي الله عنه: من لم يتغلغل في هذه العلوم ـ يعني: علوم الصوفية ـ مات مصرّاً على الكبائر وهو لا يعلم، وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها، وربما أضر بصاحبها مداومته عليها، وقد استعاذ رسول الله ﷺ في الخبر المشهور عنه من علم لا ينفع[2]. انتهى.

= التوحيد ببغداد. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصوناً عن العقائد الذميمة، مَحْمِيَّ الأساس من شبه الغُلاة، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع. من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. (٢٩٧هـ- ٩١٠م) (الأعلام للزركلي ٢: ١٣٧ - ١٣٨).

(١) أبو الحسن الشاذلي، هو: علي بن عبد الله بن عبد الجبار، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بقرية قريبة من مدينة سبتة ببلاد المغرب سنة ٥٩٢هـ. قال عنه صاحب كتاب المفاخر: إنه صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، جاء في طريق القدم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذي جمع بين العلم والحال، أو الهمة والمقال، تخرّج بصحبته جماعة من الأكابر، مثل: أبي العباس المرسي وأبي العزائم الماضي، وتتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله، توفي سنة (٦٥٦هـ).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤: ٣٧١) ومسلم في صحيحه (٤: ٧٣) رقم (٢٧٢٢) باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، وعبد بن حميد (٢: ٣٩٧١ كنز العمال)، والنسائي (٨: ٥٤٧٣) عن زيد بن أرقم، ولفظه كما في الجامع الصغير للسيوطي رقم (١٥٥٨): «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر، وفتنة الدجال. اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

وقد ذكر الإمام حجة الإسلام الغزالي[1] في «الإحياء» أن العلم المضاف إلى الآخرة ينقسم إلى قسمين: علم مكاشفة، وعلم معاملة. قال رحمه الله تعالى: أما علم المكاشفة فهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه من سوء الخاتمة. وأدنى النصيب منه التصديق به، وتسليمه لأهله.

وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يُفتح له بشيء من هذا العلم: بدعة، أو كبر. وقيل: من كان محباً لله فاز به، ومن كان محباً للدنيا أو مصرّاً على هوى لم يتحقق به، وقد يتحقق بسائر العلوم. وأقل عقوبة من يُنْكِرُهُ أن لا يرزق منه شيئاً، وهو علم الصديقين، والمقربين، أعني: علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف في ذلك النور أمور، كأن يسمع من قبلُ أسماءها ويتوهم لها معانيَ مجملة غير متضحة، فيتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وصفاته التامات، وبأفعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة، والمعرفة بمعنى النبوَّة، ومعنى الوحي، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، ومعرفة القلب، وكيفية تصادم جنود الملائكة وجنود الشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة، والجنة والنار، وعذاب

---

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، إمامٌ كبيرٌ في الفقه والأصلين والتصوّف وغيرها، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته بالطابران (قصبة طوس بخراسان). نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقول بتشديد الزاي)، أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قاله بالتخفيف. ولد سنة (٤٥٠هـ) وتوفي (٥٠٥هـ). (الأعلام للزركلي ٧: ٢٤٧ - ٢٤٨، وانظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٤: ٢١٨).

القبر، والصراط، والميزان، والحساب، ومعرفة قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه، والنزول في جواره، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض، كما يُرى الكوكبُ الدريُّ في جو السماء، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى.

فنعني بعلم المكاشفة أن: يرتفع الغطاء حتى يتضح به جَليَّةُ الحق في هذه الأمور، اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أنّ مرآة القلب قد تراكم صداها وخبثها بقاذورات الدنيا.

وإنما نعني بعلم طريق الآخرة: العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله تعالى، وعن معرفة صفاته وأفعاله.

وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات، والاقتداء بالأنبياء في جميع أحوالهم.

وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب، ولا يتحدث من أنعم الله عليه منها بشيء إلا مع أهله، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة، وبطريق الأسرار، وهو العلم الخفي الذي أراده ﷺ بقوله: «إنَّ من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله، فلا تحقروا عالماً آتاه الله علماً، فإن الله لم يحقره إذ آتاه العلم»[1].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي في «الأربعين» التي جمعها في التصوف من رواية عبد السلام بن صالح، عن سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومن طريق السلمي رواه الديلمي في مسند الفردوس. وعبد السلام بن صالح أبو الصلت الهروي ضعيف جداً. انتهى. =

وأما القسم الثاني فهو: علم المعاملة، وهو علم أحوال القلب؛ أمَّا ما يحمد منها: فالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والرضا، والزهد، والتقوى، والقناعة، والسخاوة، ومعرفة المنّة لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسان، وحسن الظن، وحسن الخُلُق، وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص، فمعرفة حقائق هذه الأحوال، وحدودها، وأسبابها، وثمراتها، وعلاماتها، فذلك كله من علم الآخرة.

وأما ما يذم: فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل، والحقد، والحسد، والغش، وطلب العلو، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكبر، والرياء، والغضب، والعداوة، والبغضاء، والطمع، والبخل، والرغبة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والخيلاء، والتنافس، والمباهاة، والخوض فيما لا يعني، وحب كثرة الكلام، والتزين للخلق، والمداهنة، والعجب، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب، وخروج الخشية منه، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذل، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن من مكر الله في سلب ما أعطى، والاتكال على

= قال الزبيدي: وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة وقال: وهذا إسناد ضعيف، وعبد السلام ابن صالح كان رجلاً صالحاً إلا أنه شيعي، وهو من رجال ابن ماجه، وقد اختلف فيه، إلى أن قال: والحاصل أن حديثه في مرتبة الضعيف الذي ليس بموضوع، قال: وقد أورد القطب القسطلاني هذا الحديث في كتاب له في التصوف وقال: إن له شاهداً من مرسل سعيد بن المسيب. انتهىٰ.

قال العراقي: وأما آخر الحديث، وهو قوله: (فلا تحقروا عالماً).. إلخ، فرواه أبو عبد الله الحسين ابن فنجويه الدينوري في كتاب المعلمين من رواية كثير بن سليم عن أنس، فذكر حديثاً طويلاً فيه: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول: لا تحقروا عبداً أعطيته علماً، فإني لم أحقره حين وضعت ذلك في قلبه»، وكثير بن سليم ضعيف. انتهىٰ. (إتحاف السادة المتقين ١: ٢٦٠).

الطاعة، والمكر، والخيانة، والمخادعة، وطول الأمل، والقسوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا، والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين، والوحشة لفراقهم، والجفاء، والعجلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة.

فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش، ومنابت الأعمال المحظورة. وأضدادها ـ وهي: الأخلاق المحمودة ـ منبع الطاعات، والقربات، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة، والمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء: في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة، ولو سئل فقيه عن معنى هذه المعاني، حتى عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء، لتوقف فيه، مع أنه فرض عين الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان، والظهار، والسبق، والرمي، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم يخل البلد عن من يقوم بها، ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيه ليلاً ونهاراً، ويغفل عما هو مهم في نفسه في الدين. انتهى المراد مما ذكره حجة الإسلام[١].

فعليك يا أخي بتحصيل العلم النافع، وابدأ منه بما تمس الحاجة إليه، واستعن على ذلك بتقوى الله عز وجل. كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(١) إحياء علوم الدين مع إتحاف السادة المتقين (١: ٢٥٣ – ٢٦٥).

ومما ينسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

شَكَوْتُ إلى وَكِيْعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فأَرْشَدَني إلى تَـرْكِ المَعَاصِي
وقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللّهِ لا يُؤْتَاهُ عَاصِي

تتمة:

أورد القطب القسطلاني[١] في كتابه في التصوف، عن أنس مرفوعاً: «العلم علمان: علم ثابت بالقلب، فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذلك حجة الله على عباده»[٢]، وأخرج الديلمي في مسند الفردوس، عن الحسن عن

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن علي بن محمد القيسي التوزري الأصل، المصري المولد، المكي المنشأ، المعروف بابن القسطلاني (قطب الدين، أبو بكر) محدث، صوفي، فقيه، أديب، ناثر، ناظم، ولد في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦١٤هـ وسمع من علي ابن البناء، والشهاب السهروردي، وتفقه في مذهب الشافعي، وأفتى، ورحل وسمع في بغداد ومصر والشام والجزيرة، وطلب من مكة، وفوضت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن توفي في المحرم سنة ٦٨٦هـ (معجم المؤلفين ٨: ٢٩٩).

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير رقم (٥٧١٧) ورمز لحسنه. وقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨: ب ٦ رقم ٦٠ باب الزهد)، والحكيم الترمذي (ص٢٥٥) عن الحسن مرسلاً، والخطيب البغدادي (٤: ٣٤٦) عن جابر.

قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب رقم (١٣٩): رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح. وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: إسناده صحيح. ورواه الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من رواية قتادة عن أنس رفعه (٤١٩٤). قال الحافظ العراقي: وسنده جيد وإعلال ابن الجوزي له وهم (فيض القدير ٤: ٣٩١).

حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: «سألت جبريل عن علم الباطن: ما هو؟ فقال: قال الله: هو سرّ بيني وبين أحبابي أُودعُه في قلوبهم»[١].

وقال يحيى بن عمار السجستاني[٢]: العلوم خمسة: علم هو حياة الدين وهو: علم التوحيد، وعلم هو قوت الدين وهو: علم العظمة والذكر، وعلم هو دواء الدين وهو: علم الفقه، وعلم هو داء الدين وهو: أخبار فتن السلف، وعلم هو هلاك الدين وهو: علم الكلام.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى علامة العلم النافع وتعريفه بلازمه، فقال:

٢ـ (**الْعِلمُ إنْ قَارَنَتْهُ الخشْيَةُ فَلَكَ وإلّا فَعَلَيْكَ**).

قال ابن عباد: العلم الذي تلازمه الخشيةُ لك؛ لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك، والعلم الذي لا خشية فيه، عليك؛ لأنك تستضر به فيهما. وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا موصوفون بالأمن والغِرَّة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه؛ بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة.

قال في لطائف المنن[٣]: فشاهد العلم الذي هو مطلوبُ الله عزّ وجلّ

---

(١) قال الحافظ في تسديد القوس: أسنده مسلسلاً من طريق الحسن عن حذيفة، والحسن لم يسمع من حذيفة، ثم ساقه من وجه آخر بلفظ: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو، فذكر الحديث.

(٢) يحيى بن عمار بن يحيى بن عمار بن العنبس، الإمام المحدث الواعظ، شيخ سجستان، أبو زكريا الشيباني النيهي السجستاني نزيل هراة، توفي بهراة سنة (٤٢٢هـ) وكانت جنازته مشهودة. (السير ١٧: ٤٨٣).

(٣) كتاب لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن (تأليف تاج الدين ابن عطاء الله السكندري) ـ صاحب الحكم ـ ذكر فيه جملاً من فضائل شيخه أبي العباس المرسي و شيخ شيخه =

الخشية لله تعالى، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أمَّـا علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعد مَن هذا العلم عِلْمُهُ مِن أنْ يكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه؟

ومِثْـلُ مَن هذه الأوصاف أوصافُه من العلماء كمثل الشمعة: تضيء على غيرها وهي تحرق نَفْسَها. جعل الله تعالى العلم الذي علمه من هذا وصفُه حجةً عليه وسبباً لتكثير العقوبة لديه. انتهى.

وكان سهل بن عبد الله[١] رضي الله عنه يقول: «لا تقطعوا أمراً من أمر الدين والدنيا إلا بمشورة العلماء، تحمدوا العاقبة عند الله. قيل: يا أبا محمد! من العلماء؟ قال: الذين يُؤْثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله عز وجل على نفوسهم».

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي[٢] رضي الله عنه: كل علم لا يُـورث

= أبي الحسن الشاذلي الذي نقل عنه أو سمع منه، ورتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، وهو كتاب مطبوع متداول (كشف الظنون ٢: ٥٥٤).

(١) هو: سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال، له كتاب «تفسير القرآن» مختصر. حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وكان يُسأل عن دقائق الزهد والورع وهو ابن عشر فيحسن الإجابة. ولد سنة (٢٠٠هـ - ٨١٦م)، وتوفي سنة (٢٨٣هـ ٨٩٦م)، ومن حكمه قوله: «حياة القلب الذي يموت بذكر الحي الذي لا يموت»، وقوله: «ما أعطي أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله». (الأعلام للزركلي ١: ٣٩٦ - ٣: ٢١٠) و(طبقات الصوفية للسلمي).

(٢) هو: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي، أبو عبد الرحمن، من علماء الصوفية، وله تواليف عديدة، منها: «حقائق التفسير» و«طبقات الصوفية» و«الفتوة» و«أدب الصحبة». مولده ووفاته بنيسابور. ولد سنة (٣٣٠هـ - ٩٤٢م)، وتوفي سنة (٤١٣هـ - ١٠٢١م).

صاحبَه الخشيةَ والتواضع والنصيحة للخَلْق والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى، ودوام مراقبته، وطلب الحلال، وحفظ الجوارح، وأداء الأمانة، ومخالفة النفس، ومباينة الشهوات، فذلك العلم الذي لا ينفع، وهو الذي استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «أعوذ بك من علم لا ينفع»[١].

فإذا وفَّق الله العالم من العلماء للإقبال على الله تعالى، وعلى أوامره، والإعراض عن الدنيا، وما فيها، ومن فيها، فأوَّلُ ما يلزمُه أنْ يعرف نعم الله تعالى عليه في ذلك الوقت، ويقومَ بواجب الشُّكر، ويزيد تواضعاً واجتهاداً، ويعلمَ أَنَّهُ محمول على ذلك بتوفيق من الله تعالى، لا بمجاهدة منه، فإنَّ مجاهدتَهُ ومعرفته أيضاً لنعم الله تعالى عليه بزيادة توفيق الله.

فإذا كان العالمُ بهذا المحل من الدين كان إماماً يُقْتَدَى به في أحكام الظاهر وأحوال الباطن، يهتدي بنوره كلُّ من صحبه، ويستضيءُ بعلمه كُلُّ من اتَّبعه، ويكونُ حجَّةَ الله تعالى على عباده، وبركةً في بلاده.

ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا، وطلب العلو فيها، وطلب الرياسة واستتباع الخلق، فهو العلم الذي هو غير النَّافع، وهو العالم المفتون الهالك، ولا حسرة أعظم من أنْ يهلك العالمُ بما يرجو به نجاته.

وقد بيَّن علماؤنا رحمهم الله تعالى حال الفريقين، وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات، وأطالوا في ذلك النَّفَسَ لما شاهدوا من انتشار الفساد في الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع، أيُّ شيء هو.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢)، باب التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل.

وقد قال الفضيل بن عياض[١] رضي الله عنه: «كان العلماءُ ربيعَ النَّاس، إذا نظر إليهم المريضُ لم يسُرَّه أنْ يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يودَّ أن يكون غنياً، وقد صاروا اليوم فتنة على النَّاس».

قال هذا في زمانه الصالح، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟! فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ولقد صدق ابن المبارك[٢] رحمه الله تعالى حيث يقول:

وهَـلْ أفـسَدَ الـدِّيْنَ إلاَّ الملـوكُ ... وأحبـارُ سـوءٍ ورُهْبانُهـا

بـاعوا النفـوس ولم يربحـوا ... ولم تَغْـلُ في البيـع أثمانُهـا

لقـد رَتَـع القـومُ في جِيفَـةٍ ... تبيَّنْ لذي العقـلِ إنتانُهـا

انتهى ملخصاً.

---

(١) هو: الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي: شيخ الحرم المكي، ولد سنة ١٠٥هـ، من أكابر العُبَّاد والصُّلَحاء. كان ثقة في الحديث. أخذ عنه خلق؛ منهم الإمام الشافعي، ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل مكة والكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها. من كلامه: «من عرف الناس استراح». (الأعلام ٥: ١٥٣).

(٢) هو: الإمام قدوة الزاهدين، وفخر المجاهدين، عبد الله بن المبارك المروزي، أليف القرآن والحج والجهاد، أجمعوا على جلالته وتقدمه في كل شيء، وأنه ممن تستنزل الرحمة بذكره، وترجى المغفرة بحبه. قال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما كان عليه ابن المبارك فلم أقدر. قال ابن عياش: ما على وجه الأرض مثله. وكتب الحديث عن ألف ومئة شيخ، وكان شديد الورع بحيث سافر من مرو إلى الشام في رد قلم استعاره ونسيه في رحله. قال الذهبي رحمه الله تعالى: كان يتجر وينفق على الفقراء في العام مئة ألف درهم. مات قافلاً من الغزو سنة (١٨١هـ). (تهذيب التهذيب ٥: ٣٨٢، وحلية الأولياء ٨: ١٦٢، والكواكب الدرية ١: ٢٣٩).

تتمة:

قال في النصائح الدينية: اعلم رحمك الله أن للعالم العامل بعلمه، المعدود عند الله وعند رسوله من علماء الدنيا وعلماء الآخرة علاماتٍ وأماراتٍ تُفَرِّقُ بينه وبين العالم المخلِّط المعدود عند الله ورسوله من علماء اللسان، المتبعين للهوى المُؤْثِرِين للدنيا على العُقْبى.

فمن علامات العالم المعدود من علماء الآخرة: أن يكون خاشعاً، متواضعاً، خائفاً، وجلاً، مشفقاً من خشية الله، زاهداً في الدنيا، قانعاً باليسير منها، منفقاً للفاضل عن حاجته مما في يده، ناصحاً لعباد الله، شفيقاً عليهم، رحيماً بهم، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، مسارعاً في الخيرات، ملازماً للعبادات، دالاً على الخير، داعياً إلى الهدى، ذا سَمْتٍ وتؤدة ووقار وسكينة، حسن الأخلاق، واسع الصدر، لَيِّنَ الجانب، مخفوضَ الجناح للمؤمنين، لا متكبراً، ولا مُتَجَبِّراً، ولا طامعاً في النَّاس، ولا حريصاً على الدنيا، ولا مؤثراً لها على الآخرة، ولا جامعاً للمال، ولا مانعاً لـه عن حقه، ولا فظّاً، ولا غليظاً، ولا ممارياً، ولا مجادلاً، ولا مخاصماً، ولا قاسياً، ولا سيئ الأخلاق، ولا ضيق الصدر، ولا مُدَاهِناً، ولا مُخادعاً، ولا غاشّاً، ولا مُقَدِّماً للأغنياء على الفقراء، ولا مُتَرَدِّداً إلى السَّلاطين، ولا ساكتاً عن الإنكار عليهم مع القدرة، ولا محبّاً للجاه والمال والولايات، بل يكون كارهاً لذلك كله، لا يدخل في شيء منه، ولا يُلابسه إلا من حاجة أو ضرورة.

وبالجملة: فيكون مُتَّصِفاً بجميع ما يَحُثُّه عليه العلم، ويأمره به من الأخلاق المحمودة، والأعمال الصالحة، مجانباً لكلِّ ما ينهاه العلم عنه من الأخلاق والأعمال المذمومة.

وهذه الأشياء التي ذكرناها في وصف علماء الآخرة يجب أن يتحلى بها ويتصف كل مؤمن، غير أنَّ العالِمَ أولى بها وأحق، وهي عليه أوجب وآكد؛ لأنَّـهُ عَلَمٌ به يُهتدى، وإمامٌ به يُقْتَدَى، فإنْ ضَلَّ وغوى، وآثر الدنيا على الأخرى، كان عليه إثمه وإثم من تابعه على ذلك، وإن استقام واتقى، كان لـه أجره وأجر من تابعه على ذلك. انتهى.

فتأمل هذه الأوصاف الجليلة والأخلاق الجميلة، وجاهد نفسك في العمل بها. وبالله سبحانه التوفيق.

* * *

باب الإخلاص

هذا (باب) بيان (الإخلاص) في العمل المشروع.

هو: أن يكون قصد الإنسان في جميع طاعاته وأعماله مجرد التقرب إلى الله تعالى، وإرادة قربه ورضاه، دون غرض آخر من مراءاة للنَّاس، أو طلب محمدة منهم، أو طمع فيهم.

قال الإمام القشيري[1]: الإخلاصُ: إفرادُ الحقِّ سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أنْ يريدَ بطاعته التقرُّبَ إلى الله سبحانه وتعالى دون شيء آخر: مِن تَصَنُّعٍ لمخلوق، أو اكتساب مَحْمَدَةٍ عند النَّاس، أو محبةِ مدحٍ منَ الخَلق، أو معنى من المعاني[2]، سوى التقرب إلى الله تعالى[3].

---

(١) هو: أبو القاسم عبد الكريم القشيري النسابوري، ولد سنة ٣٧٦هـ وتوفي ٤٦٥هـ بمدينة نيسابور التي كانت إقامته فيها، وهو من رواد الصوفية، وله تواليف كثيرة في التصوف والتفسير والأدب، وكان علامة في الفقه والأصول والتفسير والحديث والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة. صنف التفسير الكبير وسماه: «التيسير في علم التفسير» وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وأما مجالس الوعظ والتذكير فهو إمامها. (وفيات الأعيان ٣: ٢٠٥ وما بعدها)، و(الأعلام ٤: ١٨٠ للزركلي).

(٢) قوله: (أو معنى من المعاني): كأن يريد بعبادته ثواب الآخرة، وإكرامه في الدنيا، وسلامته من آفاتها، واستعانته على أمور دينه كمن يرائي والديه. انتهىٰ. مؤلف.

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٠٧).

وقال أبو عثمان[١]: الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

وقال الفضيل: الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها. وقال أيضاً: ترك العمل لأجل الناس رياء[٢]، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

وقيل لسهل بن عبد الله: أيُّ شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال ذو النون[٣]: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري، توفي سنة (٢٩٨هـ)، صاحَبَ شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد، وأقام عنده، وتخرج به، وزوَّجه أبو حفص ابنته، وعاش بعد أبي حفص ثلاثين سنة. ومن كلامه رحمه الله تعالى: لا يكمل إيمان الرجل حتى تستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء، العز والذل. وقال: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته. (الرسالة ٤٠٧).

(٢) قوله: (ترك العمل لأجل الناس رياء) أي: من حيث يتوهم منهم أنهم ينسبونه بالعمل إلى الرياء، فيكره هذه النسبة، ويحب دوام نظرهم إليه بالإخلاص، فيكون مرائياً بتركه محبة لدوام نسبته إلى الإخلاص لا للرياء، والعمل من أجل الناس شرك لكونه أشرك في عمله غيره، (والإخلاص: أن يعافيك الله منهما) أي: من الرياء والشرك، أما تركه للخوف من وقوعه في الرياء فليس برياء، وإن كان تاركه مضيعاً له؛ بل حق أن ينفي ذلك الخاطر ويعمل. انتهىٰ. من شرح رسالة القشيري، لشيخ الإسلام القاضي زكريا.

(٣) هو: أبو الفيض ذو النون المصري، واسمه: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: الفيض إبراهيم، وأبوه كان نوبياً. وتوفي سنة خمس وأربعين ومائتين. فائق هذا الشأن، وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكل، فاستحضره من مصر، فلمّا دخل عليه، وعظه فبكى المتوكل، ورده إلى مصر مكرماً، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي، ويقول: إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذي النون. وكان رجلاً نحيفاً، تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية. انتهىٰ. الرسالة القشيرية، ص (٨).

من العامة[١]، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال يعقوب السوسي: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص[٢]. انتهى.

وآثارهم في تعريف الإخلاص كثيرة وكلها متقاربة في المعنى.

قال في النصائح: فالذي يعمل لقصد التقرُّب إلى الله تعالى وطلب مرضاته وثوابه هو المخلص، والذي يعمل لله ولمراءاة الناس هو المرائي، وعمله غير مقبول، والذي يعمل لمراءاة الناس فقط ولولا الناس لم يعمل أصلاً أمره خطر هائل، ورؤياه رؤيا المنافقين، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العافية من جميع البليات. انتهى.

وقد ورد في الأمر به وفي فضله آيات وأخبار وآثار، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقال ﷺ: «أخلص دينك يجزك العمل القليل»[٣]، وقال ﷺ: «من أخلص لله

(١) قوله: (استواء المدح والذم من العامة) أي: من جميع الناس لا من بعضهم فقط لمعنى يخصه، وهذا أولى درجات الإخلاص، وهي السلامة من الرياء، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، بأن لا تنظر إلى نفعها ولا إلى ضررها حتى تنسى مدح الخلق لك أو ذمهم على عملك، لكمال شغلك بإخلاصك، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة، بأن لا يخطر لك على عملك جزاء دنيوي ولا أخروي. (انتهى. من شرح الرسالة لشيخ الإسلام زكريا).

(٢) حق المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه، فمتى خالف ذلك لم يكمل إخلاصه، بل سَمَّاه بعضهم رياءً، فقال: (رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص، والحاكم في المستدرك (٤: ٣٠٦) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: لا. ورواه أبو نعيم في الحلية (١: ٢٤٤)، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير (٢٩٨).

أربعين يوماً أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[١]، وسئل عليه الصلاة والسلام عن الإيمان، فقال: «هو: الإخلاص»[٢]، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣]. وقال ﷺ: «إن الله سبحانه وتعالى يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فنصيبي له، فإني لا أقبل إلا ما كان لي خالصاً»[٤].

وقال أبو هريرة: «مكتوب في التوراة: كل عمل أُرِيدَ بِه وجهي فقليله كثير، وكل عمل أريد به غيري فكثيره قليل».

وقال بعض الحكماء: الدنيا كلها جهالة إلا ما كان منها علماً، والعلم كله حجة إلا ما كان منه عملاً، والعمل كله مردود إلا ما كان منه إخلاصاً.

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٤٦٦) عن ابن عباس، وهناد بن السري في الزهد (٦٧٨)، والمروزي في زيادات الزهد (٣٥٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣: ٢٣١)، وأبو نعيم في الحلية من رواية مكحول عن أبي أيوب الأنصاري (٥: ١٨٩) وسنده ضعيف، ووهم ابن الجوزي فأورده في الموضوعات. والحديث صحيح مرسلاً على شرط مسلم، وضعيف موصولاً.

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) رواه البخاري (١) في بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة.

(٤) رواه مسلم في الزهد (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، وورواه أحمد (٢: ٣٠١، ٤٣٥)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٦٥٥٢)، وقال الأبي في شرح مسلم (٩: ٤٥٣): أطلق على نفسه الشريك بالنسبة لمن زعم ذلك.

وتعقبه السنوسي فقال: قلت: المراد هنا كونه شريكاً في القصد في هذا الفعل الصادر من المرائي؛ لأنه قصد بفعله الله تعالى وغيره. ولا إشكال في ثبوت الشركة بهذا المعنى، فلا حاجة إلى الاعتذار، إذ لم يرد بالشركة الشركة في الألوهية أو صفاتها المختصة بها.

قال رحمه الله تعالى:

٣ـ (الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ وأَرْوَاحُهَا وجُودُ سِرِّ الإِخْلَاصِ فِيْهَا).

قال العلامة الشيخ أحمد القشاشي في شرحه: الإخلاص في العمل لله مطلقاً روحه، كثيره وقليله، وهو من العمل كالروح من الجسد، فإذا خلا العمل من الإخلاص رُدَّ على عامله ولو كان حسناً في الصورة؛ لأنَّ باطن العمل فاسد فهو فاسد.

قال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] أي: جسد بلا روح ناطق؛ لعدم العمل بموجب النفاق، فكذلك العمل الذي لا إخلاص فيه لا روح له؛ لأنه جسم بلا روح إيمانيَّة، وذلك موته، وإذا تحلى العمل بالإخلاص لله بإذن الله رفع؛ لكونه صالحاً، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. انتهى.

وقال ابن عباد: إخلاص كلّ عبد في أعماله على حسب مرتبته ومقامه، فأما من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء: الجلي والخفي، وقصد موافقة الهوى النفسي، طلباً لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب، وهرباً عما أوعد به الْمُخَلِّطِين[1] من أليم العذاب، وسوء الحساب، وهذا من التحقيق بمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: لا نعبد إلا إيَّاك، ولا نشرك في عبادتنا غيرك.

وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره في أعمال بره، مع بقاء رؤيته لنفسه في النسبة إليها، والاعتماد عليها، وأما من كان من المقربين، فقد جاوز هذا المقام إلى

---

(١) ضد المخلصين.

عدم رؤيته لنفسه في عمله؛ فإخلاصه إنما هو شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه في ذلك حولاً ولا قوّة، ويعبَّر عن هذا المقام بالصدق، الذي به يصح مقام الإخلاص، وصاحب هذا مسلوك به سبيلُ التوحيد واليقين، وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: لا نستعين إلاَّ بك، لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا؛ فعمل الأوَّل هو العمل لله، وعمل الثاني هو العمل بالله، فالعمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، والعمل لله نعت كل عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بالضمائر.

وهذه العبارات للإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه.

وبها تبين الفرق بين المقامين، وتباينهما في الشرف والجلالة، فإخلاص كل عبد هو روح أعماله، فبوجود ذلك يكون حياتها، وصلاحيتها للتقرب بها، وتكون فيها أهلية وجود القبول لها، وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار، وتكون إذ ذاك أشباحاً بلا أرواح، وصوراً بلا معان.

قال بعض المشايخ: «صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤ـ (ما أرادتْ هِمَّةُ سالِكٍ أن تَقِفَ عندَ ما كُشفَ لـها إلا ونادَتْهُ هَواتِفُ الحقيقةِ: الذي تَطْلُبُ أمامَكَ، ولا تبرَّجَتْ ظَوَاهِرُ المكوَّنَاتِ إلا ونادَتْهُ حَقائقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: السائر إلى الله تعالى يتجلى له في أثناء سلوكه أنوار، وتبدو لـه أسرار، فإن أرادت همته أن تقف عندما كُشِف لها من ذلك؛ لاعتقاده أنَّه وصل إلى الغاية القصوى، والنهاية من المعرفة، نادته هواتف الحقيقة: المطلوب الذي تطلب أمامك، فجُدَّ في السير ولا تقف، وإن تبرَّجت له ظواهر المكوَّنات بزينتها فمالَ إلى حسنها وجمالها، نادته حقائقها الباطنة: «إنما نحن فتنة فلا تكفر»، وغمِّض عينيك عن ذلك، ولا تلتفت إليه، ودم على سلوكك وسيرك، واعلم أنه ما دامت لك همة وإرادة فأنت بعيد في الطريق لم تصل، فلو فنيت عنها لوصلت.

وما أحسن قولَ أبي الحسن التستري في هذا المعنى، (شعراً):

فلا تَلْتَفِتْ في السَّيْرِ غَيْراً فكُلُّ ما ... سِوَى اللّٰهِ غَيْرٌ فاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنَا

وكُلُّ مَقَامٍ لا تُقَمْ فِيْهِ إنَّهُ ... حِجَابٌ، فجُدَّ السَّيْرَ واسْتَنْجِدِ العَوْنَا

ومَهْما تَرَى كُلَّ المَراتِبِ تُجْتَلى ... عَلَيْكَ فحُلْ عنها فعَنْ مِثْلِها حُلْنَا

وقُلْ ليسَ لي في غيرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ ... فلا صُورةٌ تُجْلَى ولا طُرْفةٌ[1] تُجْنى

انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: واعلم أنك في أول مقصدك، وحال انقطاعك إلى الله تعالى، قبل اتصافك بالصفات التي توجب الانتقال من الأحوال إلى المقامات العرفانية، تتبرج عليك ظواهرُ وجودك الخيالي؛ لأنه في مقابلة عالم الغيب الحقيقي عالم خيالي لا حقيقة له؛ لكنه يرِدُ على السالك قبل تخلصه من عالم نفسه، فإذا وردتْ عليه نادته حقائقها، وهي العالم النوراني

---

(١) الطُّرفة: الملحة أو الحديث الحسن.

الحقيقي: لا تقف معنا؛ يستر عنك المراد، وتنقطع عن طريق الإرشاد، ولهذا أشار رضي الله عنه بقوله: «ولا تبرجت ظواهرُ الـمكوَّنات إلا نادته حقائقها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]»، فحاصله أنّ ما سوى الله ماثل لا يجوز النظر إليه، ولا الوقوف معه عند أهل الطريق، ومن رضي بسوى الله تعالى كان له، وحجب به، والخير أجمع في الانطراح والتسليم، وترك النظر، ورد الأمر إلى من له الأمر. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٥ـ (لا تَرْحَلْ مِن كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فتكُونَ كحِمارِ الرَّحَى، يَسِيرُ والذي ارتحَلَ إليه هُوَ الذي ارتحَلَ مِنه؛ ولكِنِ ارْحَلْ منَ الأكوانِ إلى المُكَوِّن، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: العمل على طلب الجزاء ونيل الرتب العَليَّة والمقامات؛ نقصان في الحال، وشَوْبٌ في إخلاص الأعمال، وهو معنى الرحيل من كون إلى كون، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس في أن تحصل لها رتبة أو تنال بسعيها موهبة، وهذه كلها من الأكوان، والأكوان كلها متساوية في كونها أغياراً، وإن كان بعضها أنواراً.

وتمثيله بحمار الرحى، مبالغة في تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار، وتلطف في دعائهم إلى حُسْن الأدب بين يدي الواحد القهار، حتى يتحققوا بمعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فيكون انتهاء سيرهم إليه، وعكوف قلوبهم عليه، وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاءً بمقتضى العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية فقط، من غير التفات إلى النفس[١] وعلى أيِّ حالة تكون، فهذا

(١) في نسخة: الأغيار.

تحقيق الإخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص. جعلنا الله من أهله بمنِّه وفضله. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه: أراد بهذه المقالة تجريدَكَ عن الأكوان ظاهراً وباطناً، وحل رباطه منك وثاق الفناء عنك، وإلَّا فكيف لك بالوصول، وأنت في طلب الأكوان مأسور؟! واعلم أنَّ مراد الله منك قلبك الذي هو محل نظره؛ لتجرده عن كل ما سواه، وتجرده عن التجريد، حتى يكون محلًّا لنظر الله تعالى، فيكون ذلك منك غاية التوفيق، والرحمة والعناية والحفظ والرعاية من الله تعالى، والاختصاص والولاية، فإذا شملك أيها العبد بهذه العناية الكبرى، كان مسلوكك وصْلاً لك إليه، ورجوعك منه به، وكان لك نعمة عظيمة في الدار الآخرة لا تقوَّم بها نعمة، ولا تقاس، وهي النظر إلى وجهه الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ لأن العبد إذا وصل إلى الله بواسطة صدقه وإخلاصه، وتخلصه عما سواه، تولاه، وذلك غاية الغايات؛ لأن ما بعد الله شيء. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦ـ (لا عَمَلَ أرْجَى للقَبولِ مِن عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُوده، ويُحتقَرُ عندَكَ وُجُودُه).

قال القُشَّاشي في شرحه: العملُ الصالح المرجو نفعه لقلبك، وقبوله عند ربك: ما غَيَّبَ الله عنك شهودَه، وحَقَّرَ عندك من حيث نسبتُه إليك وجودَه بعد تمامه، والإخلاص لله فيه؛ لأن العمل بآفات نفسك العارضة لها بمراد الله لترقيتها يقعد العمل، أو يقومه، فإنْ يقعد فإليها عوده؛ لبروزه منها، وإن يقم قُبِلَ ورُفِعَ وغُيِّبَ عن عامله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في معناه: لأن العبد إذا تحقق بحقيقة أنَّ ما ثمَّ إلاَّ اللهُ تعالى وأسماؤه وصفاته وأفعاله، وأنه وعمله وعلمه وسائر المخلوقات أفعال الله تعالى، أي: خلقه، كان محجوباً عن نفسه بربه، فإذا غفل العبد عن هذا التحقيق والنظر الدقيق، فلا يرى إلا نفسه وأعماله، وأحواله، ومقاماته، فيتقيَّدُ بها قيداً كأنه أسيرها، ويكون محجوباً بنفسه عن رؤية ربه، والله أعلم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧ـ (لا تُفْرِحْكَ الطَّاعة؛ لأنّها بَرَزَتْ منْك، وافْرَحْ بها لأنّها بَرَزَتْ منَ اللّٰهِ إلَيْكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الفَرح بالطاعة على وجهين: فَرَحٌ بها من حيثُ شُهودُها من الله تعالى نِعمةً منهُ وفضلاً، فهذا هو الفرح المحمود، وهو الذي يطلب من العبد، وذلك هو المقتضي شكرها.

وفرح بها من حيثُ ظُهورُها من العبد باختياره وإرادته، وحوله وقوَّته، فهذا فرحٌ مذمومٌ منهيٌّ عنه، وهو كفران النِّعمة، وهذا من العُجْب المحبط للعمل، فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شيء.

وفضل الله ورحمته هنا هو: ما أبدى من عنايته بعبده حتى فتح له به من غير استحقاق مع احتياجه إليه؛ إذ لو لم يرحمه به، ما وصل إليه. انتهى.

وقال القُشَّاشي في شرحه: لمَّا كان العبد مُركَّباً بالتركيب الإلهي على الفرح والترح، والقبض والبسط، تحت نشأة الأسماء الإلهية، وبعددها أطواره، فلا بد له من الفرح، فإنْ وضعه في محله حُمِدَ، وإنْ وضعه في غير محله ذُمَّ، وهذا منشأ التكليف الحمد والذم: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فأرشد الشيخ رحمه الله تعالى إلى أخذ المحمود منه، وترك المذموم؛ لأنه كذا وجده كما أخذه عن أوليائه، عن الرسول ﷺ، عن الله عز وجل، فإذا فرحت فلا تفرح ببروز الطاعة منك، وتغفل عن إنعام الله عليك بها، فذلك موجبٌ لردها إلا ما شاء الله، وافرح بإنعام الله عليك بها، فإنه موجب لقبولها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ لهم حتى رحمهم وتفضل عليهم، وأهّلهم لفضله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٨ـ (كَفَى مِن جَزَائِهِ إِيَّاكَ على الطَّاعةِ أَنْ رَضِيَكَ لها أهلاً).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا بيان جزائهم المُعَجَّل، وهو: أنه عرَّفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقروا معه أنفسهم أن يكونوا أهلاً لأنْ يكلّفهم القيام بطاعته، ويمدهم فيها بتيسيره ومعونته، فسباهم[1] حينئذ حبُّه، واستولى عليهم قُرْبُه، فانخنست[2] إذ ذاك نفوسهم، واضمحلّ وجودُهم، وذهب بهم الحياءُ كُلَّ مذهب، وهذا هو غاية الجزاء، ونهاية العطاء عند العارفين، الذي يمنعهم وجدانه من التطلع إلى غيره من الحظوظ الآجلة. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه: وهذا غاية الجزاء والفضل والمِنَّةِ من الله عليك: أن كُتِبْتَ في ديوان الطائعين، ووصفَكَ بذلك بين ملائكته المقربين، كل ذلك تكرماً منه عليك، فإنَّ طاعتك لا تنفعه، كما أنَّ معصيتك لا تضره، فهو أقامك في الطاعة، ورضيك لها أهلاً؛ ليعود نفعها عليك. انتهى.

---

(١) أي: أسرهم.

(٢) أي: انقبضت وتأخرت.

قال رحمه الله تعالى:

٩ـ (كَفَى العَامِلِينَ جَزَاءً ما هُوَ فاتِحُهُ على قُلُوبِهم في طاعتِه، وما هُوَ مُورِدُهُ عَليهم مِن وُجُودِ مُؤَانَسَتِه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا بيان آخر لما يُكرِمُهم به من الجزاء المعجَّل، وهو: أنَّ العاملين لربهم يفتح لهم من المعارف، ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف، ما يتنسمون منه روح الأنس، ويتنعَّمون به في حضرة القدس، وهذا من علامة وجود الرضوان الأكبر، الذي يتلاشى دونه كلُّ جزاء ويستحقر. كان بعضهم يقول: التملُّق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدنيا، ليس من الدنيا، هو من الجنة، ظَهَرَ لأهل الله تعالى في الدنيا، لا يعرفه إلا هم، ولا يجده سواهم رَوْحاً لقلوبهم. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق[1] في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠ـ (مَن عَبَدَهُ لشيءٍ يَرْجُوهُ منهُ، أو لِيَدفَعَ بطَاعتِهِ وُرُودَ العُقُوبةِ عنه، فما قامَ بحَقِّ أوصَافِه).

قال أبو الحسن الحجازي في شرحه: لأن حق المولى على العباد أن يعبدوه لأوصافه الجميلة، ولوجهه الكريم، فمَن عبدَ اللَّـهَ لشيء: كان لـه، وحُجب به، مثاله: من عبَدَ الله خوفاً من ناره، أو طمعاً في جنته، أعطاه الله الجنة، وربما حجب بوجود نعيمها عن المشاهدة، وذلك عند المقربين عذابٌ أليم؛ لأن أعظم العذاب

---

(١) أي: يعبدونه في صورة من الثناء عليه والمدح له، وهي كلمة تستعمل في الجو الصوفي للذين يستيقظون في الثلث الأخير من الليل يناجون الله سبحانه وتعالى بما هو أهله.

عند المقرب وجود الحجاب، ولهذا أشار بعضهم بقوله: إنَّ في الجنة رجالاً إذا حجب المولى عنهم طرفة عين استغاثوا من الجنة كما يستغيث أهلُ النَّار من النار، فجنة المقربين ونعيمهم مشاهدة وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ - ٢١]. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: عملُ العاملين، لأجل حصول الجزاء، وفراراً من عقوبة المولى، مدخولٌ معلولٌ، ليس من شأن العارفين المحققين؛ لأنّ قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضي أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب؛ لأنه عبد يستحق عليه مولاه كل شيء ولا يستحق هو عليه شيئاً، وهذا من علامة المحبة لله تعالى؛ لأن المحبَّ مُجتَمِعُ الهَمِّ بأمر محبُوبه، لا مُرادَ له إلا ما أراد، فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل، لأجل جلالته وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته، التي لا يُشارَك فيها، فإن خالف هذا وعمل على طلب حَظِّه: لم يقم بحق صفاتِ مولاه، وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته، وعدم حبه لربه ومعرفته. قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: «ما طلعت شمس ولا غربت على أحدٍ من أهل الأرض إلا وهُم جهَّال بالله عز وجل؛ إلاَّ من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته».

ومرَّ عيسى عليه السلام على طائفة من العُبَّاد وقد احترقوا من العبادة، كأنهم الشُّنُونُ[١] البالية، فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله تعالى. فقال: ولأي شيءٍ تعبدتم؟ قالوا: خوَّفنا الله عز وجل من النَّار فخفنا منها. فقال: حقٌّ على الله تعالى أن يؤمِّنكم مما خفتم منه، ثم جاوزهم فمرّ بآخرين أشدَّ عبادةً منهم، فقال: لأي شيء تعبدتم؟ فقالوا: شوَّقنا الله تعالى إلى الجنان وما أعدَّ فيها لأوليائه، فنحن

(١) الشنون: جمع شنٍّ: والشِّن والشنة: القِرْبة الخَلِقة الصغيرة.

نرجوها، فقال: حقٌّ على الله تعالى أن يُعْطِيَكُم ما رجوتموه، ثم جاوزهم ومرَّ بآخرين يتعبدون فقال: ما أنتم؟ قالوا: المحبون لله عز وجل، لم نعبده خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته؛ ولكن حبّاً له، وتعظيماً لجلاله، فقال: أنتم أولياءُ الله حقاً، معكم أُمِرت أن أقيم. فأقام بين أظهرهم.

وفي لفظ آخر أنه قال للأولين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً أحببتم، وقال للآخرين: أنتم المقربون.

وقال بعض إخوان معروف[1] رضي الله عنه: أخبِرْني عنك يا أبا محفوظ، أي شيء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت، فقلتُ: ذكر الموت؟ فقال: وأيُّ شيء الموت؟ قلت: فذكر القبر؟ قال: وأيُّ شيء ذكر القبر؟ فقلت: خوفُ النَّار ورجاء الجنة؟ قال: وأيُّ شيء هذان؟ فإنَّ ملِكاً أو خالقاً هذا كله بيده إنْ أحببتَه أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

والآثار في هذا المعنى كثيرة لا تنحصر.

فإذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبداً لله حقاً، فإنْ طَلَبَ منه الثوابَ واستعاذ به من العقاب، فإنَّما يطلبه أو يستعيذه انتجازاً لموعد ربه، وفراراً من دعوى رؤية عدم حظه، واتباعاً لما أحبَّ منه، وأذن لـه فيه من طلبه لفضله، وإحسانه، وكرمه وامتنانه.

وهذا وما أشبَهَه هو المعنيُّ بالحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه،

---

(١) يعني: معروف بن فيروز الكرخي، أبا محفوظ، أحد الزهاد المشهورين، من كبار المشايخ، مجاب الدعوة، يقول البغداديون: قبر معروف ترياق مجرب، وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، وكان أستاذ سري السقطي (الرسالة القشيريه ٤٢٧)، توفي سنة (٢٠٠هـ- ٨١٥م).

قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «ما تقول في الصلاة؟»، قال: أَتَشَهَّدُ ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النَّار، أما والله ما أُحْسِنُ دندنتَك[1] ولا دندنة معاذ، فقال: «حَولَها ندندن»[2].

لا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثاً له على القيام بطاعته وملازمة عبادته، فيكون عمله إذ ذاك مدخولاً معلولاً، هذا هو مذهب العارفين والمحققين، وعليه تنبني قواعد التصوف كلها. انتهى ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

١١ـ (متى طَلَبْتَ عِوَضاً على عمَلٍ: طُولِبْتَ بوُجُودِ الصِّدْقِ فيه، ويكفي المُرِيبَ وِجْدانُ السَّلامة).

قال أبو الحسن في شرحه: إذ طلب العوض ينافي الصدق والإخلاص في العمل، ويناقض أيضاً مقام المحبة، إذ المحبة نار الله الكبرى، إذا وقع منها حبةٌ في قلب المحب أحرقت بقاياه، وأفناه عما سوى محبُوبه؛ ولذلك قال بعضهم: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ألهاه ذلك عما سواه.

فمقام الصدق يقتضي العمل لوجه الله تعالى من غير التفات إلى وجود جزاء ولا عوض، وإذا كنت بنفسك، ولم تصل إلى مقام اليقين، لعدم مشاهدتك التوحيد، فانظر إلى ما أنعم الله عليك به من وجود الإسلام، والزم العمل بما يقتضيه مقام الإيمان، لعل يُفتح لك الباب، وتصير من أولي الألباب.

---

(١) قال في القاموس: دندن الرجل: نغّم (بتشديد الغين) ولم يفهم منه كلام.

(٢) رواه أبو داود في سننه رقم (٧٩٢) عن بعض الصحابة، وابن ماجه في سننه (٩١٠)، وابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن ٥١٤)، وابن خزيمة (٧٢٥) عن أبي هريرة.

«ويكفي المريب وجدان السلامة» الحاصلة له من فضله وإحسانه، وهو إنقاذه من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام والإيمان، والتوفيق للعمل بما تقتضيه حدود الشريعة، وأما كونه مُرِيْباً فلأنه لم يصل إلى مقام يقتضيه دوام اليقين؛ لأنه بنفسه كما تقدم؛ ولأنّ الريبة لا تنشأ إلا عن وهم وخيال، وأما من كان بالله لم يكن عنده شيء من ذلك؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يجمع عبده عليه، أمات نفسه ووهْمَه، وفرق همَّه، ووسَّع رزقه في مقام اليقين، والفهم عنه؛ لأنّ اليقين الأدوم غيبةٌ عنك، وحضورٌ به، ومن غاب عن نفسه بما شهد من حضرة ربه، لم يشهد له وجوداً ولا عملاً، وإن شهد العمل شهده من فاعله وخالقه، فيفنى عن وجوده وعمله، وإيجاده بما شهده من توحيد أفعاله تعالى؛ لأن الله تعالى خالق العبد وعمله؛ لقولـه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: معنى ما ذكره: أن العمل على هذا الوجه مُعَرَّضٌ للبطلان؛ لأنه إذا طالب ربه بالجزاء على عمله، طالبه رَبُّه بوجُودِ الصِّدْقِ فيه، والصدقُ: الوفاء بحقه في العمل. وأنَّى له توفيةُ ذلك، مع كونه طالباً للحظ من ربه؟! فهو لا محالة مريب، فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها.

قال الواسطي[1] رضي الله عنه: العبادات إلى طلب العفو أقربُ منها إلى

---

(١) الواسطي: أبو بكر محمد بن موسى الواسطي، خراساني الأصل من فَرْغانة. عالم كبير الشأن إمام بـ«مرو»، مات بها بعد سنة ٣٣١هـ، ومن كلامه: الناس على ثلاث طبقات، الطبقة الأولى: مَنَّ الله عليهم بأنوار الهداية فهم معصومون من الكفر والشرك والنفاق، والطبقة الثانية: مَنَّ الله عليهم بأنوار العناية، فهم معصومون من الصغائر والكبائر، والطبقة الثالثة: مَنَّ الله عليهم بالكفاية، فهم معصومون عن الخواطر الفاسدة وحركات أهل الفضيلة. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٩).

طلب الأعواض عليها. وقريبٌ من هذا ما قاله النصرأبادي[1] رضي الله عنه: العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢ـ (لا تَطْلُبْ عِوَضاً عَن عَمَلٍ لَستَ لـهُ فاعلاً، يكفي منَ الجَزاءِ لكَ عَلَى العَمَلِ أن كانَ لهُ قابلاً).

قال أبو الحسن في شرحه: لأن طلبك العوض يقتضي غيبتك عن الله ووقوفك مع نفسك وحظوظها؛ وإن رأيت لك حقيقةَ وجود في العمل كان ذلك شركاً ظاهراً عند أهل الطريق؛ ولهذا قال بعضهم: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. انتهى.

وقال ابن عباد: المنفرد بخلق أعمال العباد واختراعها هو الله عز وجل، فكيف يَطْلُبُ العبدُ الجزاءَ على عملٍ لا مدخل له فيه على الحقيقة؟ ومعنى كون القبول جزاءً قد تقدم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرأبادي، شيخ خراسان في وقته. صحب دلف الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعشي، وجاور بمكة المكرمة، وكان عالماً بالحديث كثير الرواية. توفي سنة ٣٦٩هـ ومن كلامه: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.
وقيل له: إنَّ بعض الناس يجالسون النساء ويقولون: نحن معصومون في رؤيتهن، فقال: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر والنهي باق، والتحليل والتحريم مخاطبون به، ولن يجترئ على الشبهات إلا من تعرَّض للمحرمات. (الرسالة ٤٣٧).

١٣ ـ (أنتَ إلى حِلْمِهِ إذَا أطَعْتَهُ أحْوَجُ مِنْكَ إلَى حِلْمِهِ إذَا عَصَيْتَه).

قال القشاشي في شرحه: لأنك في المعصية معترف بتقصيرك، خائف من مولاك، وفي الطاعة محجوب بها، ترى أنك أتيت بشيء من عندك، فإن رأيت الواقع بالله لا بك سعدت وسلمت، وكنت في وقاية الله عنك، وإن رأيت الطاعة بك وَقَعَتْ فتَوَهَّم أنك آلة للحق، ولا يتم الوقوع إلا بك، لكونك محل القدرة والإرادة، فذلك موجب للمؤاخذة، فلولا حلمه بك وبنا لبرزت القدرة بالمؤاخذة لنا. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، فنحن إلى حلمه مع ذلك محتاجون كما نحتاج إليه في صريح المعصية والمخالفة، وما كنا أيضاً في الطاعة أحوج إليه من المعصية إلا لكون الطاعة حجاباً، والمعصية كشفاً، والأخذ مع الحجاب أكثر من الأخذ مع الكشف، وبالله العياذ من ذلك، والاستعانة، وإليه الفاقة والاستكانة. انتهى.

وقال ابن عباد: شرف العبد ورِفعةُ قدره إنما يكون بنظره إلى ربه عز وجل، وإقباله عليه، وسكونه إليه، واعتماده عليه.

ودناءته وخسَّتُه وسقوطه من عين الله تعالى إنما يكون بنظره إلى نفسه، وإقباله على غيره، واستناده إلى سواه، فالعبد عند عمله بالطاعة معرَّض لهذه الأخطار من نظره لنفسه، واستعظامه عمله، وعُجْبِه بطاعته، وسكونه إلى معاملته، وليته يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنع؛ بخلاف المعصية في جميع هذه الأشياء، فإنها تحمله على الحذر والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه؛ فلذلك كان العبد إلى حلم الله تعالى ـ إذا أطاعه ـ أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه.

ولهذا قال أبو يزيد[١] رضي الله عنه: «توبة المعصية واحدة، وتوبة الطاعة ألف توبة». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٤ـ (رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْكَ مِن حيثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إلَيْكَ).

قال ابن عباد: رياء العبد بالعمل[٢]، حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر، لا يحتاج إلى أمارة، ورياؤه بعمله ـ حيث لا يراه أحد ـ أمرٌ خفيٌّ لا يُعْرَفُ إلاّ بالأمارات والعلامات؛ بل هو أخفى من دبيب النمل، ومن أماراته: أن يلتبس بقلبه توقير الناس لـه، وتعظيمه، وتقديمه في المحافل والمجالس، ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه، وإذا قصَّر أحدهم في حقِّه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره، ويجد تفرقةً بين إكرامه وإكرام غيره، وإهانته وإهانة سواه، حتى يُظهرَ بعضُ سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم، فيتوعَّدون من قصَّر في حقهم بمعاجلة الله تعالى له بالعقوبة، وأن الله لا يدعهم حتى ينتصر لهم، ويأخذ بثأرهم، فإذا وجد العبد هذه الأمارات في نفسه فليعلم أنه مُراءٍ بعمله وإنْ أخفاه عن أعين الناس!

---

(١) هو: طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال: بايزيد: زاهد مشهور، له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها ووفاته فيها. قال المناوي: وقد أُفردت ترجمته بتصانيفَ حافلة (ولد سنه ١٨٨هـ، وتوفي سنة ٢٦١هـ) (٨٠٤هـ - ٨٧٥م). الأعلام (٣: ٣٣٩). ومن كلامه رضي الله عنه: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتَّى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة. (الرسالة ٣٩٧).

(٢) للرياء درجات ثلاث، أولاها: أن يقصد بعمله الخلق ولولاهم لم يعمل؛ وهذا اسم الشرك عليه أحق عليه من اسم الرياء. الثانية: أن يريد وجه الله بعمله؛ لكن يريد ظهوره في الخلق، ويعمل في ذلك بالتعرض لمواضع رؤيتهم؛ وهذا هو الرياء حقيقة. الثالثة: أن يفر من ذلك كله؛ لكنه يحب شعور الخلق برؤيته؛ وهذا هو الرياء الخفي الذي أبان عنه المؤلف رحمه الله تعالى.

ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار، وعَدُّوا أنْفُسَهُم بسببه من الأشرار، كما روي عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال: من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليَّ. وسمع مالك بن دينار[1] رضي الله عنه امرأة وهي تقول: يا مرائي، فقال لها: يا هذه، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة. إلى غير هذا مما يروى عنهم في هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الجليِّ والخفيِّ إلا العارفون الموحدون؛ لأنَّ الله تعالى طهر قلوبهم من دقائق الشرك، وغيَّب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجوا منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قلوبهم وجودَ مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس وبمرأى منهم.

ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق، وتوقع منهم حصول المنافع، ودفع المضارِّ فهو مُراءٍ بعمله، وإن عَبَدَ الله تعالى في قُلَّةِ جبل[2] حيث لا يراه أحد، ولا يسمع به. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٥ـ (استشرافُكَ[3] أن يَعْلَمَ الخَلْقُ بخُصُوصِيَّتِك، دَلِيلٌ على عَدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِك).

---

(١) هو: مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي بالبصرة سنة ١٣١هـ وقيل: ١٢٧هـ، وكان أبوه من سبي سجستان، وقيل: من قابل. انظر حليه الأولياء (٢: ٣٥٧ رقم الترجمة ٢٠٠).

(٢) أعلى الجبل.

(٣) قوله: استشرافك.. إلخ، هو الرياء، حيث لا ينظر الخلق إليك؛ لأنَّك بالحب لنظرهم بخصوصيتك مراءٍ لهم في سرك، وربما استدعى جهرك، وليس هذا من باب ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] فإنَّ ذلك بعد اليقين، وهذا بعد الشك، وهذا تحدُّث بالنعمة، وهذا رياء، فلا يلتبس عليك، وكل ذلك لا يكون إلا من عدم الصدق كما ذكره الشيخ. انتهى. من شرح القشاشي.

قال ابن عباد: الخُصُوصِيَّةُ هنا: ما اختص الحق تعالى به بعض عباده من علم نافع، أو عمل صالح وصدقُ العبودية فيه: أن يقنع بعلم الله تعالى بحاله، ولا يتطلع أن يعرفه بذلك أحد من الخلق، فيشغله حينئذ الحياءُ من ربه، والشُّكرُ لـه عن الاستشراف إلى معرفة الخلق بذلك، ويغار على حاله من رؤية الأغيار له؛ ولهذا فُضِّلَ عمَلُ السِّرِّ على عمَلِ العلانية سبعين ضعفاً كما ورد في الخبر عن نبينا[١] ﷺ.

وقال عيسى عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه: وليمسح شفتيه، فإذا خرج إلى النَّاس رأوا أنه لم يَصُمْ، وإذا أعْطَى أحدُكم فليُعْط بيمينه وليخْفِها عن شماله، وإذا صَلَّى أحَدُكُم فليُدْلِ عليه سِتْرَ بابه، فإنَّ الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق».

وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق، فقال: كتمان الطاعة.

وقال أحمد بن أبي الحواري[٢] رضي الله عنه: «من أحب أن يُعْرَفَ بشيء من الخير، ويُذكر به، فقد أشرك في عبادته؛ لأنَّ من عبد على المحبة لا يُحب أن يرى خدمته سوى مخدومه».

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٥٤٥) من حديث أبي الدرداء، وقال: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين. وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل السرّ أفضل من عمل العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به». تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران. رواه البيهقي في الشعب (٦٧٥٣).

(٢) هو: أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري، من أهل دمشق. مات سنة ٢٣٠هـ. وكان الجنيد يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام. يروى أنه طلب العلم ثلاثين سنة، فلما بلغ؛ حمل كتبه إلى البحر فأغرقها، وقال: يا عِلْمُ لم أفعل هذا هواناً بك ولا استخفافاً بحقك، بل كنت أطلب لأهتدي بك إلى ربي والآن استغنيت عنك. ومن كلامه: من عمل بلا اتّباع فباطل عمله. وقال: في الرباط والغزو نعم المستراح، إذا ملّ العبد من العبادة استراح إلى غير معصية. الرسالة القشيرية (١: ٩٥).

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي[1] رضي الله عنه: «كل من لم يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره، دخل عليه الرياءُ لا محالة».

وقال بعضهم: «ما أخلص عبدٌ قط، إلا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يعرف».

وقال أبو الخير الأقطع[2] رضي الله عنه: «من أحب أن يطّلع الناس على عمله فهو مُراء، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب».

فعلى العبد إخفاء حاله جهدَه، وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده.

قال الحسن رضي الله عنه: «أدركت أقواماً ما من أحد منهم يستطيع أن يستر شيئاً من عمله إلا ستره، وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يُعْلم به، حتَّى يقوم، ولقد أدركت أقواماً يأتي أحدَهم الزَّوْرُ[3]، فيقوم فيصلي وما يشعر به الزَّوْر، ولقد أدركت أقواماً وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله تعالى سرّاً فيكون علانية أبداً، ولقد أدركت أقواماً يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره، ولقد أدركت أقواماً يجتهدون في الدعاء وما يسمعهم أحد».

---

(١) هو: مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، أبو عبد الله القرشي، عن الزبير قال: كان مصعب بن ثابت من أعبد أهل زمانه. صام خمسين سنة. قال الزبير: وحدثني يحيى بن مسكين، قال: ما رأيت أحداً قط أكثر ركوعاً وسجوداً من مصعب بن ثابت، كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، ويصوم الدهر. قال محمد بن سعد: توفي مصعب سنة سبع وخمسين ومئة، رحمه الله تعالى. (صفة الصفوة لابن الجوزي ٢: ١٧٦).

(٢) هو أبو الخير الأقطع، توفي سنة (٣٤٠هـ ٩٥٢م) مغربي الأصل، له كرامات وفراسة حادة، وكان كبير الشأن.

ومن أقواله رحمه الله تعالى: ما بلغ أحد حالة شريفة، إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين. (الرسالة القشيرية ٣٩٤).

(٣) أي: الزوار والقاصدون. قال في القاموس: زاره يزوره زيارة وزوراً: قصده، فهو زائر وزوْر [بسكون الواو].

وقال محمد بن واسع[1] رضي الله عنه: «أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، وقد بلَّ ما تحت خديه من دموعه ولا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خديه ولا يشعر به الذي إلى جنبه، وفي رواية عنه: إنْ كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم، فإن وقع منه إعلان وإظهار في وقت ما فحينئذ فليشتغل بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل باطلاع الناس على حاله، ولينكر ذلك على نفسه، وليكرهه ولا يرضَهُ منها، وليجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدات، وإن خالف هذا واستشرف على معرفة غير الله تعالى بحاله، وغفل عن مجاهدة نفسه في حال ظهور ذلك منه ولو في لحظة، خِيْفَ عليه أن يعمل الفرح في قلبه فيقع بذلك في الفتنة، فإنْ تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الإخبار بأعماله، والإظهار بمحاسن أحواله بناءً منه على نفي الغير، وأداء واجب حق الشكر.

كان بعض السلف رضي الله عنهم يصبح فيقول: صليت البارحة كذا وكذا ركعة، وتليت كذا وكذا سورة، فيقال لـه: أما تخشى من الرياء؟ فيقول: وهل رأيتم من يرائي بفعلٍ غيري؟ وكان آخر يفعل مثل ذلك، فيقال له: لم لا تكتم؟ فيقول: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأنتم تقولون لا تحدث. فإن قصد مَن هذه حالهُ هدايةَ عباد الله تعالى ودعاءهم إلى الله عز وجل، فأظهر أحواله وأعمـاله للاقتداء به والاهتداء بهديه، فهو خارج عن النمط الأول كله،

---

(١) هو: محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس، الإمام الرباني، القدوة، أحد الأعلام، قليل الرواية. قال أحمد العجلي: ثقة، عابد، صالح. وقال الدارقطني: ثقةٌ بلي برواة ضعفاء. وقال ابن شوذب: إذا قيل: مَن أفضل أهل البصرة؟ قيل: محمد بن واسع. مات سنة ١٢٧هـ. (سير أعلام النبلاء) (٦: ١١٨ - ١٢٣).

وداخل في حكم هذا النوع الثاني، وعلانية هذا أفضل من سره؛ لأنه سَلِمَ منَ الآفات التي تعرض لها غيره، وحَصَلَتْ منه الفوائد التي تضمنها إظهاره وجهره، وقد جاء في الخبر: «السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء»[١]، وهذا أرجح الوجوه عند العلماء في قوله ﷺ للرجل الذي يسأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله: «لك أجران: أجر السرِّ، وأجر العلانية»[٢]. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٦ـ (غَيِّبْ نَظَرَ الخَلْقِ إلَيْك بنَظَرِ اللّٰهِ إلَيْك، وغِبْ عن إقبالِهِم عَلَيْك بشُهُودِ إقبالِهِ عَلَيْك).

قال ابن عباد: هذا المعنى هو حقيقةُ صدقِ عبودية العبد الذي أشار إليه في المسألة التي قبل هذه، وهو أن لا يكون لـه شعور فيما منَ الخلقِ إليه من نظر وإقبال، ولا تشوف إليه، ولا طلب لـه، وإنما يكون شعوره وتشوُّفُهُ وطلبُه ما منَ الله إليه من نظره إليه، وإقباله عليه، فيغيب أدنى الحالَيْن بأعلاهما، وذلك بأن يعلم

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢: ٣٨٩) عن ابن عمر، ولفظه: «السرُّ أفضل من العلانية، ولمن أراد الاقتداء؛ العلانية أفضل من السرّ»، وفيه محمد بن الحسين السلمي، قال الذهبي: قال الخطيب: قال محمد بن القطان: كان يضع للصوفية الحديث، وفيه أيضاً بقية، قال الذهبي: صدوق؛ ولكنه يروي عمن دب ودرج، فكثرت العجائب والمناكير في حديثه.

(٢) رواه البيهقي في الشعب من رواية ذكوان عن أبي مسعود. ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان، عن أبي هريرة: «الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه أعجبه، قال: له أجر السر وأجر العلانية». قال الترمذي: غريب، وقال: إنه روي عن أبي صالح ـ وهو ذكوان ـ مرسلاً. انتهىٰ.

وقد روى مسلم من حديث أبي ذر قال: قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل في الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

أن ما منَ الخلق إليه أمر وهمي باطل، ينقاد إليه كل ذي عقل قاصر، يوجب له هذا الانقياد أنواعاً من الكبائر والرذائل، من الانحطاط في أهواء الناس، وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم، وتربية الجاه والحشمة لديهم، تكبراً وتعظماً عليهم، ومعاشرتهم بالنفاق والدهان، وتخالف الإسرار والإعلان، وهذا عذاب أليم استعجله في دنياه، إذ تفوته بذلك راحة قلبه، وطيب عيشه، ويسلبه ثواب الغناء والعزة، ويلبسه لباس الطمع والذلة، فتَرْدَى بذلك هِمَّتُهُ، وتقل قيمته، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: ٣٣]. وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

مَن رَاقَبَ النَّاسَ ماتَ غَمّاً وفازَ بالرَّاحـةِ الجَسُـورُ

ثم منّ لـه بحصول ما أراده منهم، وأغراضهم مختلفة، وطباعهم متباينة؟ فربَّما استحسن له من نفسه شيئاً لم يستحسنه من غيره، وربّما أرضى شخصاً ما لا يرضي آخر، فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند النَّاس، وهو ساعٍ فيما يضره عندهم وعند الله تعالى، مع مقاساة التعب والنَّصَبِ في نفسه.

وفي الحكاية المذكورة عن لقمانَ وابنه تنبيه على هذا المعنى: ذُكِرَ أنَّ لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حماراً، وابنه يسوق، فقال الناس حين رأوه: شيخٌ لم يشفق على صبيّ، فأركبه خلفه، فقالوا: اثنان على حمار، هلا زادا ثالثاً! فنزل لقمان وبقي الولد، فقالوا: شيخ ماش وصبي راكب، فنزل يمشي مع ولده، وساقا جميعاً الحمار، فقالوا: حمار فارغ وهذان يسوقانه، وكان غرض لقمان بهذا أن يري ابنه شأنَ الناس مع من يراعي نظرهم، وأنه لا يسلم منهم على أي حالة تكون، فرِضَا النَّاس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول، وسخفاء الأحلام، وأما من كان له

عقل وافر، وعلم فاخر، فلا يميل إلا إلى ما هو حق، ووجوده صدق، وهو ما منَ الله تعالى إليه من نظر وإقبال، وجزيل عطاء وعظيم نوال، فهو يعمل إلى ما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذم ذام أو عيب عائب، ويقول بلسان حاله: إن الذي يكرهونه مني: ذلك الذي يشتهيه قلبي.

وقد سُئِلَ الحارث بن أسد المحاسبي[1] رضي الله عنه عن علامة الصادق، فقال: الصادق: هو الذي لا يبالي لو خرج كل قَدْرٍ له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع النَّاسُ على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على الشيء من عمله، فإن كراهته دليل أنه يحب الزيادة عندهم، وحب الزيادة نقص من إخلاصه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٧ـ (لا يكُنْ طَلَبُكَ تَسبُّباً إلى العَطاءِ مِنه فيَقِلَّ فَهْمُكَ عنه، ولْيكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهارِ العُبُودِيَّة، وقياماً بحقِّ الرُّبُوبِيَّة).

قال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى: هذا نهي عن ما يتوهمه الطالب في الطلب لما يرى أنه بطلبه وسعيه يقع الشيء المطلوب، وليس كذلك، وهذا نظر أهل الغفلة والحجاب؛ لأنَّ عطاء الحق سابق الطلب؛ بل نفس طلبه له من عطائه إياه، إذ لو لم يسبق العلم القديم به لم يوجد الطلب من أحد بحال؛ لأن العلم سبب الوجود، وعدم العلم ليس سبب العدم؛ لأن العدم لا سبب لعدمه، كما لا سبب لوجوده من ذاته، فعدمه: لذاته، لا لعدم العلم، فلا تغفل، فالغفلة داء واليقظة شفاء،

(١) إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام. قال عنه الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»: «المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال». مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ.

عافانا الله بكرمه، آمين. فلا يكن طلبك للعطاء من الحق؛ لأن ذلك دليل على عدم الفهم عن الله، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحقوق الربوبية؛ لتكون من الفاهمين عن الله أسراره؛ لأنك متى رأيت العطاء الإلهي سبق السؤال الكوني، لم تجد للسؤال أثراً إلا ما كان تعبداً وسبق العلم به، وإذا أوقف الله مطلباً من مطالبك على دعائك إياه، جرى الدعاء بقدر الله فلا يتخلف؛ لأن الدعاء من جملة القضاء النازل إليك؛ لأنه مبرز لك ما لم يكن. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب والسؤال منه، إلا ليظهر افتقارهم إليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه؛ ليكون ذلك إظهاراً لعبوديتهم، وقياماً بحقوق ربوبية ربهم، لا لأنْ يتسبّبوا به إلى حصول ما طلبوه، ونيل ما رغبوه فيما لهم فيه متعة وحظ، هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى، ويدل على هذا المعنى ما يذكره المؤلف رحمه الله تعالى الآن.

قال أبو نصر السرَّاج[1] رضي الله عنه: سألت بعض المشايخ عن الدعاء: ما وجهه لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: تدعو الله تعالى على وجهين، **أحدهما:** تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء؛ لأن الدعاء ضرب من الخدمة، يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة. **والوجه الثاني:** أن تدعو ائتماراً لما أمر الله تعالى من الدعاء. انتهى.

وقد قيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء. ومقتضى هذا ألّا ينقطع سؤاله ولا رغبته، وإن أعطاه كلَّ ما طلب، وأناله كل

---

(١) عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج، زاهد، كان شيخ الصوفية على طريقة السنة. من مؤلفاته: «اللمع في التصوف». توفي سنة (٣٧٨هـ). (الأعلام ٤: ١٠٤، معجم المؤلفين ٦: ٨٩، سير أعلام النبلاء ١٣: ١٦٧).

سؤلٍ وأرَب، وألاَّ يفرق بين العدم والوجود، والمنع والعطا، فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر، فيكون عبداً لله تعالى في الأحوال كلها، وقبيحٌ بالعبد أن يَصْرِفَ وجهه عن باب مولاه؛ لإنهاء ما ينيله من شهواته وهواه.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: «لا يكن همُّك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همُّك مناجاة مولاك».

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «شر النَّاس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء: بخلوص الدعاء، وشدة التضرع والبكاء، فإذا زالت شكايتـه، ورُفعت عنه آفـتُه، ضيَّع الوفاء، ونسي البلاء، وقابل الرفد[1] بنقض العهد، وأبدل العقد برفض الود، أولئك الذين أبعدهم الله تعالى في سابق الحكم، وخرطهم في سلك أهل الرَّد». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٨ـ (كيفَ يكُونُ طَلَبُكَ اللاّحِقُ سَبباً في عَطائِهِ السَّابق!).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا دليل على نفي السببية المذكورة؛ لأنَّ ما طلبه العبد أمرٌ سابق في الأزل تقديره، وطلبه أمرٌ لاحقٌ فيما لا يزال، وكيف يكون اللاحق سبباً في وجود السابق؟! وهل السبب أبداً إلا متقدِّم على المسبَّب. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٩ـ (جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَن يَنْضافَ إلى العِلَلِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا دليلٌ آخر على ما ذكره، وهو: أنَّ حصول ما طلبه الداعي حكم من الله تعالى في الأزل، فلا يكون سببه الدعاء والسؤال،

---

(١) أي: العطاء.

لأنَّ أحكام الله تعالى تَجِلُّ عن أن تُضَاف إلى علة أو سبب من قِبَلِ أنَّ لـه الإرادة المطلقة، والمشيئة النافذة، فَصُنْعُهُ عِلَّةٌ لكل شيء، ولا علة لصنعه، كما قال العارفون المحققون. انتهى.

تنبيه: قال الأهدل في شرحه: سُئل ذو النون رحمه الله تعالى عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبِّراً غير الله، وكلما تصور في فهمك فالله تعالى بخلافه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٠ ـ (كما لا يُحِبُّ العَمَلَ المُشْتَرَك، كذلك لا يُحِبُّ القلبَ المُشْتَرَك. العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقبَلُه، والقَلبُ المُشتَرَكُ لا يُقبِلُ عَلَيْه).

قال القُشَّاشي رحمه الله تعالى: هذه دعوة إلى تجديد التوحيد عند المريد في كل نَفَسٍ جديد؛ لأنه لا يفتر من العمل، ولا يحب اللهُ من العمل إلا ما خلص له فيه، وأخلص لله عنه، ولم يكن في نيته عند عمله غير مولاه؛ لأنَّ النية هي التقوى التي تنال الله وتصل إليه، وهي الهجرة التي يهاجرُ بها إلى الله ورسوله، فتكون هجرته إلى الله ورسوله، فالله لا يحب العمل المشترك. وكما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك؛ لأن العمل المشترك ما برز إلا عن القلب المشترك، والله تعالى غني عن الشريك؛ فالعمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقْبِلُ عليه، بل يدعه وما توهمه فيقع في القطيعة، وهو يحبُّ الصلة، ولا صلة! انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع، والقلب المشترك الذي فيه محبة غير الله تعالى، والسكون إليه، والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى النَّاس، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه

إلى نفسه، فالعمل المشترك لا يُحِبُّه ولا يَقْبَلُه ولا يثيب عليه؛ لفقد الإخلاص منه، والقلبُ المشترك لا يحبُّه ولا يُقْبِلُ عليه، ولا يرضى عنه؛ لعدم وجود الصدق فيه، فمَن صحَّح أعماله بالإخلاص، وأحواله بالصدق، كان محبوباً لله تعالى، مثاباً، مرضياً عنه، وإلا فلا. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه حيث قال المصنف: «لا يحب القلب المشترك...» إلى آخره: لأن القلب بيت الرب ومحل نظره، والرب جَلَّ وعلا يكره أن يكون في بيته غيره، فطَهِّرْ بيت ربك مما سواه، أي: من نجاسة الشرك الخفي، وفَرِّغْ سريرتكَ له تحظَ بأسراره؛ لأنه تعالى أمرك بالإخلاص في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فالعمل بغير إخلاص بمثابة الميت الذي ليس له روح؛ لأن الإنسان إذا فقد روحه مات، وانقطع عمله، كذلك العمل إذا فُقِدَ منه الإخلاص، فلا يرفع ولا يفتح له باب السماء.

قال بعض العارفين: العافية أربعة أشياء: دين بلا بدعة، وعمل بلا آفة، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة. انتهى.

فالقلب إذا تجلت مرآته بنور الإيمان والذكر وتلاوة القرآن، وانقطع من العلائق، تتجلى له الأنوار، ويُقْبِلُ عليه باللطف والتوفيق والعناية رب العباد. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢١ـ (ما أَحْبَبْتَ شيئاً إلا كنتَ لهُ عَبْداً، وهُوَ لا يُحِبُّ أن تكونَ لِغيرِهِ عَبْداً).

قال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: فمن أحب الدنيا كان عبد الدنيا؛ ومن أحب الله كان عبده، ومن كان عبد الله لزمته الخدمة لله على الدوام، إذ المحبة تستوجب لزوم الخدمة على موافقة المحبوب، فمن قَيَّدَتْهُ محبة شيء بالوقوف

معه كان لـه عبداً، وهو لا يُحِبُّ أنْ تكونَ لغيره عبداً، ولا تشتغل عنه بغيره، ولا بشيء من الأشياء، أبتِ المحبَّةُ أنْ لا تستعمل محباً لغير محبوبه. انتهى.

وقال ابن عباد: المحبة للشيء تقتضي الانقياد له، وشدَّة العلاقة به، وأنه لا يبغي به بدلاً، كما قيل: «حُبُّكَ للشّيء يُعْمِي ويُصِمّ».

وذلك معنى استعباده للمحب له، فمن أحبَّ غير الله عز وجل فقد استعبدهُ ذلك الغير كائناً ما كان، والله تعالى لا يحب أن تكون لغيره عبداً، ولا يرضى بذلك. وقد قال ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهم، تَعِسَ عَبْدُ الـخَمِيصةِ [1] والقَطيفة»[2].

وقال محمد بن السَّمَّاك[3] رحمه الله تعالى: كتب إليَّ أخ: «إن استطعت ألاَّ تكون لغير الله عبداً ـ ما وجدت من العبودية بدّاً ـ فافعل».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «إنك لا تكون على الحقيقة له عبداً، وشيءٌ مِمَّا دونه لك مُسْتَرَق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديته بَقِيَّة».

---

(١) الخميصة: ثوب أسود مربع.

(٢) رواه البخاري مطولاً (٦: ٦١) بلفظ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة. إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع لـه»، ورواه مختصراً (١: ٢٢٦). وابن ماجه رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦).

(٣) هو: الزاهد القدوة، سيد الوعاظ أبو العباس محمد بن صبيح العِجْلي، ابن السَّمَّاك. روى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن أيوب العابد، وآخرون. قال ابن نمير: صدوق. قال الذهبي: وما وقع لـه شيء في الكتب الستة، توفي سنة ١٨٣هـ وقد أسن. سير أعلام النبلاء (٨: ٣٢٨ - ٣٣٠) وصفة الصفوة (٣: ١٧٤ - ١٧٧).

ومن الحكايات في هذا المعنى ما ذُكر عن أبي عبد الله الرازي نزيل نيسابور رضي الله عنه قال: كساني ابن الأنباري[1] صوفاً، ورأيت على رأس الشبلي[2]

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد، كمال الدين، أبو البركات، ابن الأنباري النحوي، صاحب كتاب أسرار العربية، وغيره من التصانيف المفيدة التي تزيد على مئة مصنف. ولد في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمسمئة، تفقه ببغداد بالنظامية ثم انقطع في منزله إلى العلم والعبادة. قال الموفق عبد اللطيف: له مئة وثلاثون مصنفاً أكثرها نحو وبعضها في الفقه والأصول والتصوف والزهد. انتهى. ومن تصانيفه: «الانتصار في مسائل الخلاف»، و«أخبار النحاة» و«الجمل في علم الجدل»، و«ديوان اللغة»، و«شرح الحماسة»، و«شرح ديوان المتنبي»، و«نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، و«تاريخ الأنبار». توفي في شعبان سنة سبع ـ بتقديم السين ـ وسبعين وخمسمئة. (طبقات الشافعية الكبرى ٧: ١٥٥، وفيات الأعيان ٣: ١٣٩).

(٢) أحد مشايخ الصوفية، اختلفوا في اسمه على أقوال، فقيل: دلف بن جعفر، وقيل: دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، أصله من قرية يقال لها: شبلة من بلاد أشروسية من خراسان، وولد بسامراء، وكان أبوه حاجب الحجاب للموفق، وكان خاله نائب الإسكندرية. وكانت توبة الشبلي على يدي خير النساج، سَمِعَهُ يعظ فوقع في قلبه كلامه فتاب من فوره ثم صحب الفقراء والمشايخ ثم صار من أئمة القوم. قال الجنيد: الشبلي تاج هؤلاء، وقال الخطيب: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمود الزوزني، قال: سمعت علي بن المثنى التميمي يقول: دخلت يوماً على الشبلي في داره وهو يهيج ويقول:

عـلى بُعـدِكَ لا يَـصْبِـ ـرُ مَن عادتُـهُ القُـربُ
ولا يقـوى عـلى هجـرِ كِ مـن تيَّمَـه الحـبُّ
فـإن لم تـرَكَ العـينُ فـقد يُـبصِرُكَ القلـبُ

وقد ذُكر له أحوال وكرامات. ولما حضرته الوفاة قال لخادمه: قد كان علي درهم مظلمة فتصدقت عن صاحبه بألوف، ومع هذا ما على قلبي شغل أعظم منه، ثم أمره بأن يوضئه فوضأه، وترك تخليل لحيته، فرفع الشبلي يده ـ وقد كان اعتقل لسانه ـ فجعل يخلل لحيته. وذكره ابن خلكان في «الوفيات»: كانت وفاته رحمه الله تعالى ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة وله سبع وثمانون سنة، ودفن في مقبرة الخيزران ببغداد، والله أعلم. (سير أعلام النبلاء ١٥: ٣٦٧، البداية والنهاية ١١: ٢١٥).

رضي الله عنه قلنسوة طريفة تليق بذلك الصوف، فتمنيت في نفسي أن يكونا جميعاً لي، فلما قام الشبلي رضي الله عنه من مجلسه التفتَ إليَّ فتبعته، وكان من عادته إذا أراد أن أتبعه يلتفتُ إليَّ، فلما دخل دَارَهُ دخلت، فقال: انزع الصوف فنزعته، فلفه وطرح القلنسوة عليه ودعا بنار فطرحها فأحرقها. ومثل هذا مما كان ينكره عليه من لا يعرف مقصوده. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٢ـ (رُبَّما وَقَفَتِ القُلُوبُ معَ الأنوار، كما حُجِبَتِ النُّفُوسُ بكثائفِ الأغْيَار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: القلوب نورانية، فتحتجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف، والنفوس ظلمانية، فتحتجب بمحبتها لكثائف الأغيار الظلمانية من العادات والشهوات، فالقلوب محجوبةٌ بالأنوار، كما أنَّ النفوس محجوبة بالظلمات، والحق وراء ذلك كما قال أبو الحسن التستري رحمة الله تعالى عليه:

تَقيَّدْتَ بالأوهام، لـمَّا تَداخَلَتْ ... عليكَ، ونورُ القَلْبِ أوْرَثَكَ السِّجْنَا
وَهِمْتَ بِأنْوَارٍ فهِمْنَا أُصُولَهَا ... ومَنْبَعَهَا مِن أينَ كان فما هِمْنا
وقد تَحْجِبُ الأنوارُ لِلعَبْدِ مِثْلَما ... تبعِّدُ مِن أوْصافِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنا

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه عند قوله: «ربما وقفت القلوب مع الأنوار»: إذ هي مواطنها وعالمها، فتحتجب بها عن منوِّر النور وموجده، كما حُجِبَتِ النُّفوسُ بكثائف الأغيار، وهي: وجود عوالمها ومواطنها الحسية الكثيفة الظلمانية، فإنْ أردت أنْ تكون إبراهيمي المشهد فلا ترضَ بما سوى الله، ولا تقف مع ما يكشف لك عنه من الحالات، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] حتى إذا فَنِيتَ ولم تكنْ شيئاً بَقِيْتَ به، وصار المحْو عين الثبات؟ انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٣ ـ (ليسَ المُحِبُّ الذي يرجُو مِن محبُوبِـهِ عِوَضًا أو يَطلُبُ مِنه غَرَضاً، فإنَّ المُحِبَّ: مَن يَبذُلُ، ليسَ مَن يُبذَلُ لهُ).

قال القُشَّاشي رحمه الله تعالى في شرحه: المحبُّ هو الفاني في محبوبه، بحيث أن لا يرجو من محبوبه عوضاً عنه، فمتى تصور ذلك منه فهو دليل عدم حبه؛ لأنَّ الحبَّ للشيء ما كان دليل صدقه وتحقيقه أن يعمَىٰ ويصم، فلا يبصر ولا يسمع إلا محبوبه، فهذا دليل حبه، وإلا فليس بمحب؛ بل مدع بلا بينة، فلا يكون محباً حتى لا يرجو من المحبوب عوضاً، ولا يطلب منه غرضاً، فإن شأن المحب كما قال: «من يبذل» يعني: من يبذِل ماله ونفسه، ليس من يُبذل لـه ليتآلف بالبذل وطلب العوض. وهذه كلها ابتلاءات تعرض للسائرين، فيظهر عندها مقدار سيرهم ومنازلهم، وأدناها وأوسطها وأعلاها، فإنَّ كل شجرة لا بد لها من ثمرة، فهذه ثمرة الابتلاء عند السالكين السائرين إلى سوح رب العالمين. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: المحبة تقتضي من المحب بذل كلياته وجزئياته في مرضاة محبوبه، من غير طلب حظ يناله منه، فهذا مما يلزم وجود المحبة، كما قيل:

إنَّ المُحِـبَّ إذا أحَـبَّ حبيبَـهُ ... تَلقـاهُ يَبْـذُلُ فيـهِ مـا لا يُبـذَلُ

بل يرى ما فعل من ذلك غاية الحظِّ، وموافقةَ رضا محبوبه نهايةَ السعادة والبخت، كما قال أبو حفص عمر بن الفارض[1] رحمة الله تعالى عليه ورضوانه في قوله:

---

(١) هو: أبو حفص عمر بن علي بن رشد: أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين، أصله من حماة، وله ديوان شعر مطبوع، ومولده ووفاته في القاهرة، ولد سنة (٥٧٦هـ - ١١٨١م)، وتوفي سنة (٦٣٢هـ - ١٢٣٥م). «وفيات الأعيان»، و«الأعلام».

ما لي سِوَى رُوحي، وباذِلُ رُوحِهِ في حُبِّ مَن يَهْواهُ ليس بِمُسْرِفِ
فلَئِنْ رَضِيْتَ بِها فقد أسْعَفْتَني يا خيْبَةَ المَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ

ولذلك قيل: المحبة: الإيثار، وهو: أن لا يَدَعَ لمحبوبه ميسوراً إلا بذله، ولا ممكناً إلا استعمله، ولا يبقي لنفسه ولا لِحظِّه فرضاً ولا سنة، ولا يستثني من كل ما بذل له سمسمة. وأنشدوا:

لئن بَقِيَتْ في العينِ منّيَ قطرةٌ فإنّي إذاً في العاشقين دخيلُ

وقال أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: حقيقة المحبة: أن تهب كلَّك لمن أحببته، حتى لا يبقى لك منك شيء.

وقال أبو يعقوب السوسي رضي الله عنه: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى، وينسى حوائجه إليه، فهذا الذي ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية.

وأما رجاء العِوَض، وطلبُ الغَرَض، فهو حالُ مَن مَقامُهُ الرجاء، وليس مِن مقام المحبة المخصوصة في شيء. قال الشاعر:

مَن لم يكُنْ بِكَ فانياً عَن حَظِّهِ وعنِ الهَوَى والأُنسِ بالأحبابِ
فلأنَّهُ بَيْنَ المَراتِبِ واقِفٌ لِمَنالِ حَظٍّ أو لِحُسْنِ مَآبِ

وقال آخر:

ومَا أنا بالبَاغي عَلَى الحُبِّ رشوةً ضعيفُ هَوى يرجُو عَلَيْهِ ثَوابا

وقال أبو محمد رويم[1] رضي الله عنه: «من أحَبَّ العِوَض بغَّضَ العِوَضُ

---

(١) رويم بن أحمد البغدادي الشيباني، أبو محمد، ويقال له: أبو الحسين، صوفيٌّ، مفسر، مقرئ، فقيه =

إليه محبُوبَه»، وقيل: أوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام: «إنِّي إذا اطَّلعتُ على قلبِ عبدٍ فلمْ أجِدْ فيهِ حُبَّ الدُّنيا والآخرة ملأتُهُ بِحُبِّي».

وقال بعض المحبّين: كوشفت بأربعين حوراءَ رَأيْتُهُنَّ يتسَاعَيْنَ في الهواء، عليهِنَّ ثياب من ذهب وفضة وجوهر، يتخشخشن ويَتَثَنَّيْنَ، فنظرتُ إليهنَّ نظرة فعوقبت أربعين يوماً، ثم كُوشِفْتُ بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهنَّ في الحُسْنِ والجمال، فقيل لي: انظُر إليهنَّ، فسجدتُ وغمضت عيني في سجودي؛ لئلا أنظر إليهنَّ، وقلتُ: أعوذ بك مِمَّا سِوَاك، لا حاجة لي بهنَّ، فلم أزل أتضرع إلى الله تعالى حتى انصرفن عني.

وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم[١] رضي الله عنه قال: قال لي «ميسرة الخادم» رضي الله عنه: غزونا في بعض الغزوات، فإذا فتى إلى جانبي، وإذا هو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، ثم حمل على الميسرة حتى ثناها، ثم حمل على القلب حتى ثناه، ثم أنشأ يقول:

أحْسِنْ بِمَوْلاكَ سَعِيدُ ظَنَّا ... هذا الَّذي كنتَ لهُ تَمَنَّى
تَنَحَّ يا حُورَ الجِنَانِ عَنَّا ... ما لكِ قاتَلْنا ولا قُتِلْنا
لكِنْ إلى سَيِّدِكُنَّ اشتَقْنا ... قد عَلِمَ السِّرَّ وما أعْلَنَّا

قال: فحمل، فقاتل، فقَتَلَ منهم عدداً، ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو، فحمل في الناس، وهو يقول:

= على مذهب داود الظاهري، مات سنة ٣٠٣هـ. من آثاره: «غلط الواجدين». معجم المؤلفين (٤: ١٧٦)، صفة الصفوة (٢: ٤٤٢).

(١) هو: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠هـ وهو المحدث الشهير وصاحب كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

قد كنتُ أرجُو ورَجائي لم يَـخِبْ أنْ لا يَضِيْعَ اليـومَ كَـدِّي والتَّعَـبْ
يا مَن مَلا تلـكَ القُـصُورَ باللُّعَـبْ لولاك ما طابَتْ ولا طابَ الطَّرَبْ

فحمل، فقاتل، فقَتَل منهم عدداً، ثم رجع إلى مصافّه، فتكالب عليه العدو، فحمل في الثالثة، ثم أنشأ يقول:

يا كعبةَ الخُلْدِ قِفِـي ثُـمَّ اسْـمَعي ما لَـكِ قاتَلْنـا فكُفِّـي وارْجِعِـي
ثُمَّ ارجِعِي إلى الجِنَـانِ وأسْرِعِـي لا تَطْمَعِي لا تَطْمَعِي لا تَطْمَعِـي

ثُمَّ حَمَلَ، فقَاتَلَ حتَّى قُتِلَ رضي الله عنه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٤ـ (كيفَ تَطلُبُ العِوضَ علَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْك! أم كيفَ تَطلُبُ الجَزاءَ علَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إلَيْك!).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: العمل الذي يصحُّ طلبُ العوض والجزاء عليه هو: ما عملته لينتفع به غيرُكَ، ولم يحصل لك بذلك منفعة، ولم يندفع عنك بسببه مضرَّة.

والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهراً وباطناً بخلاف هذا كله؛ إذ هي مسلوبة عنك، منسوب إلى ربك خلقُها واختراعها، عائدةٌ ثمرة ذلك ومنفعته عليك في ظاهرك وباطنك، وهو غنيٌّ عنك وعنها، ولذلك عبَّر عنها بالتصدق والإهداء تنبيهاً على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك.

فطلبُ العوض والجزاء إذاً ـ على عمل هذه صفته ـ في غاية القبح، ولذلك صدَّر المؤلف رحمه الله تعالى كلامه بـ«كيف» ليُعَجِّبَكَ من ذلك الوصف.

قال الواسطي رضي الله عنه: «مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل».

وسئل ابن عطاء[١] رضي الله عنه عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالى فقال: «رؤية النفس وأفعالها، وأشدُّ من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها». واستعمال المصنف رحمه الله تعالى لفظ: «الصَّدقة» في الأعمال الظاهرة، ولفظ «الهدية» في الصدق، وعليه مدار الأعمال الباطنة، إشعارٌ بتباينهما في الشرف، كتباين الصدقة والهدية. انتهى.

* * *

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، توفي سنة (٣٦٩هـ ٩٧٩م)، شيخ الشام في وقته، مات في صور (في جنوب لبنان) وهو ابن أخت الشيخ أبو علي محمد الروذباري. ومن كلامه رحمه الله: (أقبح من كل قبيح صوفي شحيح). (الرسالة ٤١٥).

باب العزلة

هذا (باب) بيان (العزلة).

قال الإمام القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته»: ولا بدّ للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ـ أي: عن الناس، ليبعد عما طُبِعُوا عليه من الأخلاق الردية، والأعمال الذميمة ـ ومن حق العبد إذا آثر العزلة على الخلطة أن يعتقد ـ باعتزاله عن الخلق ـ سلامةَ الناس من شره، ولا يعتقد سلامته من شر الخلق، فإنَّ الأول من هذَيْن القسمَيْن: نتيجة استصغار نفسه، ومعرفته بآفاتها، وسوء أخلاقها، والثاني منهما: شهود مزيته ـ أي: فضيلته ـ على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحد؛ بأن تعاظم بها واستصغر غيره، فهو متكبر.

ومن آداب العزلة: أن يحصِّل العبدُ قبل اعتزاله من العلوم ما يصحح به عقد توحيده؛ لكيلا يستهويه الشيطان ـ أي: يطلب عند انفراده أن يتبع هواه ـ بوساوسه في إيمانه، وسائر طاعاته، ثم بعد تحصيله ذلك، يحصِّل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه ونفله؛ ليكون بناءُ أمره على أساس محكم، أي: متقن، فمتى اختل اعتقاده، أو علمه في الأحكام، وقع فيما لا ينبغي.

والعزلة في الحقيقة: اعتزال الخصال المذمومة، والاتصاف بالحميدة، وإن اختلط بالناس؛ لأنه حينئذ لا يضره الناس ولا يتضرر بهم؛ لعفوه عما يبدو منهم؛

لعلمه ببراءتهم منه وببراءته من الاتصاف بالخير إلا بعون الله تعالى، فالتأثير، أي: فتأثير العزلة، إنَّما هو لتبديل الصفات لا للتنائي ـ أي: التباعد عن الأوطان ـ ولهذا قيل: من العارف بالله؟ قالوا: كائن بائن، يعني: كائن مع الخلق بالظاهر، بائن عنهم بالسر، أي: فيما بينه وبين الله.

ومنهم من يعبِّر بقوله: كائن بجسمه مع الخلق، بائن عنهم بشغله مع الحق؛ من الإخلاص والتعظيم والإجلال والتفكر ونحوها. انتهى ملخصاً من «الرسالة» المذكورة مع شرحها لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري[1] رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٥ـ (ما نَفَعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزْلةٍ يَدخُلُ بها مَيْدانَ فِكْرة).

قال الإمام الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: لأن بالعزلة يسلم من الخلائق، وبالفكرة تتبين لـه الحقائق، فيستفيد علماً بربه، وبنفسه.

والناس في العزلة ثلاثة:

---

(١) هو شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى. قاض، مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر) سنة ٨٢٣ هـ وتعلم في القاهرة، وكف بصره سنة (٩٠٦ هـ). نشأ فقيراً معدماً، قيل: كان يجوع في الجامع فيخرج بالليل يلتقط قشور البطيخ فيغسلها ويأكلها. وكما ظهر فضله تتابعت إليه الهدايا والعطايا، بحيث كان له قبل دخوله في منصب القضاء كل يوم نحو ثلاثة آلاف درهم، فجمع نفائس الكتب وأفاد القارئين عليه علماً ومالاً. وولاه السلطان قايتباي الجركسي (٨٢٦ – ٩٠١هـ) قضاء القضاة، فلم يقبله إلا بعد مراجعة وإلحاح. ولما ولي رأى من السلطان عدولاً عن الحق في بعض أعماله، فكتب إليه يزجره عن الظلم، فعزله السلطان، فعاد إلى اشتغاله بالعلم إلى أن توفي سنة (٩٢٦هـ). له تصانيف كثيرة. (الأعلام ٣: ٤٦).

معتزل ليسلم، وشرطه: سلامة المسلمين من سوء ظنه.

ومعتزل ليغنم، وشرطه: ملازمة الصمت، والجوع، والسهر.

ومعتزل لينعم، وعزلة السر في هذا أتم، مع التحرز من موارد الغلط، ومظانِّ الهلكة.

وشرط في كلها عدم احتياج الناس إليه، واحتياجه إليهم في دين أو دنيا، وإلا منعت، وملازمة السنة والجماعة، فإنها العصمة الدافعة لكل نقمة.

وإنما شرط المصنف الفكرة؛ لأنَّ كل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها، وكل فكرة على غير عزلة لا يتم غالب أمرها.

وقال أبو الحسن الحجازي رحمه الله: العزلة عزلتان: عزلة للسالك المبتدي، وهي بالجسم عن الأغيار، وعزلة لأهل النهايات المحققين، وهي بالقلوب عما سوى الله تعالى، فإذا اعتزل السالك أولاً عن الأغيار، وتوجه بقلبه إلى حضرة رب الأرباب، اطلع على عجائب الملكوت، وفهم عن الله، وليس نتيجةٌ أبلغَ من هذا، ولا نفع أبلغ منه، وما دام القلب تحت غطاء الكون: لا يشهد شيئاً من هذه الأسرار، ولا تشرق فيه شموس الأنوار. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: مداواةُ أمراض القلب واجبة على المريد، وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد، ووقوفه مع المعتاد، وانقياده إلى هوى النفس، وأنسه بعالم الحسِّ.

ومداواة هذا المرض تتأتى من وجوه كثيرة، وأبلغها في ذلك وأنفعها: العزلةُ عن الناس المصحوبةُ بالفكرة، فبالعزلة يتقيَّد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته، ومن لا يأمن من دخول الآفات عليه بصحبته، فيتخلَّص بذلك المعتزل من المعاصي التي يتعرض لها بالمخالطة مثل: الغيبة، والمداهنة، والرياء، والتصنع،

ويتحصَّل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الردية، والأخلاق الدنية، ويستفيد أيضاً بذلك صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات، وأنواع الشرور والفتن، فإنَّ للنفس تولُّعاً وتسارعاً إلى الخوض في أمثال هذا، فوجب على المعتزل أن يكفَّ لسانه عن السؤال عن أخبار الناس، وما هم مشغولون به، ومنهمكون فيه، ومنكبُّون عليه، ويصونَ سمعه من الإصغاء إلى أراجيف[١] البلد، وما اشتملت عليه من الأحوال التي ذكرناها، وليحرص على أن لا يَغْشاهُ في عزلته وخلوته من شأنه التطلع إلى ذلك والبحث عنه، وليجتنب صحبة من لا يتورع في منطقه، ولا يَضْبط لسانه عن الاسترسال في دقائق الغيبة، والوقيعة، والتعريض بالطعن على الناس، والقدح فيهم؛ فإن ذلك مما يكدِّر صفاء القلب، ويؤدي إلى ارتكاب مساخط الرب، فليهجره المعتزل، وليفرَّ منه فراره من الأسد، ولا يجتمع معه في مكان البتَّة، وليتنكَّر إلى كلِّ من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين فضلاً عن غيرهم، كما قال بعضهم: «أنكِرْ مَن تعرف، ولا تتعرَّف إلى من لا تعرف». وفي الخبر: «مثل الجليس السوء كمثل الكير[٢] إن لم يحرقك شرره علق بك من ريحه»[٣]. وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود في هذا المعنى:

فخَفْ أبناءَ جِنْسِكَ واخْشَ مِنْهُمْ كما تَخْشَى الضَّراغِمَ والسَّبَنْتا[٤]
وخالِطْهُمْ وزايِلْهُمْ حِذاراً وكُنْ كالسَّامِرِيِّ إذا لَمَسْتا

---

(١) الأراجيف: الأخبار المختلقة الكاذبة السيئة.

(٢) الكير، بالكسر: زق الحدّاد ينفخ به، ويكون أيضاً من جلد غليظ.

(٣) رواه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ورواه أبو داود والحاكم عن أنس.

(٤) الضراغم: الأسود. والسبنتا: النمر، والجمع: سبانت وسبات.

وبالعزلة أيضاً يجتمع همُّه، ويقوى في ذات الله عزمُه، بخلاف الخلطة، فإنها تفرِّق الهم، وتضعف العزيمة، وقد قيل: «إنّ العبد ليعقد في خلوته على خصال من الخير يعملها، فإذا خرج إلى النَّاس حلُّوا عليه ذلك العقد عقدةً عقدة، حتى يرجع إلى بيته وقد انحلت العقد كلها».

وقال بعض أهل هذه الطائفة: «قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله تعالى: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإنَّ النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بدَّ لي منهم! قال: فلا تسمع كلامهم، فإنَّ كلامهم قسوة، قلت: لا بدَّ لي! قال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم فلا بدَّ لي من معاملتهم! قال: فلا تسكن إليهم، فإنَّ السكون إليهم هلكة. قلت: هذا لعلَّهُ! قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطَّالين، وتسكن إلى الهالكين، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة، وقلبُك مع غير الله عز وجل؟ هيهاتِ هيهات! هذا ما لا يكون أبداً.

وبالعزلة أيضاً، ينكفُّ بصره عن النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها، وينصرف خاطره عن الاستحسان لما ذمَّه الله تعالى من زخرفها، وتمتنع بذلك النفس عن التطلُّع إليها، والاستشراف لها، ومنافسة أهلها فيها. قال الله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

ولا ينبغي لأحد أنْ يَسْتَحْقِرَ هذا؛ فإنَّه يؤدي إلى أمراضٍ عظيمة في القلب، ومن اعتزل النَّاس سَلِمَ بإذن الله تعالى منها.

قال بعض الأدباء: «من كثرت لحظاته[1] دامت حسراته».

---

(١) أي: نظراته.

وقالوا: إنَّ العَيْن سبب الحَيْن[١]، ومن أرسل طَرْفَه[٢] اقتنص حتفَه، وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب، وأنشدوا في هذا المعنى:

وإنَّك إنْ أرْسَلْتَ طَرْفَكَ رائِداً لِقلبِكَ يوماً أتْعَبَتْكَ المَناظِرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّهُ أنتَ قادِرٌ عَلَيْهِ، ولا عن بَعْضِهِ أنتَ صَابِرُ

وبذلك ينقطع طمعه عن الناس، ويحصل له منهم الياس، وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الأكياس.

ولا تتم له منفعة العزلة إلَّا باشتغال القلب بالفكرة، وهي المقصودة ها هنا، وكانت العزلة مقدِّمة لها، ومعينة عليها، وذلك بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهرة، والقيام بمراعاة آدابه الباطنة. وقد ذكر منها الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه جملة شافية في كتاب العزلة من «الإحياء»، فلتنظر هناك.

وقد جاء في الخبر: «تَفكُّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[٣]، كذا هو. والله أعلم.

وكان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «طُوبى لمن قولُهُ ذِكْر، وصَمْتُهُ فِكْر، ونَظَرُه عِبْرة، إنَّ أكيسَ النَّاس مَن دان[٤] نفسَه وعمِلَ لما بعدَ الموت».

---

(١) الحَيْن: (بالفتح): الهلاك، ومنه المثل: «إذا حان الحين، حارت العين». (المعجم ١: ٢١١).

(٢) عينه، أي: نظره.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٨٩٧) من رواية أبي الشيخ في العظمة، ولفظه: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة»، ورمز لضعفه.

(٤) أي: حاسَبَ.

وقيل لأم الدرداء: ما كان أفضلُ عمل أبي الدرداء؟[١]، قالت: التفكر.

وذلك لأنَّه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء، ويتميز الحق من الباطل، والنافع من الضار، ويطَّلع به أيضاً على خفايا آفات النفس، ومكائد العدوِّ، وغرور الدنيا، ويتعرَّف به وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: «الفكرة مرآة تُريك حَسَنَك من شَيْنك، وتطلع بها أيضاً على عظمة الله وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، ويتطلع بها أيضاً على آلائه ونعمائه الجليَّة والخفية، فيستفيد بذلك أحوالاً سنية، يزول بها أمراض قلبه، ويستقيم بها على طاعة ربه».

والعزلة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، تتضمن وجود الخلوة، وهي أحد الأركان الأربعة التي هي أساس المريدين، ويلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت، إذ لا يتأتى من أكثر الناس إلا بالخلوة والعزلة، فإن أضاف إليهما المريد الركنَيْن الباقيَيْن، وهما: الجوع والسهر، فقد حصل على كلية الدواء، والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «اجتمع الخير كله في هذه الأربع الخصال، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص[٢] البطون، والصمت، والخلوة، والسهر. قال الشاعر وجمعها في نظمه:

---

(١) هو: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وفي الحديث: «عويمر حكيم أمتي» و«نعم الفارس عويمر»، وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، له في الصحيحَيْن ١٧٩ حديثاً، توفي سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م).

(٢) الإخماص: الجوع.

يــا مَــن يُريــدُ مَنــازِلَ الأبــدالِ ... مِــن غــيرِ قَــصْدٍ مِنــهُ للأعــمالِ
لا تَطْمَعَــنْ فيهــا فلسْتَ مــنَ اهْلِهــا ... إن لم تُــزاحِمْهُمْ عــلَى الأحــوالِ
واصْمِتْ بِقَلْبِكَ واعْتَزِلْ عَن كُلِّ مَن ... يُــدنِيْكَ مِــن غــيرِ الــحبيبِ الــوَالِي
فإذا سَهِرْتَ وجُعْتَ نِلْتَ مَقامَهُمْ ... وصَــحِبْتَهُمْ في الحَــطِّ والتِّرْحَــالِ
بَيْــتُ الوِلايــةِ قُــسِّمَتْ أركانُــهُ ... ســاداتُنا فيــهِ مــنَ الأبــدالِ
مــا بَــيْنَ صَــمْتٍ واعتِــزالٍ دائــم ... والجُــوع والــسَّهَرِ النَّزِيــهِ العَــالي

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٦ ـ (ادْفِنْ وُجُودَكَ في أَرضِ الخُمُولِ، فما نَبَتَ مِمَّا لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتاجُه).

قال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى: أراد رضي الله عنه بهذه المقالة تجريدك عنك، ودوام الإخلاص لك، فإنَّه ما دام السالك ملتفتاً إلى مقام، أو حالة، أو شهرة، لا يصلح لمقام المحبة، الذي هو أعلى المقامات، وإلى هذا المعنى أشار العارف الكبير سيدي أرسلان[1] الدمشقي رضي الله عنه بقوله: «ما صلحتَ ما دام فيك بقية لسواه، فمن كان فيه بقية لا يتم نتاجه؛ لأنَّ الفقير: مَن تجرد عن الصور الحسية والمعنوية، وحجب عن الأغيار، واحتَجَبَتْ عنه بالكلية». انتهى.

---

(١) هو: الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله الجعبري الأصل، الدمشقي الدار، ويعرف بالشيخ النشار الزاهد، القدوة رضي الله عنه، عاصر الإمام عبد القادر الجيلاني، عاش نيفاً وثمانين عاماً. وكلمة أرسلان تركية، معناها: (الأسد).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان ورعاً قانتاً، صاحب أحوال ومقامات، كان يتعبد بمسجد داخل باب توما جوار بيته. وقال عنه: «هو الشيخ الزاهد العابد بقية المشايخ. ولد عام ٤٦١هـ وتوفي عام ٥٤١هـ». «الأعلام للزركلي»، و«سير أعلام النبلاء» (٢: ٣٧٩).

وقال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: وإنما يحصلُ العبد على حقيقة الصدق إذا فقد الشهرة، وآثر الخمول، فلذلك قال: ادفن وجودك في أرض الخمول، التي هي أحد ثلاثة أشياء:

أحدها: أن ترى ما جُبِلْتَ عليه من التقصير فلا تعبأ بشيء يظهر منك؛ لعلمك بدسائسك وخبائث نفسك.

الثاني: أن تنظر إليك من حيث أنت، فلا ترى لائقاً بك إلّا النَّقْصَ، وتنظر إلى مولاك فتراه أهلاً لكل كمال، فكُلَّما يصدر لك من إحسانه نسبته إليك اعتباراً بما أنت عليه من خمول الوصف.

الثالث: أن تُظهر لنفسك ما يوجب نفي دعواها من مباح مستبشع، أو مكروه لم يمنع دواءه لعلة العُجب، لا مُحَرَّماً متفقاً عليه، إذ كما لا يصح دفن الزرع في أرض ردية، لا يجوز الخمول في حالة غير مرضية. ثم الزرع قسمان بعد نباته: فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه وإن ظهر نوره وابتهاجه، وما دفن تم نتاجه؛ لأنَّ التغير الهوائي مُسرعٌ لكل ظاهر حسبما اقتضته سنة الله تعالى. والناس ثلاثة: محب للشهرة، وكاره لها، ومسلم لأمر مولاه، وما صَدَقَ اللهَ عبدٌ أحب الشهرة.

وقال بعضهم: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل.

وقال أيوب السختياني[1] رضي الله عنه: «ما صدق عبدٌ إلا سرَّه ألا يُشْعر بمكانه».

---

(١) هو: ابن كيسان، فتى الفتيان وسيد العباد والزهاد. كان فقيها محجاجاً. جاء أبو قلابة رضي الله عنه إلى الحسن رضي الله عنه يستودعه كتبه، فقال: أودعها سبط الفتيان أبا أيوب. وذكر عند أبي حنيفة رضي الله عنه فقال: شاهدت منه مقاماً عند منبر المصطفى ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي، مات سنة (١٣١هـ) عن ثلاث وستين سنة. (الشذرات ١: ١٨١، والطبقات للسلمي ص٤٥٢، وطبقات الصوفية للمناوي ١: ١٦٤).

وقال الشيخ أبو العباس المرسي[1] رضي الله عنه: «من أراد الظهور فهو عبد الظهور، ومن أراد الخفاءَ فهو عبد الخفاءَ، وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه، ثم المعين على الخمول أيضاً هو معرفة العبد نفسه بكونها محل كل عيب، ومعدن كل نقص وريب». انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: لا شيء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصِّيت؛ لأنَّ ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ، ومحبة الجاه، وإيثارُ الاشتهار مناقض للعبودية التي هو مطالب بها.

وقال رجل لبشر بن الحارث[2] رضي الله عنه: أوصني، فقال: «أخمل ذكرك، وأطب مطعمك».

وقال بشر رضي الله عنه: «ما أعْرِفُ رجُلاً أحبَّ أن يُعرف إلا ذهب دينُه وافتضح».

وقال أيضاً: «لا يجدُ حلاوةَ الآخِرةِ رجل يحب أن يعرفه الناس».

ثم إنَّ محبة الاشتهار مما يقدح في إخلاص العبد؛ لأنه بذلك لا ينفك عن الأغراض التي تبعثه على استمالة قلوب الخلق فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاءً خفياً،

---

(١) أبو العباس المرسي ولد في بلدة (مرسية) سنة ٦١٦هـ - ١٢١٩م، يتصل نسبه بالأنصار. نشأ على الصلاح والتقوى، اتصل بالإمام أبي الحسن الشاذلي، وتلقى عنه حتى صار ثاني خلفاء الطريقة الشاذلية، مات سنة ٦٨٦هـ بالإسكندرية.

(٢) هو: أبو نصر، بشر بن الحارث الحافي، ولد سنة (١٥٠هـ - ٧٦٧م) في «مرو» وسكن بغداد، ومات بها سنة سبع وعشرين ومئتين، وصحب الفضيل بن عياض، ورأى سرياً السقطي. ومن كلامه: «الدعاء ترك الذنوب»، ومنه: «إن لم تطع فلا تعص». (الرسالة القشيرية ١: ٦٨).

فينطبع عمله بالرياء انطباعاً لا يتفطن له، وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الإخلاص، حتى تتخلَّص بذلك من رؤية إخلاصك، وبهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس إلا من رحم الله تعالى، وأنَّ الإخلاص في غاية الصعوبة على النفس، وأنه أعز الأشياء في الوجود.

فإذا أخمَلَ العبدُ نفسَهُ، وألزمها التواضُعَ والمذلَّة، واستمر على ذلك حتى صار له خُلُقاً وجِبِلَّةً، بحيث لا يجد لضعته ألماً، ولا لمذلته طعماً، فحينئذ تتزكَّى نفسُه، ويستنيرُ بنور الإخلاص قلبُه، وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية، ويحصل على أوفى نصيب من المحبة الحقيقية.

فإذاً لا بد للمريد من إسقاط جاهه، وإخمال ذكره، وفراره من موضع اشتهاره، وتعاطيه أموراً مباحةً تُسقطه من أعين الناس، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه، فجاء إليه، فلما علم السائح بذلك استدعى بَقْلاً وجعل يأكله أكلاً عنيفاً بمرأىً من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره وانصرف عنه ذامّاً لـه.

فإذا لزم العبد هذه الطرق من الرياضة ماتت نفسُه، وحييَ قلبه، وقرب من حضرة ربه، واجتنى ثمرة غرسه، على غاية الكمال والتمام، وتلك الثمرة أخلاق الإيمان التي تكيفت[1] بها نفسُه، وصارت كصفات ذاتية له، وهي نتيجة الحكمة، أنبتها الله تعالى في قلوب عباده المتواضعين، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، فقال عليه السلام: كذلك الحكمة لا تنبت إلاَّ في قلبٍ مثل الأرض.

---

(١) تكيفت: تخلقت.

وقد ورد عن النبي ﷺ في مدح الخمول وذم الشهرة أحاديثُ كثيرة، منها:

ما روى أبو أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقولُ اللهُ عز وجل: إنَّ أغْبَطَ أوْلِيائي عندِي المؤمِنُ خَفِيفُ الحَاذِ[١]، ذُو حَظٍّ منَ الصَّلاةِ[٢]، أحسَنَ عبادةَ ربِّه، وأطاعَهُ في السِّر، وكان غامِضاً في النَّاسِ[٣]، لا يُشَارُ إليه بالأصَابع، وكان رِزْقُهُ كَفَافاً، فصَبَـرَ علَى ذلكَ»، ثُمَّ نَفَضَ يَدَهُ فقال: «عَجِلَتْ مَنِيَّتُهُ[٤]، وقلَّت بَواكيه[٥]، و قَلَّ تُراثُه[٦]»[٧].

---

(١) أي: قليل، خفيف الظهر من الأهل والعيال.

(٢) أي: ذو راحة في مناجاة الله فيها واستغراقه في المشاهدة.

(٣) أي: مغموراً غير مشهور فيهم.

(٤) أي: أسرع هلاكه لقلة تعلقه بالدنيا وكثرة شغفه بالآخرة.

(٥) لقلة عياله وهوانه على الناس، وعدم احتفالهم به.

(٦) لأنه لم يتعلق بالمال فيخلفه بعده فيكون ميراثاً.

فهؤلاء هم الرجال الذين حلُّوا من الولاية أقصى درجاتها، قد صانهم الله وحبسهم في خيام صون الغيرة، وليس في وسع الخلق أن يقوموا بها لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلوّ منصبهم.

(٧) قال العراقي: رواه الترمذي وابن ماجه بإسنادَيْن ضعيفَيْن.

قلت: ورواه أحمد والطيالسي والطبراني وأبو نعيم في «الحلية» والحاكم والبيقهي، وهو من رواية علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، وهم ضعفاء.

وقال الذهبي عقب تصحيح الحاكم له: بل هو إلى الضعيف مائل.

وأخرج مسلم في «صحيحه»: أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً من المدينة، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب. فلما أتاه، قال: يا أبتِ، أرَضِيت أن تكون أعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدره وقال: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «إن أغبط أوليائي عندي..» وساقه. (إتحاف السادة المتقين للزبيدي).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعَثَ أغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ[١] تَنْبُو عنهُ أَعْيُنُ النَّاسِ، لو أقْسَمَ علَى اللّـهِ لأَبَرَّه»[٢].

وروى معاذ بن جبل[٣] رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ يَسِيراً مِنَ الرِّياءِ شِرْك، وإنَّ مَن عَادَى أولياءَ اللّـهِ فقد بارَزَ اللهَ بالمُحارَبة، وإنَّ اللهَ عزَّ وجَلّ يُحِبُّ الأخْفِياءَ الأتْقِياء، الَّذينَ إذا غابُوا لم يُفْقَدُوا، وإذا حَضَرُوا لم يُدْعَوا ولم يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُم مَصابِيْحُ الهُدى، يَخْرجُونَ مِن كُلِّ غَبْراءَ مُظْلِمة»[٤].

وتعبير المؤلف رحمه الله تعالى ههنا بالدفن، والأرض، والنبات، والنتاج، من مليح الاستعارات. انتهى.

---

(١) الطمر: الثوب الخلق. والرجل الأشعث: المتلبد الشعر لقلة تعهده بالدهن والنظافة.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة (٤: ٣٢٨) وقال: صحيح الإسناد وأظن مسلماً أخرجه من حديث حفص بن عبد الله. ووافقه الذهبي. ورواه أبو نعيم في الحلية (١: ٣٥٠) عن البراء ابن مالك. وفي معناه مسلم (١٦٢٢) عن أبي هريرة، وأحمد عن أنس: «ربَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أويس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، أسلم وهو فتى، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن، وأرسل معه كتاباً إليهم يقول فيه: «إني بعثت لكم خير أهلي»، فبقي في اليمن إلى أن توفي النبي ﷺ وولي أبو بكر فعاد إلى المدينة، ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام، له في الصحيحَيْن ١٥٧ حديثاً، ولد سنة ٢٠ قبل الهجرة ٦٠٣م، وتوفي سنة (١٨هـ - ٦٣٩م). طبقات ابن سعد (٣)، والأعلام (٣: ١٠٥٠).

(٤) قال العراقي: رواه الطبراني والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيف! فيه عيسى بن عبد الرحمن الزرقي متروك. انتهىٰ. وروى أبو نعيم في الحلية من حديث ثوبان: «طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء».

قال رحمه الله تعالى:

٢٧ ـ (سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلاَّ مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، ولَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلاَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: لا دليلَ على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره، وكذلك أولياؤه.

ولمَّا كان الوصول إلى الله تعالى، لا يكون إلاّ بالعناية والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلب أو بسبب، كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه، كذلك لمَّا خلع عليهم الخِلَع العظيمة، وتولاهم بمنَّته الجسيمة، واصطفاهم لنفسه، واختصَّهم بمحبته وأنسه، وطهَّر سرائرهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار، فكانوا لذلك صفوته في عباده، وخباياه في بلاده، فلم يجعل لأحد دليلاً عليهم إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه؛ لأنه يُلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويظهرهم بما يُحقِّرهم في أعين الخواصِّ والعوام، فأنى يكون لأحد دليل عليهم، أو وصول بسببٍ إليهم؟

قال في لطائف المنن: «فأولياء الله تعالى أهلُ كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم».

قال: وسمعته ـ يعني شيخه أبا العباس المرسي رضي الله عنه ـ يقول: «معرفة الوليِّ أصعب من معرفة الله تعالى، فإنَّ الله تعالى معروفٌ بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب!». وقال فيه: «وإذا أراد الله تعالى أن يُعرِّفك بوليٍّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته». انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: ولما كان أولياء الله تعالى لهم الخصوصية بما أمدهم به الحق من القرب والتمكين، والرسوخ في مقام اليقين، فحجبهم عن العباد غيرةً عليهم، فلا يطلع على أسرارهم غيره، ولا يُظهر لهم مقاماً ولا حقيقة أحوال، وإن ظهروا ظهروا من حيث العلم والدليل، لا من حيث الكشف والاطلاع.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لو كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟! انتهى.

قال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه عند قول المصنف: «ولم يوصِل إليهم إلا مَن أراد أن يوصِلَه إليه»، قال: لأنهم لا يعرفون أحداً إلا دلّوه عليه، وكيف لا وهم أهل الفضل والكمال، وأعين الحق في عباده بكل حال، «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»، فإذا كان الإيمان بطريقهم ولاية، فكيف بمعرفتها؟ وإذا كانت معرفتها كذلك فكيف بصحبتهم؟ وإذا كانت صحبتهم كذلك فما ظنك بمخالطتهم؟ وإذا كانت مخالطتهم كذلك فما ظنك بالسلوك على منهاجهم؟

قال في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، تُطْوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألْقَيْتَ إليه القياد، فسَلَكَ بك سبيلَ الرَّشاد، يُعَرِّفُكَ برعونات نفسك، وكمائنها ودفائنها، ويَدُلُّكَ على الجمع على الله، ويُعَلِّمُكَ الفرار مما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتَّى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فتفيدك معرفةُ نفسك الهربَ منها، وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر بين يديه، فإنْ قلت: أين مَن هذا وصفه؟ لقد

دلَلْتَني على أغرب من عنقاء مغرب! فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين على الله، وإنما يعوزك وجود الصّدق في طلبهم، جِدَّ صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في آيتَيْن من كتاب الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم إلى ولدها إذا فقدَتْه، لوجدت الحق منك قريباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولوجدت الحق بتيسير ذلك إليك. انتهى.

* * *

باب رعاية الوقت

هذا باب رعاية الوقت، بالمبادرة إلى اغتنام الازدياد من الخير فيه، وعدم التسويف بطول الأمل. وقد ورد الترغيب في ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغْتَنِمْ خمساً قبْلَ خمس: شَبابَكَ قبْلَ هَرَمِك، وصِحَّتَكَ قبْلَ سَقَمِك، وفَراغَكَ قبْلَ شُغْلِك، وغِنَاكَ قبْلَ فَقْرِك، وحَياتَكَ قبْلَ مَماتِك»[١].

وقال ﷺ: «كُنْ في الدُّنْيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سَبيلٍ، واحْسِبْ نَفْسَكَ مِن أهلِ القُبُور، وإذا أصبَحْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالمَسَاء، وإذا أمْسَيْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالصَّباح، وخُذْ مِن حَياتِكَ قبْلَ مَوْتك، ومِن صِحَّتِك قبْلَ سَقَمِك»[٢].

وفي الخبر: «ما مِن ساعةٍ تأتي على العبدِ لا يَذكُرُ اللّـهَ تعالى فيها إلّا كانت عليه حَسْرة»[٣].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤: ٣٠٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخَيْن ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠٢٤٨) عن ابن عباس. ورواه أبو نعيم في الحلية (٤: ١٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٠) عن عمر بن ميمون مرسلاً. ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير (١٢١٠).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٣٦٩)، ورواه أحمد (٢: ٢٤ و٤١)، وابن ماجه (٤١١٤)، وابن حبَّان (٦٩٨)، وغيرهم.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٨٠): رواه =

ويُقال: إن العبد تُعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة، أربعاً وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيماً ولذةً وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزائنه في ساعاته في الدنيا من الحسنات، فيسره ذلك ويغتبط به، فإذا مرت به ساعة في الدنيا لم يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزانة فارغة، لا عطاء فيها ولا جزاء عليها، فيسوؤه ذلك ويتحسر كيف فاته، حيث لم يدّخر فيها شيئاً، فيرى جزاءه مدخراً، ثم يُلقى في نفسه الرضا والسكون.

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: «أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم».

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: «الوقت إذا فات لا يستدرك».

وقال عيسى عليه السلام: «الدنيا ثلاثة أيام: أمس مضى ما بيدك منه شيء، وغدٌ لا تدري أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه».

والأخبار والآثار فيها ذكر كثيرة لا تنحصر، فالواجب على العبد أن يغتنم ما بقي من عمره، ويتداركه بالأعمال الصالحة قبل حلول أجله، وليستعن على ذلك بتقصير أمله.

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في منهاج العابدين: واعلم أنَّك إذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء، **أحدها**: ترك الطاعة والكسل عنها، تقول: سوف أفعل، والأيام بين يديَّ ولا يفوتني ذلك.

= الطبراني في الأوسط، وفيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك. ورواه أبو نعيم في الحلية (٥: ٣٦١، ٣٦٢) وقال: غريب من حديث عمرو. وإبراهيم تفرد به ابن علاثة. وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ولفظه: «ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حَسِر عليها يوم القيامة»، ورمز لضعفه.

والثاني: ترك التوبة وتسويفها، تقول: سوف أتوب، وفي الأيام سَعَة، وأنا شاب، وسِنِّي قليل، والتوبة بين يديَّ، وأنا قادر عليها، فربما يغتاله الحِمَام على الإصرار، فيختطفه الأجل قبل إصلاح العمل.

والثالث: الحرص على الجمع، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، تقول: أخاف الفقر في الكبر، وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر.

وهذا ونحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، والاهتمام بالرزق، تقول: أيش آكل؟ وأيش أشرب؟ وأيش ألبس؟ وهذا الشتاء، وهذا الصيف، وما لي شيء، ولعل العمر يطول وأحتاج، والحاجة مع الشيب شديدة، ولا بد لي من قوت وغنية عن الناس، هذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا، والرغبة فيها، والجمع لها، والمنع لما عندك منها، وأقل ما في الباب يشغل قلبك، ويضيع عليك وقتك، ويكثر همك وغمك بلا فائدة، ولا طائل.

والرابع: القسوة في القلب، والنسيان للآخرة، لأنك إذا أمّلت العيش الطويل، لا تذكر الموت والقبر، فإذاً يصير فكرك ومعظم قلبك في حديث الدنيا، وأسباب العيش، وفي صحبة الخلق، ونحوها، فيقسو القلب من ذلك، وإنما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر، وإذا لم تذكر شيئاً من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة؟! قال الله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. انتهى المراد مما ذكره حجة الإسلام.

فلذلك قال المصنف رحمه الله تعالى:

٢٨ ـ (مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ، إِلاَّ وَلَهُ فِيكَ قَدَرٌ يُمْضِيهِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الأنفاس: أزمنة دقيقة تتعاقب على العبد ما دام حيّاً، فكل نَفَس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائناً ما كان، فإذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله وأقداره، وكان جميع ذلك يقتضي منه حقوقاً لازمة من حقوق الله تعالى يقوم بها، وهو مطالب بذلك ومسؤول عنه، وعن أنفاسه التي هي أمانة الحق عنده، لم يبق له إذ ذاك مجال لتدبير أمور دنياه، ولا محل لمتابعة شهوته وهواه. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: بل عينُ ذلك النَّفَسُ وإمضاؤه من قدره لم يصح منك طلبه، ولا الطلب منه ولا من غيره ولا لغيره، لما تشاهد من قربه منك وقيوميته عليك وعلى غيرك، فلم يكن لك التفات لغير أمره، ولا تعول إلا على كريم بِرِّه، إذ كُلُّ نَفَسٍ يقتضي تجلياً، وذلك التجلي يوجب معرفة، وتلك المعرفة توجب للعبد عبودية، أدناها السكون تحت جريان الأقدار، إذ يرى عجز نَفْسِهِ، وانفراد مولاه بجلاله على علو قدسه، فيكون في كل نفس من أنفاسه سالكاً طريقاً إلى مولاه، وإلى هذا أشار بعض المشايخ بقوله: «الطُّرُقُ إلى الله على عدد أنفاس الخلائق». وإليه يشير عليه السلام بقوله: «إِنَّهُ لَيُغَانُّ علَى قلبي».. الحديث[1].

وقد رآه الشيخ أبو الحسن في منامه فسأله عن معنى ذلك، فقال ﷺ: «غين أنوار، لا غين أغيار، يا مبارك»، قالها ثلاثاً.

ومن شهود التقدير ترك التدبير، كما قيل:

---

(١) وتمام الحديث: «وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة». رواه أحمد في مسنده (٤: ٢١١)، ومسلم في صحيحه (٤: ٢٧٠٢)، وأبو داود في سننه (١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٦: ١٠٢٧٦)، والبيهقي في السنن (٧: ٥٢)، وابن حبان في الإحسان (٢: ١٤١) عن الأغر المزني.

نَفَذَتْ مَقـادِيرُ الإلـهِ وحُكْمُـهُ فأرِحْ فُؤَادَكَ مِن لَعَلَّ ومِن ولوْ

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٢٩ ـ (إحَالَتُكَ الأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ).

قال الأهدل رحمه الله تعالى: أي: من حماقاتها، وذلك لثلاثة أوجه، **أحدها:** أنه تضييع لحق الوقت الذي هو: القيام بما أمكن كيف أمكن.

الثاني: إيثار الدنيا على الآخرة؛ إذ الفراغ غالباً لا يُتَصَوَّر، فالتعلل به إيثار لنقيض المعلق عليه.

الثالث: الثقة بالنفس في عزمها الذي هو غالب الأمر فيه عدم وفائها به لو صح ما علقها عليه، فلا تركن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربها.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لا تؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفوتها، أو بفوت غيرها، أو مثلها، جزاء بما كفر من ذلك الوقت، فإنَّ لكل وقت سهماً من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: إذا كان العبد متلَبِّسًا بحال من أحوال دنياه، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال، وقال: إذا تفرغتُ عملتُ، فذلك من رعونة النفس.

والرعونة: ضرب من الحماقة، وحماقته من وجوه، **الأول:** إيثار الدنيا على الآخرة، وليس هذا شأن عقلاء المؤمنين، وهو خلاف ما طلب منه. قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧].

والثاني: تسويفُهُ بالعمل إلى أوان فراغه، وقد لا يجد مهلة، بل يختطفه الموتُ قبل ذلك، أو يزداد شغله؛ لأنّ أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض.

والثالث: أن تُفرغ منها ما الذي يُؤَمِّنُه من تبدُّل عزمه، وضعف نيَّته، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحَوْل والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا؛ بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أي حال كان، وأن ينتهز فرصة الإمكان، قبل مفاجآت الفوت وحلول الموت، وأن يتوكل على الله تعالى في تيسرها عليه، وصرف الموانع الحائلة بينه وبينها.

وما أحسن قولَ ابن الفارض في هذا المعنى رضي الله عنه:

وعُدْ مِن قريبٍ فاسْتَجِبْ واجْتَنِبْ غداً ... وشَمِّرْ عنِ السَّاقِ اجتهاداً بِنَهْضةِ

وكُنْ صَارِماً كالوَقتِ فالمَقْتُ في «عَسَى» ... وإيَّاكَ «مَهْلاً» فهيَ أخْطرُ عِلَّةِ

وسِرْ زَمِناً وانْهَضْ كسِيراً فحَظُّكَ الـ ... ـبَطَالَةُ ما أَخَّرْتَ عَزْماً لِصِحَّةِ

وجُذَّ بِسَيْفِ العَزْمِ «سَوْفَ» فإن تَجِدْ ... نَفَساً فالنَّفْسُ إن جُدْتَ جَدَّتِ

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٠ـ (مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لا عِوَضَ لَهُ، ومَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لاَ قِيمَةَ لَه).

قال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى: يريد بالعمر الوقت، لا العمل؛ لأنّك إذا أخليت الوقت من العمل الصالح ضيعته، وإذا ضَيَّعْتَهُ فاتك، وهو من عُمُرِك، وإذا عَمَرْتَ الوقت بالعمل الصالح أدركته ولم يفتك؛ لأنّهُ لا عمارة لك من الوقت، ولا تدارك إلا بالعمل، فهو المراد حقيقة بالوقت للتلازم؛ لأن الوقت عرش

الحوادث الكونية على حسب ترتيبها وترتيبه، فيعود ذلك الوقت ـ بالعمارة ـ كله لك؛ لأنه من عمرك، فتداركُه بواجبات الحق فيه هو تحصيله، فيعود ذلك، فلا يفوتك شيء ليعود عليك؛ ولهذا قال: «وما حصل لك منه لا قيمة له»، يعني: وما حصل لك بعمارته بالطاعة والتدارك لما فرط بتوفيق الله لا قيمة له؛ لأنَّه عمارة دنياك وآخرتك، وسعادتك الأبدية، فإن هذا العمل الذي تعمله اليوم هو الذي يظهر لك غداً، وهذا اليوم هو يوم غد الذي أُمِرتَ أنْ تَنْظُرَ ما قَدَّمْتَ له، فالذي تقدمه وتزلفه لك ذخيرةً عند الله هو عملك الذي قال الله فيه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. فالوقت الذي تتدارك فيه بعون الله ما فرطْتَ لا قيمة له بخلودك به في نعيم الأبد السَّرمد، فهذا ذاك عند من ناجاك، فتيقظ، ولا تكن فيمن أعرض. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: عمر العبد ميدان لأعماله الصالحة المقرِّبة له من الله تعالى، والموجبة له جزيل الثواب في الدار الآخرة. وهذه هي السعادة التي يكدح العبد ويسعى من أجلها، وليس لـه منها إلا ما سعى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]. فكل جزء يفوته من العمر خالياً من عمل صالح، يفوته من السعادة بقدره، ولا عوض له منه، وكلُّ جزء يحصل لـه من العمر غير خالٍ من ذلك يتوصل به إلى مُلْك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة.

ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم، ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجدِّ والتشمير.

وقد قال أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه: «بقية عمر المؤمن ما لها ثمن، يُدْرك

فيها ما فات، ويحيي ما مات». وقد نظمه بعضهم فقال:

بَقِيَّةُ العُمْرِ عندِي ما لـها ثَمَنٌ ... وإنْ غدَا غَيْرَ مَحْسُوبٍ مِنَ الـزَّمَنِ
يَسْتَدْرِكُ المَرْءُ فيها كلَّ فائتةٍ ... منَ الزَّمانِ، ويَمْحُو السُّوءَ بِالحَسَنِ

قال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس[1] رضي الله عنه وهو يريد الجمعة: «قف حتى أُكلمك»، فقال: «لولا أنِّي أُبادَر لوقفتُ لك. قال له: وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحي».

وقال سري السقطي[2] رضي الله عنه: خرجت من بغداد أريد الرباط إلى عبادان لأصوم بها رجب وشعبان، فاتفق أن جزت في طريقي علي الجرجاني[3]، وكان من الزُّهَّاد الكبار، فدنا وقتُ إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص،

---

(١) هو: عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد القيس العنبري البصري، تابعي، وهو أحد الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد في التابعين. ذكر أبو نعيم أنه أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة، وكان ممن تخرج على أبي موسى الأشعري في النسك والتعبد، ومنه تلقى القرآن. مات في بيت المقدس نحو سنة (٥٥هـ). (من كلامه): أحببت الله حباً سهّل عليّ كل مصيبة، ورضّاني بكل قضية، فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه. وقال: في الدنيا الهم والحزن، وفي الآخرة النار والحساب، فأين الراحة والفرح؟! (حلية الأولياء ٢: ٩٤، والكواكب الدرية للمناوي ١: ٢٣٤).

(٢) هو: أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ معروف الكرخي. وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد، توفي ببغداد سنة ٢٥٣هـ - ٨٦٧م، ولقب بالمغلس لأنه كان ملازماً بيته ولا يخرج منه إلا للجمعة والجماعة، ولا يُرى في غيرهما. (الرسالة القشيرية ٤١٧).

(٣) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٤: ٣٠٢) ووصفه بقوله: المتخلي من الشهوات، والمتحلي بالخلوات؛ تخلى من الجزع والهلع، واستحلى الفزع والضرع. علي الجرجاني من قدماء المتقدمين.

فقال لي: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام، لن تفلح، ولن تدخل سَنن المحبين، فنظرت إلى مِزْوَد[١] كان معه فيه سويق الشعير، فسفّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: إني حسبت ما بين المضغ والسف: سبعين تسبيحة؛ فما مضغت الخبز أربعين سنة. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣١ـ (الخِذْلانُ كلَّ الخِذْلانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إِلَيْهِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: من الخِذلان أن تصدَّك العوائقُ والشواغلُ عن التوجُّه إلى الله تعالى والرحيلِ إليه، بل الواجب عليك أنْ تبادر إلى ذلك، وترمي بالعوائق والشواغل خلف ظهرك، كما قيل: «سيروا إلى الله تعالى عُرْجاً ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة». قال الله عز وجل: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. فإن زالت شواغلُك، وقَلَّتْ عوائقُك، ثُم قعدت عن التوجه والرحيل، فهذا هو الخذلان كل الخذلان، أعاذنا الله منه.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «فراغُ القلب عن الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كَفَرَ عبدٌ هذه النِّعمة العظيمة، بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانْجَرَّ في قياد الشهوات، شوَّش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد من صفاء لُبِّه». انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى: فقد جاء «نِعْمتانِ مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاس:

---

(١) المزود: ما يوضع فيه الزاد والطعام في السفر.

الصّحّةُ، والفَراغ»[1]. والمغبون على الحقيقة: من شرد عن مولاه، وتعلق بشهوته وهواه، وتقيد بأمنيته ومناه، فلم يتحقق بحقائق الإيمان، ولا سلك مسلك العرفان، ولا حام حول حمى أهل الشهود والعيان، فيا لها من أحوال ما أسناها، ومن منازلَ ما أبهاها، ومن معاهدَ ما أبرها وأزكاها.

عَلَى نفْسِهِ فلْيَبْكِ مَن ضاعَ عُمْرُهُ وليسَ لهُ منها نَصيْبٌ ولا سَهْمُ

انتهى.

* * *

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٢)، والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وأحمد (١: ٢٥٨، ٣٤٤) وغيرهم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

باب الذكر لله تعالى

اعلم: أن ذكر الله عز وجل من أفضل القربات، وأجل الطاعات، وقد أمر الله تعالى به ورغب فيه، في كثير من الآيات. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُم بِخيرِ أعمالِكُم وأزكاها عندَ مَليكِكُم، وخيرٍ لكُم مِن إنفاقِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، ومِن أن تَلْقَوا عَدوَّكُم فَتضرِبُوا أعناقهُم ويَضْرِبُوا أعناقكُم؟»، قالُوا: بَلَى، قال: «ذِكْرُ الله»(١)، وقال ﷺ: «مَثَلُ الذي يَذْكُرِ اللَّـهَ

---

(١) رواه أحمد (٦: ٤٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٧٣): رواه أحمد، وإسناده حسن. ثم ذكره أيضاً من حديث معاذ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، إلا أن زياد بن أبي زياد لم يدرك معاذاً. ورواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، والحاكم في المستدرك (١: ٤٩٦)، والبيهقي في الشعب (٥١٩) من حديث أبي الدرداء بإسناد حسن. وهمزة [ألا] للاستفهام التقريري، و(لا): نافية، و(بلى): حرف جواب. أي: أخبرنا يا رسول الله، و(الورق) بكسر الراء: الفضة، و(ذكر الله) ذكركم له تعالى، بمعنى استحضار كماله وعظمته وجلاله في القلوب، على نحو ما سبق بيانه؛ وذلك لما يترتب عليه من ذكره تعالى إياكم، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذي لا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّت[(١)]، ومَثَلُ الشَّجرةِ الخَضراءِ بَيْنَ الشَّجَرِ اليَابِس، وذاكِرُ اللّـهِ في الغافلينَ كالمُقاتِلِ بَيْنَ الفَارِّين»[(٢)] وقال ﷺ: «يا أَيُّها النَّاس: ارْتَعُوا في رِيَاضِ الجَنَّة»، قيل: وما رِيَاضُ الجَنَّة؟ قال: «مَجالِسُ الذِّكْر، اغْدُوا ورُوحُوا، واذْكُرُوا، مَن كان يُحِبُّ أن يَعْلَمَ كيفَ منزلتُهُ عندَ الله فلْيَنْظُر كيفَ مَنْزِلَةُ اللّـهِ عندَه، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْزِلُ العَبدَ مِن حيثُ أنزَلَهُ مِن نَفْسِه»[(٣)].

وقال ذو النون: «إنّ ذكر الله على الحقيقة، تلاشى في جنب ذكره كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء».

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «مَثَلُ البَيْتِ الَّذي يُذْكَر الله فيه والبيت الذي لا يُذْكر الله فيه مثل الحي والميت». وأفاد أن في ذكر الله تعالى حياة القلوب، وفي الغفلة عنه موتها، والقلوب الحية هي المستعدة لتلقي الفيوضات الإلهية دون الميتة.

(٢) أي: الذاكر فيما بين جماعة غافلين عن ذكر الله كمجاهد الكفار بعد فرار أصحابه من الزحف إذا التحم الحرب، وناهيك به. والحديث بتمامه رواه أبو نعيم في الحلية (٦: ١٨١). وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢: ٧١٧)؛ رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر بسند ضعيف. ورواه البزار في مسنده من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه البزار (كشف الأستار ٤: ٥) وأبو يعلى في مسندَيْهما، والطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك (١: ٤٩٤) من رواية عمر بن عبد الله مولى غفرة، قال: سمعت أيوب بن خالد ابن صفوان يقول: قال جابر: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنة»، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله واذكروه أنفسكم».. الحديث. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٧٧): رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، وفيه عمر بن عبد الله مولى غفرة، وقد وثّقه غير واحد وضعّفه جماعة.

وقال داود الطائي[1]: «كلّ نفس تخرج من الدنيا وهي عطشانة، إلا نفْسَ الذاكرين».

وكان أبو المليح إذا ذكر الله تعالى يطرب ويقول: «إنّما طربي بذكر الله لي»، وكان إذا مشى في طريق وهو غافل عن ذكر الله عز وجل رجع ثانياً وذكر الله فيها ولو مرحلة، ويقول: إني أُحِبُّ أنْ تشهد لي البقاع التي أمر فيها كُلُّها يوم القيامة.

قال السيد عبد الله الحداد في «رسالة المريد»: ومن سرّه أن يذوق شيئاً من أسرار الطريقة، ويكاشَف بأنوار الحقيقة، فليعكف على ذكر الله تعالى بقلب حاضر، وأدب وافر، وإقبال صادق، وتوجه خارق، فما اجتمعت هذه المعاني في شخص إلا كوشف بالملكوت الأعلى، وطالعت روحه حقائق العلم الأصفى، وشاهدت عينُ سِرِّه الجمال الأقدس الأسنى. انتهى.

وقال أبو القاسم القشيري: الذكر مكنون الولاية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال الممدوحة راجعة إلى الذكر، ومنشؤها عن الذكر، وفضائل الذكر

---

(١) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي، توفي (١٦٥هـ ٧٨١م)، كان كبير الشأن، وقد ورث عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

وقيل: كان سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة رضي الله عنه، فقال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا سليمان، أمّا الأداة فقد أحكمناها، فقال له داود: فأي شيء بقي؟ فقال: العمل، قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة، فقلت في نفسي: حتّى تجالسهم ولا تتكلم في مسألة، قال: فجالستهم سنة لا أتكلم في مسألة تمرُّ بي وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد، ثم صار أمره إلى ما صار. (الرسالة ٤٢٢).

أكثر من أن تحصى، ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله عز وجل فيما يرويه عنه نبيه ﷺ: «أنا عندَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنَا معَهُ حينَ يَذْكُرُني، إن ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُه في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خيرٍ منه»، إلى آخر الحديث[1]. انتهى.

واعلم: أن للذكر آداباً، فمنها: حضور القلب مع اللسان حالَ الذكر، ومعنى ذكر القلب: أن تكون صورة الذكر الجاري حاضرة فيه، وجارية عليه، مثل: إذا قال الذاكر بلسانه: لا إله إلا الله، يكون كذلك قائلاً لها بقلبه. وقد يكون معنى ذكر القلب: أن يكون معنى الذكر الجاري على اللسان حاضراً فيه، مثل أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله، ويكون معنى هذه الكلمة الشريفة، الذي هو انفراد الحق بالألوهية، حاضراً في القلب. والله أعلم.

فينبغي لمن أخذ في الذكر بلسانه أن يتكلف إحضار قلبه مع اللسان، حتى يصير ذاكراً بهما جميعاً، تكلُّفاً في أول الأمر، ثم لا يزال يواظب على ذلك حتى يذوق القلب لذة الذكر، وتشرق عليه أنواره، فعند ذلك يحضر بلا تكلف ولا مؤنة، بل ربما سار إلى حالة لا يمكن معها الصبر عن الذكر ولا الغفلة عنه، وليحذر من الغفلة عن الذكر في وقت من الأوقات، فإنها كثيرة الضرر. قال النبي ﷺ: «مَن

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد (٣: ١٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وتمامه: «فإن تقرب إلي شبراً اقتربت منه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً اقتربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»، أي: أجبته سريعاً. ومعنى «أنا عند ظن عبدي بي» أي: عند يقينه بي، وعلمه بأن مصيره إليّ وحسابه عليّ، وذلك أن الله تعالى ـ لرأفته بعباده ـ كتب على نفسه الرحمة، ووسعت رحمته كل شيء، فإذا أحلّ العبد عفو ربه ورحمته كافأه الله تعالى على ذلك، فأجزل له خيره وأسبل عليه فضله، وهذا وعد منه سبحانه وتعالى لا يخلف.

قَعَدَ مَقعَداً لم يَذْكُرِ اللهَ فيهِ إلَّا كانت عَلَيْهِ منَ اللّٰـهِ تِرَة، ومنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعاً لم يَذْكُرِ اللّٰـهَ فيهِ إلَّا كانت عَلَيْهِ منَ اللّٰـهِ تِرَة، ومَن مَشَى ممْشىً لا يَذْكُرُ اللّٰـهَ فِيهِ إلَّا كانت عَلَيْهِ منَ اللّٰـهِ تِرَة»[١].

ومعنى الترة: الحسْرة، وقيل: التبعة، فالغافل عن ذكر الله ربما تسلّط الشيطان واستولى عليه بسبب غفلته عن ذكر مولاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

وفي ملازمة الذكر لله تعالى والمداومة عليه طرد للشيطان وقطع لوسوسته، كما ورد: «إنَّ الشّيطانَ جاثِمٌ علَى قَلْبِ العَبْد، فإذَا ذَكَرَ اللّٰـهَ خَنَسَ، وإذا غَفَلَ وَسْوَسَ لهُ»[٢]. فتنبغي وتتأكدُ المواظبةُ والملازمةُ لذكر الله على دوام الأوقات، وفي عموم الأحوال والسَّاعات. انتهى ملخصاً من «النصائح».

وقال العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحيم[٣] في شرح منظومة شعب

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٦)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٠٤)، وأحمد في المسند (٢: ٤٣٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٨٩)، والحميدي في مسنده (١١٥٨).

(٢) قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله تعالى خنس»، أي: انقبض وتأخر، «وإن نسي الله التقم قلبه»، فذلك الوسواس الخناس، فبُعد الشيطان من الإنسان على قدر ملازمته للذكر، والناس في ذلك متفاوتون.
والحديث رواه أبو يعلى (١٥٤٦). قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان، وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه. انتهىٰ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ١٥٢): فيه عدي بن أبي عمارة، وهو ضعيف.

(٣) هو: الإمام الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن حسن الملا الحنفي الأحسائي. كان من كبار علماء الأحساء فقهاً وورعاً، وقد لقب بالقطب، توفي سنة ١١٠٠هـ له مؤلفات كثيرة =

الإيمان: والمقصود من الذكر حضور القلب وحياته بالمذكور، ومسح الأذكار منه سوى ذكر الله، فينبغي أن يحرص الذاكر على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب، كما في القراءة، لاشتراكهما في المعنى المقصود، والذكر نوعان: **مطلق**، وهو ما لم يتقيد بوقت أو سبب، وأول مقاصده منع تفرق الخواطر في أودية الدنيا.

ومقيَّد: بأوقات وأسباب، وهو المشروع في الصلوات وبعدها، وأذكار النوم والطهور والغسل والخروج إلى المسجد، وذكر الدخول والخروج، وأذكار الصوم، والصلاة، والزكاة، والحج، والأكل، والشرب، والنكاح، والسفر، والجهاد، وغير ذلك من أعمال اليوم والليلة التي يباشرها الإنسان على وجه العادة وعلى وجه العبادة.

والمقصود من مشروعية الأذكار في أعمال العادات: أن يجعل العادة عبادة، فترجع كل العادات عبادات في حق من يحافظ على أذكارها، ونياتها المشروعة فيها، وبهذا الطريق يتوصل إلى دوام ذكر الله.

وأما مشروعية الإخلاص والصدق في أنواع العبادات؛ فلأن العبادة الواحدة كالجسم الواحد، والأفعال المختلفة فيها كالأعضاء لها، والنية والإخلاص فيها كالروح السارية فيها، والأذكار المشروعة فيها كالغذاء الذي يحصل به استمداد دوام الحياة. انتهى.

= منها: «مفتاح القرب بشرح منظومة آداب الأكل والشرب»، و«المسلك المبين لأبيات الإمام صدر الدين»، و«إرشاد الطالبين في شرح أم البراهين»، و«فتح المجيد في شرح جوهرة التوحيد»، و«مسلك البيان لقلادة العقيان في شرح منظومه شعب الإيمان»، و«منار الإرادة في سلوك سبيل السادة»، و«الفتح الصمدي بشرح تحفة المبتدي»، وله شرح على المنظومة العمريطية في النحو، وغيرها من المؤلفات.

قال رحمه الله تعالى:

٣٢ ـ (لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ معَ اللّـهِ فيه؛ لأنّ غَفْلَتَكَ عَن وُجُودِ ذِكْرِهِ أشدُّ مِن غَفْلَتِكَ في وُجُودِ ذِكْرِه، فعَسَى أن يَرْفَعَكَ مِن ذِكْرٍ معَ وجُودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ معَ وُجُودِ يَقَظة، ومِن ذِكْرٍ معَ وُجُودِ يَقَظةٍ إلى ذِكْرٍ معَ وُجُودِ حُضُور، ومِن ذِكْرٍ معَ وُجُودِ حُضُورٍ إلى ذِكْرٍ معَ غَيْبةٍ عمّا سِوَى المذْكُور، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو عَلَمٌ على وجود ولايته، كما قيل: «الذكر منشور الولاية»، فمن وفق للذكر فقد أُعْطِيَ المنشور، ومن سُلِبَ الذكرَ فقد عُزِلَ. قال الشاعر:

والذِّكرُ أعظمُ بابٍ أنتَ داخِلُهُ ... للّـهِ، فَاجْعَلْ لهُ الأنفاسَ حُرَّاسَا

فينبغي للعبد أن يستكثر منه في كل حالاته، ويستغرق فيه جميع أوقاته، ولا يغفل عنه، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه، فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه، وإن كان غافلاً فيه، فلَعَلَّ ذكرَهُ مع وجودِ الغفلةِ يرفعه إلى الذِّكر مع وجود اليقظة، وهذا نَعْتُ العقلاءِ وصفة العلماء[1]، ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه

---

(١) روى أبو عبيدة عن الحسن قال: من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه.

تنبيه: ينبغي للإنسان أن يشتغل بما ينفعه من قراءة قرآن، واستغفار، وذكر، ونحوه، فإنَّ الشيطان يرضى من العبد بتضييع عمره من غير فائدة، لعلمه بأنَّ عمره جوهر نفيس، كل نَفَسٍ منه لا قيمة له، فإذا صرف الإنسانُ عمره في طاعة، سلم وغنم. وقد ورد أنَّ لكل تسبيحة صدقة، وأن من قرأ سورة الإخلاص عشر مرات بني له قصر في الجنة، ومن قال: سبحان الله والحمد لله.. إلخ غرست له شجرة في الجنة، فأين هذا ممن لا يستفيد شيئاً، أو يتحمل الجرائم؟ ومن ذلك أن يتكلم بكلمة يغضب بها مولاه، أو يؤذي بها أخاه، فقد ورد: «إن العبد ليتكلم =

إلى الذكر مع وجود الحضور، وهذه صفة العلماء، ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور، وهي مرتبة العارفين المحققين من الأولياء في هذا المقام، ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محواً في وجود العبادة، فلا ينبغي أن يستبعد الوصول إلى هذا المقام الكريم، فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم.

فعلى العبد القيام بحق الأسباب، ومن الله تعالى رفع الحجاب. انتهى ملخصاً.

وقال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى: اعلم أنَّ طلبة عامة المريدين المرادين من العامة بالخاصة أولاً الذكر مع عدم الحضور مع المذكور أبداً؛ لكونه من بحر الغفلة يطلب الخلاص إلى الحضور، فلا عَوْنَ له ولا وسيلة له إلا الذكر لله على كل حال، وهذا من جملة الأحوال، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا وسيلة إلى الله إلا اسمه أبداً على أي حال كان من حضور معه أو غفلة؛ لأنَّ الغفلة ليست بواقعة إلا في الوهم، والوهم لا بد منه؛ لأنه من أركان دولة الإنسان، لا يتم القضاء فيها إلا به، ففيه الغفلة لا في التحقيق، فبهذا أمره بالذكر؛ لأنّ له بذاته حضوراً مع المذكور، وإن توهم الغفلة، إذ لا يستحضر

= بالكلمة من الشر لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم أبعد ما بين المشرق والمغرب»، وربما كانت تلك الكلمة سبباً في سُنَّةٍ سيئة يستمر العمل بها بعده، فلا يزال يعذَّب بها، فقد قيل: «يا ويل من مات ولم تمت سيئاته»، لأنَّ العبد إذا مات انقطعت أعماله إلا من عمل عملاً صالحاً يعمل به من بعده، كعلمٍ أو وقفٍ. نسأل الله حسن العاقبة. وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يريد بها إلا أن يضحك القوم يهوي بها بُعد ما بين السماء والأرض»، وفي حديث ابن عمر: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسى قلوبكم، وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي».

الذاكر من الذكر إلا الله بقدر حاله ولو كان غافلاً في الصورة، وسيكشف عن ذلك في الترقي كما ذكره الشيخ ووجده شيئاً فشيئاً؛ لأن الغفلة عن الذكر أشد من الغفلة فيه، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٥]. ولم يقل: في صلواتهم، فلهذا أمر الشيخ بالذكر مع الغفلة، فلا يتـرك الذكر وإن كان غافلاً؛ لأن غفلته عن وجود ذكره أشد من غفلته في ذكره. فعسى هنا للترجي والتوقع واليقين بقرينه قوله: «أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة»، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال صاحب «المنازل»[١]: القومة لله هي اليقظةُ من سِنَةِ الغفلة، والنهوضُ عن ورطة الفترة، وهي أَوَّلُ ما يستنير قلب العبد بالحياة برؤية نور التنبيه[٢]. انتهى.

«ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور»، يريد بالحضور المراقبة التي هي من مقامات المعاملات، «ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور»، هذا هو محط حال السائرين إلى الخلاص عنهم، وهو المراد بالذكر وأطواره، وهو أول النهاية، وأول أصدق شمة من روائح التوحيد. انتهى.

---

(١) أي منازل السائرين للإمام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي شيخ خراسان، ومن ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري، ولد سنة ٣٩٦هـ وتوفي سنة ٤٨١هـ وكتابه منازل السائرين إلى الحق المبين من أجلِّ كتب التصوف. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨: ٥٠٣).

(٢) منازل السائرين مع شرح عفيف الدين التلمساني (١: ٥٣).

باب بيان الفكر في مصنوعات الله عز وجل

اعلم: أن التفكر في المصنوعات من أعظم القربات، وأفضل العبادات، وقد نبَّه الله تعالى عليه في كثير من الآيات. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال ﷺ: «تَفَكَّرُوا في آلاءِ الله ولا تتفكَّرُوا في الله، فإنَّكُم لم تَقْدُروا قدرَه»[١]، وقال إبراهيم بن أدهم[٢]: «الفِكْرُ حَجُّ العقل».

---

(١) رواه أبو الشيخ عن ابن عمر في العظمة رقم (١)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٣١٠)، وابن عدي في الكامل (٧: ٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١: ١٢٠)؛ ولفظه: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله».

وروى أبو الشيخ في العظمة (٤) عن ابن عباس: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره»، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (٣٣٤٦).

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، أبو إسحاق، توفي (١٦١هـ ٧٧٨م)، أخذ عن كثير من علماء العراق والشام والحجاز، وكان زاهداً. قال النسائي: مأمون، أحد الزهاد، وقال ابن معين: عابد. وكان من أبناء الملوك فخرج يوماً يتصيد، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم، ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟! ثم هتف به هاتف: ما لهذا خلقت =

وقال عيسى عليه السلام: «طوبى لمن كان قِيْلُه ذكراً، وصمته تفكراً، ونظره عبرة، إنَّ أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت».

وقال كعب الأحبار[١]: «من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فليكثر الفكر».

وقيل لأم الدرداء: «ما كان عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر».

وقال علي رضي الله عنه: لا عبادة كالتفكر، وقد جاء في الخبر: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[٢].

قال السيد الجليل عبد الله الحداد في «رسالة المعاونة»[٣]: «وينبغي لك ورد

= ولا بهذا أمرت. فنزل عن دابته وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها، وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل ابن عياض، ثم دخل الشام ومات فيها. (الرسالة القشيرية ٣٩٢، والبداية والنهاية ١٠: ١٣٥).

(١) هو: كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق المشتهر بالعلم والزهد،كان يتحدث بها في الكتب المتقدمة من العجائب والأخبار. كان يهودياً فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص. قال ابن عباس له: ما منعك أن تسلم حتى زمن عمر رضي الله عنه؟ قال: كتب لي أبي كتاباً من التوراة وختمه، وعهد لي أن لا أفضه، فلما رأيت الإسلام يظهر، قلت: لعله غيبٌ غيَّب عني علماً! ففضضته فإذا فيه صفة المصطفى ﷺ وأمته فأسلمت.
(من كلامه): أنيروا بيوتكم بذكر الله كما تنيرون به قلوبكم. وقال: يوشك أن تروا الجهال يتباهون بالعلم ويتغايروا على أن يتقدموا عند الأمراء كما يتغاير النساء على الرجال، فذلك حظهم من العلم. (تهذيب التهذيب ٨: ٤٣٨، والشذرات ١: ٤٠، والكواكب الدرية ١: ٢٧٥).

(٢) قال في كشف الخفا (١: ٣٧٠ رقم ١٠٠٤): ذكره الفاكهاني بلفظ: (فكر ساعة)، وقال: إنه من كلام سري السقطي، وفي لفظ: (ستين سنة)، وذكره في الجامع الصغير بلفظ: «فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»، وورد عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة».

(٣) المعاونة والمظاهرة والموازرة (ص١٠ – ١١).

من التفكر في كل يوم وليلة تُعَيِّنُ لـه ساعة أو ساعات، وأحسن الأوقات للتفكر أفرغها، وأصفاها وأجدرها في حضور القلب؛ جوفُ الليل».

واعلم: أنَّ صلاح الدنيا والدين موقوف على صحة التفكر، ومن أُعطي حظاً منه أخذ بحظ وافر من كل خير.

ومجاري الفكر كثيرة، **فمنها**؛ وهو أشرفها: أن تتفكر في عجائب مصنوعات الله الباهرة، وآثار قدرته الباطنة والظاهرة، وما بث من الآيات في ملكوت الأرض والسموات، وهذا التفكر: يزيد في معرفتك بذات الله وصفاته وأسمائه، وأنت من عجائب المصنوعات، فتفكر في نفسك. قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

ومنها: أن تتفكر في آلاء الله وأياديه التي أوصلها إليك، ونعمه التي أسبغها عليك.

وثمرة هذا التفكر: امتلاء القلب بمحبة الله، والاشتغال بشكره باطناً وظاهراً.

ومنها: أن تتفكر في إحاطة علم الله بك، ونظره إليك، واطلاعه عليك. وثمرة هذا التفكر: أن تستحيي من الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

ومنها: أن تتفكر في تقصيرك في عبادة مولاك، وتعرضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك، وهذا التفكر: يزيد في خوفك من الله تعالى، ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها، ومجانبة التقصير، وملازمة التشمير.

ومنها: أنْ تتفكر في هذه الحياة الدنيا، وكثرة أشغالها ووبالها، وسرعة زوالها، وفي الآخرة ونعيمها ودوامها، وهذا التفكر: يثمر لك الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

ومنها: أن تتفكر في قرب نزول الموت، وحصول الحسرة والندامة بعد الفوت، وفائدة هذا التفكر: قصر الأمل، وإصلاح العمل، وإعداد الزاد ليوم المعاد.

ومنها: أن تتفكر في الأخلاق والأعمال التي وصف الله تعالى بها أولياءه وأحباءه، وفيما أعده الله للفريقين من الجزاء العاجل والآجل، وثمرة هذا التفكر: محبة السعداء، وحمل النفس على اكتساب أعمالهم، والتخلق بأخلاقهم، وبغض الأشقياء، وحمل النفس على اجتناب أعمالهم وأخلاقهم.

وإن ذهبنا نتتبع مجاري الفكر خرجنا عن مقصودنا من الإيجاز.

وإياك والتفكر في ذات الله وصفاته من حيث طلب الماهية، وتعقل الكيفية، فقَلَّ ما وُلِّعَ بذلك إلا هَوَى في مهاوي التعطيل، أو تورط في ورطات التشبيه، وقد روي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «تفكَّروا في آيات الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدُروهُ حقَّ قدْرِه»[1]. انتهى ملخصاً.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

٣٣ - (الفِكْرةُ: سَيْرُ القلبِ في ميادينِ الأغيَار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الفكرة التي أُمِرَ بها العبد هي: سير القلب في ميادين الأغيار فقط، وهي[2]: مخلوقات الله ومصنوعاته.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤١٠٤) من حديث ابن عباس: «إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي: تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره». قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤٣٢٠): رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وقال: هذا إسناد فيه نظر، قلت: فيه الوازع بن نافع، متروك.

(٢) أي: الأغيار.

وأما الفكرة في ذات الله تعالى فلا سبيل إليها.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: «التَّفَكُر نَعْتُ كُلِّ طالب».

وثمرته: الوصُوْلُ بشرط العلمِ، فإذا سَلِمَ الفِكْرُ منَ الشَّوائب وَرَّدَ صاحبَه على مناهل التحقيق، ثم فِكْرُ الزاهدين في فناء الدنيا، وقلَّة وفائها لطلابها، فيزدادون بالفكر زهداً فيها، وفِكْرُ العابدين في جميل الثواب؛ فيزدادون نشاطاً عليه، ورغبة فيه؛ وفِكْرُ العارفين في الآلاءِ والنَّعمَاءِ؛ فيزدادون محبة للحق سبحانه.

وقال الجنيد رضي الله عنه: «أشرفُ المجالِسِ وأعلاها الجلوسُ مع الفكرة في ميدان التوحيد». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٤ ـ (الفِكْرةُ سِرَاجُ القَلْب، فإذا ذَهَبَتْ فلا إضاءةَ لهُ).

قال أبو الحسن الحجازي: ولهذا كانت الفكرة سراجَ القلب، بها ينظر في عجائب الملك والملكوت، إذ هي نور يكشف حقائقها، فإذا ذهبت فلا إضاءة له؛ بل احتجب في ظلم ليل الطبيعة عن شهود الأنوار. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٥ ـ (الفِكْرةُ فِكْرتان: فِكْرةُ تصديقٍ وإيمان، وفِكْرةُ شُهُودٍ وعِيَان. فالأُولى لأربابِ الاعتبار، والثَّانِيةُ لأربابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصار).

قال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى عند قوله: «فالأولى لأرباب الاعتبار»: وهم الذين استدلوا بالصَّنْعةِ على الصَّانع، وبالمخلوقات على الخالق، فاعتبروا وجود الحق بواسطة وجود الخلق، وهذا اعتبار لا يدل على الله إلا من مكان بعيد، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

والثانية لأرباب الشهود والاستبصار، وهم الذين استدلوا به عليه، ولهذا قال الأستاذ الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، وإنَّا لا نرى أحداً من الخلق فضل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإنْ كان ولا بد فكالهباء إن فتشته لم تجده شيئاً. انتهى.

وقال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى: ففكرة التصديق والإيمان قاعدة فكرة الشهود والعيان؛ لأنَّه لا يكون شهود وعيان إلا بعد تصديق وإيمان، فهما لَزِيمـانِ لا يكون الآخر إلا بعد الأول، وقد يكون الأول ولا يكون الآخر بحسب إذن الله لعبده؛ لأن الأول ضروري لكل مسلم مؤمن، وأما الآخر فهو تخصيص الله في عباده المكرمين، فمن هنا قال الشيخ: «فالأولى لأرباب الاعتبار»، يريد لأهل الفروض العينية؛ لأنه لا بد لكل عين من التصديق والإيمان، ثم يترقى ذلك إلى حضرة الإحسان التي هي الشهود والعيان، كما قال: «والأخرى لأرباب الشهود والاستبصار»، وفيه قال القائل بالاستبصار: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. انتهى.

* * *

باب الزهد في الدنيا

اعلم: أنَّ ما ورد في ذلك من الآيات والأخبار والآثار ما لا يأتي عليه انحصار، وشهرة ذلك تغني عن ذكره.

وأصلُ الزُّهد: معرفةُ القلبِ بحقارة الدنيا وخستها، وثمرة هذه المعرفة المقصودة منها: تركُ الميلِ إلى الدنيا باطناً، وتركُ التَّنَعُّمِ بشهواتها ظاهراً. وأدنى درجات الزهد: أن لا تقع بسبب الدنيا في ركوب معصية، ولا في ترك طاعة، وأعلى درجاته: أن لا تأخذ من الدنيا شيئاً، حتى تعلم أنَّ أخذه أحبُّ إلى الله من تركه، وبين هاتين الدرجتَيْن درجات كثيرة.

وللزاهد الصادق علامات. منها: أن يفرح بالموجود، ولا يحزن على المفقود من الدنيا، ومنها: أن لا يشغله طلب الدنيا والتمتع بها عما هو خير له عند ربه. ذكر ذلك السَّيْدُ عبد الله الحداد في «رسالة المعاونة».

قال حجة الإسلام الغزالي في «منهاج العابدين»: اعلم أنَّ الزُّهد عند علمائنا رحمهم الله تعالى زهدان: زهد مقدور للعبد، وزهد غير مقدور، فالذي هو مقدور؛ ثلاثة أشياء: ترك طلب المفقود من الدنيا، وتفريق المجموع منها، وترك إرادتها واختيارها.

وأما الزهد الذي هو غير مقدور للعبد فهو برودةُ[1] الشيء على قلب الزاهد.

---

(١) معنى البرودة على القلب: أن تنقطع همته عنها ويستقذرها ويستنكرها جداً فلا يبقى لها في قلبه اختيار ولا إرادة. انتهى. المؤلف.

ثُمَّ الزهد الذي هو مقدور للعبد مقدمات للزهد الذي هو غير مقدور للعبد، فإذا أتى به العبدُ، بأنْ لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا، ويُفَرِّق ما عنده منها، ويتركَ بالقلب إرادتَها واختيارَها لآفاتها؛ أورثته تلك برودةَ الدنيا على قلبه؛ لأجل الله وعظيم ثوابه، وهذا عندي هو الزهد الحقيقي.

ثم اعلم: أنَّ أصعب الأمور الثلاثة إنما هو ترك الإرادة بالقلب، فكم تارك لها بظاهره، محبٌّ مريد لها بباطنه، فهو في مكافحات ومقاساة شديدة من نفسه، والشأن كله في هذه. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] فعلق الحكم بنفي الإرادة دون الطلب والفعل المراد؛ لكن العبد إذا واظب واستقام على الأولين، أعني: الترك والتفريق، فمأمول من فضل الله سبحانه وتعالى أن يوفقه لترك هذه الإرادة والاختيار عن قلبه، فإنه ذو الفضل الكريم[١].

ثم قال: فإن قيل: لا بد لنا من قدر من الدنيا ليكون قواماً لنا، فكيف نزهد فيها؟

فاعلم: أن الزهد في الفضول مما لا يحتاج إليه في قِوام البنية، فالمقصود القِوام والقوة حتَّى تعبدَ الله سبحانه تعالى، لا الأكل والشرب والتلذذ، والله تعالى إنْ شاء أقامها بشيء وسبب، وإن شاء أقامها بغير سبب كالملائكة، ثم إن كان بشيءٍ، فبشيء حاصل عندك، أو بطلبك وكسبك، وإن شاء بشيء غيره يسببه لك من حيث لا تحتسب، فإذاً لا تحتاج بحالة إلى طلب وإرادة، فإن لم تقوَ على ذلك فطلبت وأردت فانوِ بذلك القوة على عبادة الله سبحانه وتعالى دون الشهوة

---

(١) منهاج العابدين مع شرح منهاج الطالبين (١: ١٩٥ - ٢٠١).

واللَّذة، فإنَّك إذا نويت بذلك كان الطلب والإرادة منك خيراً وطلباً للآخرة بالحقيقة لا للدنيا، ولا يقدح في زهدك وتجردك(١). انتهى المقصود مما ذكره حجة الإسلام ملخصاً.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

٣٦ ـ (ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِن قَلْبِ زاهد، ولا كثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِن قَلْبِ راغب).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: مقادير الأعمالِ على حسبِ قلوبِ العُمَّال، فما صَدَرَ عن الزاهدين في الدنيا من عملِ طاعة، وإنْ كان قليلاً في الحِسِّ(٢)، فهو كثير على التحقيق، وما صَدَرَ عن الراغبين فيها من عمل برٍّ، وإنْ كان كثيراً في الحسِّ فهو قليل على التحقيق؛ وذلك لأنَّ الزاهدين سَلِموا من الآفات التي تقدحُ في إخلاص أعمالهم من مُراءاةِ النَّاس والتصنُّعِ لهم، ولطلب الأعواض الدنيوية عليها منهم؛ لأنهم زهدوا فيها، فيحصل لهم قبول أعمالهم، فيتوفر قليلها بسبب ذلك ويكثر، والراغبون تعتريهم الآفاتُ المُبْطِلةُ لأعمالهم القادحةُ في إخلاصهم؛ بسبب رغبتهم في الدنيا، فلا تُقْبَلُ منهم، فيقلُّ الكثيرُ من أعمالهم؛ لوجود النُّقصانِ فيها، وقد قال سيدنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم للعمل، فإنه لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يُتَقَبَّلُ؟!».

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ركعتان من زاهدٍ عالمٍ خيرٌ من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً».

وقال بعض الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين لصدر التابعين رضوان الله

---

(١) منهاج العابدين (١: ٢١٠ ـ ٢١١).

(٢) في نسخة: الحُسْنِ.

عليهم: «أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من الصحابة رضوان الله عليهم، وهم كانوا خيراً منكم. قيل له: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا».

وعن بعض الصَّحابةِ رضوان الله عليهم قال: «تابعنا الأعمالَ كلَّها، فلم نرَ في أمر الآخرة أبْلغَ من الزُّهْدِ في الدُّنْيا».

وقال سيدي أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنَّه يعمل أعمال البِـرِّ ولا يجد حلاوة في قلبه، قال: لأن عندك بنت إبليس؛ وهي الدنيا، ولا بد للأب أن يزور بنته في بيتها؛ وهو قلبك، ولا يُؤثر دخوله إلا فساداً. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٧ ـ (لِيَقِلَّ ما تَفْرَحُ بهِ يَقِلَّ ما تحزَنُ عليه).

قال الأهدل رحمه الله تعالى: ولهذا قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الرِّزْقِ ما يكفي، وخيرُ الذِّكْرِ الخَفي»[١]، وروي: «ما قَلَّ وكَفَى، خيرٌ ممَّا كَثُرَ وألهَى»[٢]، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عين قلبه.

وقال بعض العارفين: من لم يعرف قدر ما زوي عنه من الدنيا ابتلي بأحد

---

(١) رواه أحمد (١: ١٧٢)، وابن حبان (١٣٢٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣: ٨٤)، وكذا رواه البيهقي ونعيم بن حماد في الفتن، والعسكري في الأمثال، وعبد بن حميد وأبو عوانة، كلهم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة، عن سعد، غير أنه بتقديم الجملة الثانية على الأولى، ومحمد بن عبد الرحمن هذا وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله عند أحمد وابن حبان رجال الصحيح. (إتحاف السادة المتقين للزبيدي).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٢: ١٠٣٥)، والضياء (١١: ٣١٨٩ كنز العمال) عن أبي سعيد، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير (٧٩٦٢).

وجهَيْن، إمَّا بحرصٍ مع فقر يَتَقَطَّعُ به حسرات، أو رغبة في فناء ينسيه قدرَ ما أُنْعِمَ به عليه. انتهى.

وقال ابنُ عباد رحمه الله تعالى: درءُ المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح، فمن زوى الله فضول الدنيا عنه، فرضي بذلك، وقنع منها باليسير، ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه، فهو كامل العقل، حسن النظر لنفسه؛ لأنه دفع عن نفسه مفسدة وجود الحزن بتركه، لما يفيد حصول مصلحة الفرح الذي يزول عن قريب، واعتاض من ذلك الراحة الدائمة، كما قيل:

ومَن سَرَّهُ أنْ لا يَرَى ما يَسُوؤُهُ ... فلا يَتَّخِذْ شيئاً يَخافُ لَهُ فَقْدا

فإنَّ صَلاحَ المرءِ يَرْجِعُ كُلُّهُ ... فَساداً إذا الإنسانُ جازَ بِهِ الحَدَّا

قيل لبعضهم: لم لا تغتم؟ قال: لأني لا أقتني ما يغمني فقده، فالمفروح به هو المحزون عليه؛ إن قليلاً فقليل وإن كثيراً فكثير، كما قيل:

علَى قَدْرِ ما أُولِعْتَ بالشَّيءِ حُزْنُهُ ... ويَصعُبُ نَزْعُ السَّهْم مهما تَمَكَّنا

حُكِي أنَّه حُمِلَ إلى بعضِ الْمُلوكِ قَدَحٌ من فيروز مرصَّعٌ بالجواهر لم يُرَ له نظير، ففرح الملكُ به فَرَحاً شديداً، فقال لبعض الحُكَماءِ عندَهُ: كيف ترى هذا؟ فقال: أراه مصيبةً وفقراً، قال: وكيف ذلك؟ قال إن انكسر كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سُرِقَ صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يُحْمَلَ إليك في أمن من المصيبة والفقر، فاتفق أن انكسر القدح يوماً فعَظُمَتْ مُصيبةُ الملك، وقال: صدق الحكيم، ليته لم يحمل إلينا.

وأمثال هذه المصيبة أو أعظم منها نازلة بكل من له علاقة بشيء من أسباب الدنيا، فإنها إن لم تؤخذ منه بغصب أو سرقة أو جائحةٍ نازلة فلا بد أن يؤخذ عنها بالموت الهاذم للذات، الْمُنَغِّصِ للشهوات، فإنْ كان له ألف محبوب مثلاً نزل به

عند المصيبة ألف مصيبة في وقت واحد؛ لأنه كان يحبها كلها وقد سُلبت عنه في كَرّةٍ واحدة؛ ولذلك كان الزهد في الدنيا من فضائل العقلاء.

قال أبو علي الثقفي[1] رضي الله عنه: «أُفٍّ مِن أشغالِ الدُّنيا إذا أقبَلَتْ، وأُفٍّ مِن حَسَراتِها إذا أدبرت».

والعاقل لا يركَن إلى شيءٍ إذا أقبل كان شغلاً، وإذا أدبر كان حسرة.

وقد قيل في معناه:

ومَن يَحْمَدِ الدُّنيا بِشيءٍ يَسُرُّهُ فسوفَ ـ لَعَمْرِي عَن قليلٍ يَلُومُها
إذا أدبَرَتْ كانت علَى المرءِ حَسْرةً وإن أَقْبَلَتْ كانتْ كثيراً هُمُومُها

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٨ ـ (الطَّيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِيَ مسافةَ الدُّنيا عنك، حتَّى تَرَى الآخرةَ أقرَبَ إلَيْكَ مِنْك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: طيُّ مسافة الدنيا إنما يُتَصَوَّر من العبد إذا أشرق نور اليقين في قلبه، فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره، وتنطوي في اعتباره، ويرى الآخرة حاضرة لديه، موجودة عنده؛ بل يراها أقرب إليه منه، إذ ذاته فانية منطوية

---

(١) هو: أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي. إمام وقته، صحب أبا حفص، وحمدون القصار، وبه ظهر التصوف بنيسابور، توفي سنة ٣٢٨هـ.
ومن كلامه رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناجح، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ ـ يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه ـ لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. (الرسالة القشيرية ٤٠١ ـ ٤٠٢).

بهذا الاعتبار، فمن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حُبُّ الغائب الفاني وهو الدنيا، واستبداله بالحاضر الباقي وهو الآخرة، ولذلك كان أصل الرغبة في الدنيا وإيثارها على الآخرة ضعف اليقين، فمن لم يشرق في قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير، ومن لم يشاهده أحب الدنيا، وهي لا شيء، فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيئاً، فهذا هو الطيُّ الحقيقي لمسافة الدنيا الذي يُكرم الحقُّ به أولياءه، وبه تتحقق عبوديتـهم لربهم عز وجل، لا طيُّ مسافة الأرض الذي ربما يكون استدراجاً ومكراً، ولا طيُّ الليالي والأيام بالوصل للصائم وترك الشراب والطعام، إذ لم يتمحض طاعة وبرّاً. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى: قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: ليس الشان من تطوى لـه الأرض، فإذا هو بمكة وغيرها من البلدان، إنما الشان من يطوى عنه أوصاف بشريته، فإذا هو عند ربه.

قال بعضهم في قوله: «الدنيا خطوة مؤمن»: يعني: أنْ يتخطاها بالزهد في لحظة واحدة. وقيل لأبي يزيد[1]: إن فلاناً يمشي على الماء، قال: الحوت أعجب من ذلك إذ هو شأنه، فقيل لـه: إن فلاناً يمشي في الهواء، فقال: الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله، قيل: إنَّ فلاناً يمشي إلى مكة ويرجع من يومه، قال: إبليس أعجب من ذلك يطوي الأرض كلها في لحظة، وهو في لعنة الله. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٣٩ ـ (العطاءُ منَ الخَلْقِ حِرْمان، والمَنْعُ منَ اللّـهِ إحْسَان).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: عطية الخلق لك حرمانٌ على التحقيق؛ لما فيه من رؤيتك لغير الله، ووقوفك مع حظوظك وشهواتك.

---

(١) هو: البسطامي، وقد تقدمت ترجمته.

ومنع الله كله إحسانٌ؛ لأنه ألزمك الوقوف ببابه، وعافاك من وجود حجابه، وإن شئت قلت: العطاء من الخلق حرمان؛ لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلُّد منَّتِهم في أخذ عطيتهم.

والمنع من الله إحسان؛ لأنه حبيبك، وكلُّ ما يفعل المحبوب محبوب، ولله دَرُّ من قال:

فلا أَلبَسُ النَّعْمَا وغيرُكَ مُلْبِسي ... ولا أَقْبَلُ الدُّنيا وغيرُكَ واهِبي[1]

---

(١) قال العارف بالله الشيخ جوهر بن محمد بن جوهر الأحسائي مذيلاً لهذا البيت:

ولا أنظر الأغيارَ دونك رغبةً ... وأنت مُنائي من جميع الرغائبِ
ولا أَلمَحُ الأكوانَ إلا تفكُّراً ... لصنعة باريها منيرِ الكواكبِ
ولا أُشغِلُ السرَّ المصُونَ بغيرِهِ ... فما غيرُه شيء يشوقُ لطالبِ
أَيَحسُنُ منّي أن أسيرَ لظُلمةٍ ... وأنت سِراجي في ظلام الغياهبِ
وأنت أنيسي عندَ وَحْشةِ خاطري ... وأنت جَليسي عند ذكرِكَ صاحبي

إلى أن قال:

مننتَ بكأس الحبِّ للقوم فاجتَلَوْا ... شراباً عزيزاً لا يُنالُ لكاذبِ
همُ القومُ أهلُ الله نالوا بحبِّهِ ... مقاماتِ أهل القُرب من دون حاجبِ
رحيمُهمُ الرحمنُ قبل وجودِهِمْ ... وخصَّصهم بالإعتنا والمواهبِ
وأجلَسَهم بالفضل مَقعدَ قُربِهِ ... بمحضِ اعتناءٍ لا بنَيْل المكاسبِ
أَيُنكَرُ فضلُ القوم والقومُ حبُّهمْ ... تقدَّم قبلَ الخلقِ من فيضِ واهبِ
همُ الأولياءُ العارفونَ بربِّهِمْ ... لقد مُنِحوا مجداً يفوت لحاسبِ
فأرواحُهم في حضرةِ القرب سُجَّدٌ ... وأشباحُهمْ تسعى كسعي الأجانبِ
وأسرارُهْم في حضرةِ القُدْس غُيَّبٌ ... منزَّهةٌ عن كلِّ عيبٍ لعائبِ

إلى آخرها ..

وفي وصية عليّ رضي الله عنه: لا تجعل بينك وبين الله مُنْعِماً، واعْدُدْ نعمة غيره عليك مَغْرَماً.

وقال بعض الحكماء: حمل المنن أثقل من الصبر على العدم. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى: قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أوصاني أستاذي أبو محمد عبد السلام بن مشيش[١] رحمه الله تعالى فقال: «اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإنَّ خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأنْ تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، وبُعْدٌ ترجع به إلى مولاك خير من قرب يشغلك عن مولاك». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤٠ ـ (الأكوانُ[٢] ظَاهِرُها غِرَّة[٣]، وباطِنُها عِبْرة، فالنَّـفْسُ تَنْظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتِها، والقَلْبُ يَنْظُرُ إلى بَاطِنِ عِبْرَتِها).

---

(١) هو: الشيخ الإمام العارف بالله أبو محمد عبد السلام بن مشيش الحسني، ولد في جبل العلم في ثغر تطوان وتوفي رحمه الله تعالى فيه شهيداً سنة ٦٢٢هـ وقيل: سنة ٦٢٤هـ، وقيل: ٦٢٦هـ قتله قوم بعثهم لقتله ابن أبي الطواحين الكتامي. وضريحه هناك معروف. (الأعلام ٤: ٩).
ومن وصاياه لتلميذه أبي الحسن: الله الله والناس، نزِّه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وقل: اللهم ارحمني من ذكرهم، ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير.

(٢) الأكوان: كل موجود سواه تعالى.

(٣) الغرة: ما يتغرر به. والغرة في الأكوان بثلاثة، أولها: صورة ظاهرة، والثاني: وجود منفعتها، والثالث: ما يحصل من الاستلذاذ بها، والعبرة منها بثلاثة، أولها: سرعة فنائها، والثاني: كثرة عقابها، والثالث: قلة غنائها، قال بعضهم: تركت الدنيا لسرعة فنائها، وقلة غنائها، وكثرة عنائها، وخسة شركائها.

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الأكوان ها هنا: كلُّ ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظ من متاع الدنيا وزهرتها، وهي رائقة الظاهر قبيحة الباطن، فهي من حيث ظاهرها محبوبة حلوةٌ خَضِرة، وبالنظر إلى باطنها جيفةٌ قذرة؛ فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغترّ بها، فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيَسْلَم من شرها.

وكان بعض الأولياء يقول: «ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لي باطنه فظهر لي غرور عنها».

قال أبو طالب المكي[1] رضي الله عنه: «فهذه عناية الله تعالى لمن ولاَّه من أولياء الله تعالى المقربين، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخرها، ومَن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها، ومن كُوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها». انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى: الأكوان من حيث هي لها ظاهر وباطن، ظاهرها غِرَّةٌ وهي لأهل الاستدراج، وباطنها عِبْرةٌ وهي لأهل البصائر والقلوب السَّليمة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غِرَّتِها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها؛ لأنّ النفس لا تنظر إلى حقائق الأمور؛ لعدم النور، لتكاثر ظلمة الطبيعة، بخلاف القلب فإنه نور، والنور يطرد الظلمة، وهي الأكوان، وينظر بالنور إلى النور الحقيقي، فالأكوان للقلب بمثابة المطِيَّة للراكب؛ لأنه ينظر فيها بعين العبرة والافتكار، فتوصله إلى حضرة الأنوار ومعدن الأسرار، فحاصله: أنّ الأكوان

---

(١) هو: محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، أبو طالب، صاحب (قوت القلوب). نشأ بمكة وتزهد وسلك، ولقي الصوفية، وصنف ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، وكان على نحلة أبي الحسن بن سالم البصري شيخ السالمية. مات سنة (٣٨٦هـ). (العبر ٢: ١٧٠).

كلها ظلمة وأغيار، فالنفس مع الأغيار لم ترَ حقيقةً قط، والقلب إنْ رأى الأغيار رآها بعين الحق فلم يشهد غيراً قط. والله أعلم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤١ ـ (إنْ أردتَ أن يكُونَ لكَ عِزٌّ لا يَفْنَى، فلا تَسْتَعِزَّنَّ بعِزٍّ يَفْنَى).

قال ابن عباد: العـزُّ الذي لا يفني هو: الغِـنَى عن الأسباب كلها بوجود مسببها؛ لأنه باقٍ لا يفنى، فالتعلق به عزٌّ لا يفنى.

والعزُّ الذي يفنى هو: التعلق بالأسباب مع الغيبة عن مسببها؛ لأنها فانية، فالتعلُّق بها عزٌّ فانٍ لا يبقى.

والتعلق بالله تعالى عزٌّ لا يفنى، وليس لك إلا أحدهما؛ لأنهما ضدان لا يجتمعان، فإن اخترت العزَّ الباقي بالله تعالى لم يقدر أحدٌ أن يذلك.

يُحكى أن رجلاً أمر بالمعروف لهارون الرشيد، فحَرِدَ[1] عليه هارون الرشيد، وكانت له بغلةٌ سيئة الخلق، فقال: اربطوه معها تقتله برِجْها، ففعلوا ذلك فلم تضرَّه، فقال: اطرحوه في بيت وطيِّنوا عليه الباب، ففعلوا ذلك، فرئي في بستان وباب البيت مسدود، فأُخبر هارونُ بذلك، فأتي بالرجل فقال: من أخرجك من البيت؟ فقال: الذي أدخلني البستان، فقال: ومن أدخلك البستان؟ فقال: الذي أخرجني من البيت، فقال: أركبوه دابةً وطوفوا به في البلد وليقل قائل: «ألا إن هارون قد أراد أن يذل عبداً أعزه الله فلم يقدر».

وإن أردت العزَّ بالأسباب خذلتك، وأسلمتك أحوج ما تكون إليها، وكنت في غاية الذل والهوان.

---

(١) حرد: غضب.

قال في التنوير[1]: فإن اعتززت بالله دام عزُّك، وإن اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك؛ إذ لا بقاء لمن أنت به معتز. قال: وأنشد بعض الفضلاء:

لِيكُنْ بِرَبِّكَ كُلُّ عِزِّ ... كَ يَستقِرُّ ويَثبُتُ

فإنِ اعتَزَزْتَ بِمَن يَمُو ... تُ فإنَّ عِزَّكَ ميِّتُ

انتهى.

* * *

(١) كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» لصاحب الحكم ابن عطاء الله السكندري، وهو مطبوع متداول.

باب مدح الفقر والفاقة

الفقر على ثلاث درجات:

الأولى: وهو فقر الزهاد، والتبري من رؤية الفقر من الأموال.

الثانية: التبري من رؤية الأعمال والمقامات.

والثالثة: التبري من رؤية كونه متبرياً.

وهو بكل حال ممدوح ومطلوب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراءُ الجنةَ قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمئة عام»[1]، أي: من أيام الآخرة، والفقر شعار الأولياء، وحلية الأصفياء، واختيار الحق سبحانه لخواصّه من الأتقياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والفقراء صفوة الله تعالى من عباده، ومواضع أسراره من خلقه، بهم يَصُونُ الخلق، وببركاتهم يبسطُ الرزق، والفقراءُ الصُّبَّرَ[2] هم جلساءُ الله يوم القيامة[3]؛ بذلك

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٣)، وابن حبان (٦٧٦)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (٢: ٢٩٦ و٤٥١)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال الحافظ: ورواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) الصُّبَّرَ: الصابرون.

(٣) قوله: هم جلساء الله.. إلخ، أي: بأن يكرمهم ويرفع درجاتهم؛ لأنه منزه عن أن يجلس أو يجالس؛ لكن لما كان من المعهود فيما بيننا أن من جالس الملوك كان مكرماً مرفوع الدرجة أطلقت المجالسة وأريد به ما قلناه. انتهى. من «شرح الرسالة» لشيخ الإسلام القاضي زكريا رحمه الله تعالى.

ورد الخبر عن النبي ﷺ[1]. وقيل: إنَّ رَجُلاً أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه، وقال له: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك.

فيه دلالة على شدة حب الفقر عندهم، وأنهم يقبضون عليه بالنواجذ، كيف لا وهو حال النبي ﷺ الذي كان يختاره لنفسه، ويدعو به لأهله، ويصف بالفلاح من اتصف به؟ ففي الخبر: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[2]، وروي: «كفافاً»، وفيه أيضاً: «قد أفلح من أسلم وكان قوته كفافاً، وقَنَّعَهُ الله بما آتاه»[3]. وقد سئل يحيى بن معاذ[4] عن الفقر، فقال: حقيقته أن لا يستغنيَ العبد إلا بالله تعالى، أي: دون خلقه؛ لأنَّ من افتقر إليهم لم يستغن بالله، وقلَّتْ معرفته به، ومن صحَّت معرفته به، وأنه لا ملك لغيره حقيقة، لم يفتقر لغيره.

---

(١) رواه ابن لال عن ابن عمر كما في كنز العمال (٦: ٤٦٩) رقم (١٦٥٨٧)، والحديث كما في «الرسالة القشيرية»: «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء الصُبَّر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة».

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، والترمذي (٢٣٦١)، وابن ماجه (٤١٣٩)، وابن حبان (٦٣٤٣و٦٣٤٤). قوتاً: أي: بقدر ما يمسك الرمق من المطعم.

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤)، والترمذي (٢٣٤٩). والكفاف من الرزق: ما كفى عن السؤال مع القناعة، لا يزيد على قدر الحاجة. والقناعة: الرضا.

(٤) هو: أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، فريد عصره. له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة. خرج إلى بلخ، وأقام فيها مدة ثم رجع إلى نيسابور، سمع من إسحاق بن إبراهيم الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وغيرهما، توفي سنة ٢٥٨هـ.

(من كلامه) رضي الله عنه: كيف يكون زاهداً من لا ورع له؟! تورع عمّا ليس لك، ثم ازهد فيما لك. وقال: من خان الله في السرّ، هتك الله ستره في العلانية. (الرسالة ٤١٤، وصفة الصفوة ٤: ٩٠، وحلية الأولياء ١: ٥١).

ورسمُه، أي: الفقر، عدم الأسباب كلها؛ لئلا يكون اعتماده عليها. وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إذا رأيت الفقراء فتسائلهم، أيْ: حدثهم كما تسائل الأغنياء، فإن لم تفعل ذلك فاجعل كلَّ شيء علَّمتُك تحت التراب.

هذا إرشاد لنفي الكبر والعظمة على الفقراء، وأن تحادثهم كما تحادث الأغنياء، خلافاً لما عليه غالب الناس، والغرض من إيحاء الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام أن يُعَلِّمه لبني إسرائيل، وإلا فالأنبياء معصومون من الكبر، فأجرى ذلك مجرى التعليم للأمة، كما قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ولم يطردهم، وإنما قال له أغنياء قريش وعظماؤهم: فإنا نتأذى بروائحهم كبلال وعمار وصهيب، اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فهَمَّ بذلك، فأنزل الله تعالى ذلك رداً عليهم، وأمره أنهم إذا أتوه فليسلم عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكان النبي ﷺ يقول لهم إذا أتوا إليه: «مرحباً بمن عاتبني فيهم ربي»، ويدنيهم إليه. انتهى ملخصاً من «رسالة القشيري وشرحها» لشيخ الإسلام زكريا رحمهما الله تعالى.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

٤٢ ـ (ورُودُ الفَاقات أعيادُ المُرِيدين).

قال الأهدل رحمه الله تعالى: لكونها تجمعهم على الله: تارةً بالرغبة، وتارة بالرهبة، وتارة بالسكون تحت الجلال، وفي الخبر: أنه ﷺ لما عُرِضَتْ عليه مفاتيح الأرض قال: «لا، يا رب أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فإن جعت تضرعت، وإن شبعت حمدتك وشكرتك»[1]. انتهى.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ : ٣١٢) وقال: رواه البزار، وإسناده حسن.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: «الأعياد عبارةٌ عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، وهم مختلفون في ذلك، فمنهم مَن مَسَرَّتُهُ وفرحُه بوجود حظِّه، ونيْل شهوته وغرضه، وهذا هو حال عامة المسلمين، ومنهم مَن مسرَّتُه وفرحه بفقدان حظوظه، وإعواز أمانيه وأغراضه، وهذا هو حال الخاصة من المريدين؛ لأن مدار أمرهم إنَّما هو على مراعاة قلوبهم، وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضروب الفاقات، وأنواع الحاجات والضرورات، فتراهم يؤْثرون الفقر على الغنى، والشدَّة على الرخاء، والذلَّ على العزّ، والمرَض على الصحة؛ إذ تحصل لهم بذلك رقَّةٌ وحلاوة لا يعرف قدرها إلا هُم؛ لأنها من وجودهم لقرب ربِّهم ورؤيتهم له في حال فقدان حظِّهم، وكلما ازدادوا فاقةً وبلاءً، زادهم مولاهم قُرْبةً وولاءً».

قال في التنوير: «وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمها إلاَّ أولو البصائر، ألم ترَ أن البلايا تُخمِد النفس وتذهلها وتدهشها عن طلب حظوظها، ويقع مع البلايا وجود الذلة، ومع الذلة تكون النُّصْرة؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال أبو إسحق إبراهيمُ الهروي[١] رضي الله عنه: «من أراد أن يبلغ الشرف كُلَّ الشرف فليختر سبعاً على سبع؛ فإنَّ الصالحين اختاروها حتى بلغوا سَنَامَ الخيرات: اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشِّبَع، والدُّون على الرفع، والذُّل على العز، والتواضعَ على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة». انتهى.

---

(١) من أقران أبي يزيد، صحب ابن أدهم رضي الله عنه وغيره، وهو من المذكورين بالتوكل، والتجرد الكبير. مات بقزوين. (تاريخ بغداد ١: ١٢٠، والسلمي ص٧١، والطبقات الكبرى للشعراني ١: ٥٥، والكواكب الدرية للمنلوي ١: ٣٣٥).

قال رحمه الله تعالى:

٤٣ ـ (رُبَّما وَجَدْتَ منَ المَزِيدِ في الفَاقاتِ مَا لا تَجِدُهُ في الصَّومِ والصَّلاة).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: «ورود الفاقات يحصل للمريد بها مزيدُ كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة، وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة؛ لأنَّ الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى كما تقدم، وما كان هذا سبيلهُ لا يؤمَن عليه فيه من دخول الآفات، فلا يفيده تحليةٌ ولا تزكية؛ بخلاف ورود الفاقات، فإنها: مباينة للهوى والشهوة على كل حال». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: لأنَّ صاحب الفاقة والافتقار إلى الله تعالى خالٍ من مواجد النفس، متعبدٌ من ملابس طبعه، وذلك سبب لحصول المدد، ومزيد النعم، وصاحبُ العبادة: الناظرُ إليها مع نفسه؛ ولهذا أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلي بقوله: «شهود المنة مع قليل العمل خير من كثير العمل مع شهود التقصير من النفس». انتهى. لأن شهود المنة من الله تعالى في العمل قد يدل على إسقاط وجود العامل، وعدم وقوفه مع نفسه، وأما شهود التقصير من النفس في العمل فيدلُّ على وقوف العامل مع نفسه، ونظره إلى عمله؛ لأنه لو شهد الفضل والمنة حجب بذلك عن رؤية التقصير من نفسه، ولم يشهد غير قضاء ربه، ولهذا افتقر إليه؛ لأن من خلا من نفسه بقي بربه. انتهى.

* * *

باب بيان تزكية النفس والتحذيرِ من دسائسها

اعلم: أنَّ النَّفْسَ أضرُّ الأعداء، وداءُها أعضلُ الداء، ومخالفةُ هواها أفضلُ الأشياء. قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. وقال ﷺ: «أخوَفُ ما أخافُ علَى أُمَّتيَ اتِّباعُ الهَوَى، وطُولُ الأمل، فأمَّا اتِّباعُ الهَوَى فيَصُدُّ عنِ الحقِّ، وأمّا طُولُ الأملِ فيُنْسِي الآخِرة»[1].

وقال ذو النون المصريُّ رحمه الله تعالى: «مفتاحُ العبادة الفكر، وعلامةُ الإصابة مخالفةُ النَّفْس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما».

وقال سهل بن عبد الله: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ مثل مخالفة النفس والهوى».

وقال الحسن: «ما الدَّابَّةُ الجَمُوحُ بأحوجَ إلى اللِّجامِ الشَّديد من نَّفْسِك».

وقال يحيى بن معاذ: «أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات».

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٥: ١٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧: ١٠٦١٦) عن جابر، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير رقم (٣٠٦). وقال في كنز العمال (١٦: ٢٢ رقم ٤٣٧٦٤ - ٤٣٧٦٥): وأخرجه ابن النجار، وابن عساكر عن علي موقوفاً، والحاكم في تاريخه، والديلمي عن جابر أيضاً.

وما أحسنَ قولَ بعضِهم في ذلك:

إنّي بُلِيتُ بأرْبَعٍ مَا سُلِّطُوا ... إلاَّ لِعُظْمِ شَقَاوتي وبَلائي

إبْليْسُ والدُّنيا ونَفْسيَ والهَوَى ... يا رَبِّ كُنْ عَوْني علَى أعدائي

واعلم: أنَّ أصل مجاهدة النفس فطمها عن مألوفاتها، وحملها على خلاف هواها في عموم أوقاتها، وذلك بمنعها ما تطلبه من شهواتها، ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَوات، وحُجِبَتِ الجَنَّةُ بالمكَارِه»[1]، وقال عليٌّ رضي الله عنه: «من اشتاق إلى الجنة سَلا عَن الشَّهوات».

وقال أبو يحيى الوراق: «من أرضى الجوارح بالشهوات غَرَس في قلبه شجرَ الندامات».

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت. قال: فمتى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.

وقال أبو سليمان: «ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة، فعلى العبد أن يكسر هواها بمنع الشهوات، ويذللها بتحمل أثقال العبادات، ويستعين بالله تعالى عليها في جميع الأوقات، وسائر الحالات».

قال حجة الإسلام في «منهاجه»: «قال علماؤنا رضي الله عنهم: إنَّما يُذَلِّلُ النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء، **أحدها**: منع الشهوات، فإنَّ الدَّابة الحرون تلين إذا نقص من علفها. **والثاني**: حمل أثقال العبادات عليها؛ فإن الحمار إذا زيد في حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد. **والثالث**: الاستعانة بالله تعالى، والتضرع إليه،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣) عن أبي هريرة.

بأن يعينك، وإلاَّ فلا مخلص، أما تسمع قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. فإذا واظبت على هذه الثلاثة انقادت لك النَّفْسُ الجموح بإذن الله تعالى». انتهى.

ثم إنَّ أصل جميع الصفات المحمودة هو عدم الرضا عن النفس، مع التهمة لها في جميع الأحوال، وأصل جميع الصفات المذمومة هو الرضا بما تستحسنه من الأفعال. ولهذا قال أبو حفص[١] رضي الله عنه كما نقله القشيري في «رسالته»: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرَّها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]؟!

وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تسكن إلى نفسك وإنْ دامت طاعتها لك في طاعة ربك.

وقد ذكر حُجَّةُ الإسلام في «منهاجه»[٢]، عن أحمد بن أرقم البلخي رحمه الله تعالى قال: نازعتني نفسي بالخروج إلى الغزو، فقلت: سبحان الله! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذه تأمرني بالخير، لا يكون هذا أبداً، ولكنَّها استوحشت فتريد لقاء الناس فتستريح إليهم،

---

(١) أبو حفص النيسابوري، واسمه عمرو بن سلم، وقيل: عمرو بن سلمة، وهو من أهل قريةٍ على باب مدينة نيسابور يقال لها: كورداباذ. رافق أحمد بن خضرويه البلخي وغيره من العباد، وصفه الجنيد بأنه من أهل الحقائق وأهل العلم البالغين. توفي سنة (٢٧٠هـ)، ويقال: (٢٦٧هـ)، ويقال: (٢٦٤هـ)، ويقال: (٢٦٥هـ). صفوة الصفوة (٤: ١٠٧) لابن الجوزي.

(٢) منهاج العابدين (٢: ١٦).

ويتسامع النَّاسُ بها فيستقبلونها بالتعظيم والبر والإكرام، فقلت لها: لا أُنزلك العمران، ولا أُنْزِلك على معرفة، فأجابَتْ، فأَسَأتُ الظَّنَّ بها، وقلت: الله تعالى أصدق القائلين، فقلت لها: أقاتِلُ العدوَّ حاسراً فتكونين أول قتيل، فأجابَتْ، وعدَّ أشياء مما أرادها؛ فأجابت إلى ذلك كله، قال: فقلت: يا رب، نبهني لها فإني مُتَّهِمٌ لها مصدِّق لك، فكُوشِفْتُ بها كأنها تقول: يا أحمد، أنت تقتلني كل يوم بمنعك إياي من شهواتي مرات، وبمخالفتك، ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت قتلت مرة واحدة، فنجوتُ منك، ويتسامع الناس، فيُقالُ: استشهد أحمد، ويكون لي شرف وذكر، قال: فقعدت ولم أخرج إلى الغزو في ذلك العام. ولله در القائل:

تَــوَقَّ نَفْــسَكَ لا تَــأْمَنْ غَوائلَهـــا فالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِن سَبْعينَ شَيْطانا

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

٤٤ ـ (تشوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ منَ العُيُوب، خيرٌ مِن تشوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عنكَ منَ الغُيُوب)[١].

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: حكم المريد أن يتشوَّف إلى معرفة ما غاب عنه من معائب نفسه ويتطلبها، ويبحث عنها، فإنَّ ذلك هو حق الحق تعالى منه،

---

(١) قال القشاشي في شرحه: فمتى صار له من الله تعالى قوة التشوق إلى ما بطن فيه من العيوب حاسب نفسه على أدنى ميلها وعدم استقامتها في الفعل في كل لحظة ونفس لدوام العمل والمعاملة وعدم إمكان الفترة بلحظة تخلل منه زمناً فرداً، فمتى كان بهؤلاء السبيل والعدد أمده الحق بأضعاف المدد؛ لأنه من تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، وهذا سر التضعيف من اللطيف بالضعيف، فيمده الله بجود حوله وقوته، في سمعه وبصره ويده ورجله، وصبره وشكره وحمده وتوكله، ودوام إقباله في حاله ومآله بجميع حاله. (انتهى. ملخصاً. مؤلف).

فينبغي أن يَحرِصَ عليه، ويصرِف عِنَان[1] اعتنائه إليه؛ ليحصل لـه صفاء أعمالِهِ من الآفات، ونقاء أحواله من الكُدورات، وينتفي عنه الجهل والغرور، وينقطع من باطنه مواد الشرور.

وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه «رياضة النفس» فصلاً في الطريق الذي به يتعرَّف الإنسان عيوب نفسه، فلينظر فيه المريد، وقد جعل حاصله أربعة أوجه، **أحدها**: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكِّمه في نفسه، ويتبع إشارته فيما يشير عليه. **والثاني**: مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيباً على أحواله وأعماله، لينبِّهه على ما يخفى عليه من مذامِّ خِلاله. **والثالث**: أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه، إذ لا بدَّ من جريان ذلك على ألسنتهم عند ثلبهم وغيبتهم. **والرابع**: أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس، إذ يطلع بذلك على مساوئهم، فإذا اطَّلع عليها منهم علم أنه لا ينفك هو عن شيء منها؛ لأن كُلَّ الطِّباع البشرية في ذلك متقاربة، وقد يظهر له في نفسه ما هو أعظم مما يراه في غيره، فيطالب نفسه حينئذ بالتطهُّر منها، والتنزه عنها، فهذا تلخيص ما ذكره.

ثم قال: وهذه كلها حِيَلُ مَن فقَدَ شيخاً بصيراً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس، مشفقاً، ناصحاً في الدين، فارغاً من تهذيب نفسه، مشغولاً بتهذيب عباد الله، ناصحاً لهم، فمن وَجَدَ الطَّبِيبَ فليلازِمْه، فهو الذي يخلِّصه من مرضه، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده. انتهى.

وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القَدَر، ولطائف العِبَر؛ فإن حظ نفسه لا حقَّ عليه فيه للحق تعالى، فليطب عنه نفساً، ولا يشغل بها عقلاً ولا

---

(١) عِنان الفرس (بكسر العين): لجامه الذي به يوجه ويقاد، والمراد هنا: أن يوجه همته إلى البحث عن معائب نفسه واكتشاف مثالبها.

حسّاً، وما ظهر له منها لا يسكن إليه، ولا يعول عليه؛ فإن ذلك من المعائب القادحة في عبوديته؛ ولذا قالوا: «كن طالب الاستقامة، ولا تكن طالب الكرامة؛ فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحقِّ مولاك أولى بك من أن تكون بحظِّ نفسك». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: «تشوفك إلى ما بَطَنَ فيك من العيوب»، أي: عيوب نفسك؛ وهي صفاتها ودسائسها التي تصدك عن طريق الاستقامة، والإخلاص خير لك من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب، وهي الأسرار التي ترد عليك بعد رفع حجاب النفس؛ ولهذا أشار الأستاذ رضي الله عنه في غير هذا الكتاب بقوله: «قد جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب، فمن قام بالعبودية والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه، وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب، فتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب، وإنَّ ملكوت الله تعالى لا يؤذَن بالدخول فيه إلا لمن طهر من آفات البشرية بالتخلق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقق بالعبودية بالامتثال لأمر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإنْ تصل إلى ذلك فلك مَفسَح في الغيب، ومستوطَن في الملكوت، وواصلتك الأمداد، وقابلك من الله الازدياد، وتتوصل إلى ذلك بإقلال النظر إلى الظواهر، ورعايتك للسرائر، فإنه لا يشفي السرائر برهان الظواهر، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسلكوها على منهج حق، ولا دخلوا فيها مدخل صدق، فلو إذ فعلوا لم تحتجب عنهم المطالب، وكان ما يطلبونه لهم طالب». انتهى كلام الأستاذ في هذا المحل.

فإن كنت من أهل العناية والاستبصار سلكت الطريق على منهج حق بواسطة مرشدٍ كامل عارف، فإن لم تجد فالخير أجمع في متابعة الكتاب والسنة؛

لأنَّ كتاب الله أوثق شافع، فكتاب الله كفاية الله لك. قال عليه الصلاة والسلام: «هُوَ الفَصْلُ، ليسَ بالـهَزْلِ، مَن تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، ومَن ابْتَغَى الـهُدَى في غيرِهِ أَضَلَّهُ الله، وهُوَ حَبْلُ اللّـهِ المتِين والصِّراطُ المُستقيم»[1]... الحديث. فإذا دخلت إلى حضرة الله بالصدق والإخلاص، وصلت إلى غاية اليقين وحقه، وانكشف لك عن وجود الحق، فشهدته بنور الإيمان كالعيان. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤٥ ـ (اخْرُجْ مِن أَوْصافِ بَشَرِيَّتِكَ عَن كلِّ وَصْفٍ مُناقِضٍ لِعُبُودِيَّتِك، لِتكُونَ لِنداءِ الحقِّ مُجِيباً، ومِن حَضرتِهِ قريباً).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: أوصافُ البشرية المتعلِّقة بأمر الدين نوعان، **أحدهما**: ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه، وهي الأعمال. **والثاني**: ما يتعلق بباطنه وقلبه، وهي العقود. فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم إلى قسمين، **أحدهما**: ما وافق الأمر، ويسمى طاعة. **والثاني**: ما خالفه، ويسمى معصية.

وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فينقسم إلى قسمين، **أحدهما**: ما وافق الحقيقة، ويسمى إيماناً وعلماً. **والثاني**: ما خالفهما، ويسمى نفاقاً وجهلاً.

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى في الاصطلاح تفقهاً، والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى في الاصطلاح تصوفاً.

فهذان الأمران هما كُلِّـيَّةُ العبد، وظاهرُهُ تابعٌ لباطنه بالضرورة؛ لأنَّ القلبَ هو الـمَلِكُ، والجوارحُ جُنودُهُ ورعيته، ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ حيث قال: «إنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهِيَ القلب»[1].

وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها: دقيقها وجليلها، وهذه هي الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التي أشار إليها المؤلف رحمه الله تعالى، وهي التي تَسِمُ صاحبها بسمة النفاق والفسوق، وهي كثيرة مثل: الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب الجاه والمال. ويتفرع من هذه الأصول فروع كثيرة خبيثة من: العداوة والبغضاء، والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء، وترك الثقة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر، والغل، والغش، والمباهاة، والتصنع والمداهنة، والقسوة والفظاظة والغلظة والجفاء، والطيش والعجلة، والحدَّة والحميَّة وضيق الصدر، وقلة الرحمة وقلَّة الحياء، وترك القناعة، وحبُّ الرياسة، وطلب العلو، والانتصار للنفس إذا نالها الذل، وذهاب مُلك النفس إذا رُدَّ عليه قوله، إلى غير ذلك من النعوت الذميمة، والأخلاق اللئيمة.

وأصل فروعها وعنصر ينابيعها: إنما هو رؤية النفس، والرضا عنها، وتعظيم قدرها، وترفيع أمرها، فبهذه الأمور كَفَرَ مَن كَفَر، ونافق من نافق، وعصى من عصى، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه ـ عز وجل ـ من خلع.

وشأن الصوفي إنما هو النظر فيما يُطَهِّرهَا ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات، وقد بيَّنُوا طرق ذلك في كتبهم.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠١٨٠)، وغيرهم.

فإذا قام المريد بذلك على هذا الوجه الذي وسموه له، والتزم الوظائف التي أمروه بها طَهُرَ قلبُه، وتزكت نفسه، واتصف بمحاسن الصفات التي تزيِّنه بين العباد، وينال بها من قرب ربه غاية المراد، فتظهر عليه حينئذ آثارٌ حميدة من التواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والهيبة له، والخوف منه، والتذلل لربوبيته، والإخلاص في عبوديته، والرضا بقضائه، ورؤية المنة له في منعه وعطائه، ويتصف فيما بين خلقه: بالرأفة والرحمة، واللِّين والرفق، وسعة الصدر والحلم والاحتمال، والصيانة، والنزاهة، والأمانة والثقة، والعطف، والتأني، والوقار، والسخاء والجود، والحياء، والبشاشة، والنصيحة، وسلامة الصدر، إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التي ينال العبد بها غاية السعادة، والحسنى والزيادة.

قلت: وهذان المعنيان هما اللَّذان يُعَبَّر عنهما أئمة الصوفية رضي الله عنهم بـ«التخلي والتحلي»، أي: التخلي من الصفات المذمومة، والتحلي بالصفات المحمودة. ويعبرون أيضاً عنهما بـ«التزكية والتحلية». وهما حقيقة السلوك الذي يعبرون عنه أيضاً، وستأتي الإشارة إلى كيفية ذلك عند قوله: «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين».

فإذا صحَّ للمريد هذا السفر، وانقلب منه إلى أفضل مستقر، تحققت عبوديته لربه عز وجل، لم يملكه غيره، ولم يَسْتَرِقَّهُ سواه، وارتقى في القرب من ربه إلى أشرف محل، فيكون هناك منزله ومثواه، فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى: «لنداء الحق مجيباً»؛ لأنه إذ ذاك يناديه باسم العبد، فيقول له: يا عبدي، فيجيب حينئذ مولاه باسم الربِّ، فيقول له: لبيك يا رب، فيكون صادقاً في إجابته، متحقِّقاً في نسبته، ويكون أيضاً من حضرته قريباً، لوجود بُعده عن نفسه التي من شأنها النفور عنها، والفرار منها. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى: الإجابة والله أعلم، في هذا المحل هي موافقة الإرادة بواسطة التوفيق. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبودية مراد الله لخلقه، ومراد محمد رسول الله ﷺ لنفسه، وأما حضرة الله فهي كل قلب خلا عما سواه؛ لأن القلب إذا خلا مما سوى الله كان قريباً من الله؛ بل يصير حضرة الله محل أسراره، ومهبط أنواره. والله أعلم. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى عند قوله: «لنداء الحق مجيباً»: بامتثال أمره، «ومن حضرته قريباً» بالاستسلام لقهره، وذلك يقتضي وجود الحفظ من الله تعالى، حتى لا يَلُمَّ العبدُ بمعصية، وإن ألم بها فلا تصدر منه، وإذا صدرت منه فلا يُصِرُّ عليها، إذ الحفظ: الامتناع من الذنب مع جواز الوقوع فيه، والعصمة: الامتناع من الذنب مع استحالة الوقوع فيه، فالعصمة للأنبياء، والحفظ للأولياء. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤٦ ـ (أَصْلُ كلِّ مَعْصِيةٍ وغَفْلَةٍ وشَهْوةٍ: الرِّضَا عنِ النَّفْسِ، وأَصْلُ كلِّ طَاعةٍ ويَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ: عَدَمُ الرِّضَا مِنكَ عنها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الرِّضا عن النفس أصلُ جميعِ الصفاتِ المذمومة، وعدمُ الرضا أصلُ جميع الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميعُ العارفين وأربابُ القلوب، وذلك لأنَّ الرِّضا عن النَّفس يوجب تغطية عيوبها، ويُصَيِّرُ قبيحها حسناً كما قيل:

وعَيْنُ الرِّضَا عن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وعدمُ الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما تظهر من الطَّاعات والانقياد، كما قيل في الشطر الآخر:

كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة يتصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه.

ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف كان متيقِّظاً، منتبهاً للطوارق والعوارض، وباليقظة والتنبه يتمكن مِن تَفَقُّد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيرانُ الشَّهوة، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة، فإذا صار عفيفاً كان مجتنباً لكل ما نهى الله عنه، محافظاً على جميع ما أمره به، وهذا هو معنى الطاعة له عز وجل، وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه.

فإذاً لا شيءَ أوجبُ على العبد من المعرفة بنفسه، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها، وبقدر تحقق العبد في معرفة نفسه يصح له حاله، ويعلو مقامه، وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمّنة لعيبهم لنفوسهم، والتهمة منهم لها، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن تحصى، ولذلك قال أبو حفص رضي الله عنه: «منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إليّ نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك».

وقال أبو سليمان الداراني[١] رضي الله عنه: «ما رضيت عن نفسي طرفة عين».

ويحكى عن سري السقطي رضي الله عنه أنه قال: «إني لأنظر إلى وجهي في اليوم كذا وكذا مرة، مخافة أن يكون قد اسودَّ، لما أخافه من العقوبة».

وقال أيضاً: «إنَّ منَ النَّاسِ ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم». إلى غير هذا من العبارات الصادرة عن المشايخ رضي الله عنهم في هذا المعنى. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤٧ ـ (ولأنْ تَصْحَبَ جاهلاً لا يَرضَى عن نفسِهِ، خيرٌ لكَ مِن أنْ تَصحَبَ عالِماً يَرضَى عن نَفْسِه، فأيُّ عِلْمٍ لعالمٍ يَرضَى عن نفْسِه! وأيُّ جَهْلٍ لِجاهلٍ لا يَرضَى عن نفْسِه!).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: فائدة الصحبة إنما هي للزيادة في الحال وعدم النقصان فيها، حسبما يأتي الكلام عليه عند قوله: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله».

فصحبة من يرضى عن نفسه، وإن كانَ عالماً، شرٌّ مَحْضٌ لا فائدة فيها؛ لأنَّ عِلمَهُ غيرُ نافعٍ له، وجهلُهُ الذي أوجبَ رضاهُ عنْ نفسِهِ ضارٌّ غاية الضرر، وكأنه إذا فاته هذا العلم، الذي يريه عيبه حتى لا يرضى عن نفسه، لا علم عنده.

---

(١) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الزاهد القدوة، أحد الأبدال، كان عديم النظير زهداً وصلاحاً، وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ، ونسبته إلى داريا بغوطة دمشق، والعنسي نسبة إلى عنس بن مالك: رجل من مذحج، قال ابن ناصر الدين: كان إماماً أميناً ثقة مأموناً، توفي سنة (٢١٥ هـ). صفة الصفوة (٤: ٢٢٣)، شذرات الذهب (٢: ١٣).

وصحبةُ من لم يرضَ عن نفسه، وإن كان جاهلاً، خيرٌ محضٌ، ففيه كلُّ الفائدة؛ لأنّ جهلَهُ غيرُ ضارّ، وعلمه الذي أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع، وكأنه إذا حصل له هذا العلم لا جهل عنده. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى: والذي للعبد في هذا المحل؛ أن الذي لا يرضى عن نفسه هو الذي عرفها وجهل مقامها، ولهذا كان غير راض عنها؛ لأنَّ الجاهل الذي لا يرضى عن نفسه ليس بجاهل؛ لأن غاية الجهل: في الرضا عن النفس، وأما العالم الذي يرضى عن نفسه فهو، والله أعلم، عالم بالأحكام المترتبة على الحواس الظاهرة، جاهل بنفسه؛ لأنه لو كان عالماً بها ما رضي عنها، وكل من يرضى عن شيء: أحبه وأثنى عليه، وكان حظه وحضرته، وهؤلاء حضرتهم نفوسهم، فإنهم أرشدوك إليها، ومن أرشدك إلى نفسه حجبك عن ربك، وأبعدك عن حضرته، ولهذا كانت صحبته للأول خيراً من صحبته للثاني وأنفع؛ لأنَّ الأول بربه، والثاني بنفسه.

وأمَّا العلمـاءُ بالله، الوارثون علم الأنبياء عليهم السلام، كشف لهم عن ملكوت السموات، وشاهدوا من الآيات البينات ما لا يمكن شرحه، بعد أن خرجوا من نفوسهم بالكلية، ولم يرضوا بها، ولا عنها، ولا وقفوا مع ظواهر الحواس، ولا أرض الصورة، فكان حضرتهم حضرة جلال الربوبية، وإرشادهم إليها. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٤٨ ـ (كيفَ تُخرَقُ لكَ العوائدُ وأنتَ لم تَخرِقْ مِن نفْسِكَ العوائد!).

قال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى: خرق العوائد منها ما يكون في الخارج، ومنها ما يكون فيك، فمـا في الخارج طي الأرض، واختراق الهوا، والمشي على الماء،

والدخول في النار فلا تحْرق، وفي الماء فلا يغرق، وما والاها، ومِمّا فيك تبدل مساوئك بالمحاسن، وهو الشطر الثاني المراد الذي أشار إليه الشيخ بقوله: «وأنت لم تخرق من نفسك العوائد»، فهو يريد أنْ يَدُلَّك إلى سبب الخرق، وكيفية الطريق إليه[١]، فإذا أردته فاقصده من نفسك، فإنَّك لا ينخرق لك في الخارج إلا بما تخرقه من نفسك من تبديل أخلاقها السيئة بأخلاق الله الحسنة، حتى تصير بالوصف الإلهي فعَّالاً، وإلا فلا، لعدم حصول الخارجي بدون الداخلي، فهو بابه ومفتاحه، كما أرشدك الله، فحيث أردتَ ذلك فمن نفسك تجده، فكلُّ مَا في الخارج فيك، وما فيك مفتاحه أنت، فما لم تفتحه من نفسك، لا تلجه من الخارج، هذا سبيله فحسب؛ فلهذا دلَّك عليه؛ لئلا تغلط فتطلبه من الخارج، وأنت باق مع عوائدك ومألوفاتك وشهواتك لم تخرقها، فمتى خرقتها من نفسك فيها تكرم بالشيء في أوانه، وتطوي الزمان والمكان في غير كيانه، وهديت إلى سواء السبيل فعليك بها. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يُكْرِمُ الحقُّ تعالى به إلا من خرق عوائد نفسه، وفَنِيَ عن إرادته وحظوظه، فمن لم يصل إلى هذا المقام لا يطمع فيها، وإن ظهر له ما صورته صورة الكرامة، فينبغي له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر؛ حيث لا يحب ذلك ولا يطلبه، فإنْ أحبه أو طلبه فهو دليل على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة؟! وهل هذا إلاَّ محال لا يستقيم؟ انتهى.

---

(١) وذلك بثلاثة أشياء: إقامة الفرض، والإعراض عن الخلق، وإيثار الصدق الناشئ لمن تحقق للعبودية الموجب للتعلق بالربوبية، فلا تُلازِمْ أوصافَك، وتعلَّق بأوصاف ربِّك، وقُلْ من بساط الفقر الحقيقي: يا غني، من للفقير غيرك؟! تجد الإجابة كأنها طوع يدك. انتهى. من شرح الأهدل.

قال رحمه الله تعالى:

٤٩ ـ (كيفَ يُشرِقُ قَلبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنطبِعةٌ في مِرآتِه! أم كيفَ يَرحَلُ إلى اللّـهِ وهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَواتِه! أم كيفَ يَطمَعُ أن يَدخُلَ حَضْرةَ اللّـهِ وهُوَ لم يَتَطَهَّرْ مِن جَنابَةِ غَفَلاتِه! أم كيفَ يَرْجُو أن يَفهَمَ دَقائقَ الأسْرارِ وهُوَ لم يَتُبْ مِن هَفَواتِه!).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الجمع بين الضدين محال، كاجتماع الحركة والسكون، والنور والظلمة. وهذه الأشياء التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى أضداد لا تجتمع، فإنَّ إشراقَ القَلْبِ بنور الإيمانِ واليقينِ مُضَادٌّ للظُّـلْمة التي استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها، والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضادٌّ للاعتقال في حبس الهوى والشهوات، ودخولُ حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضادٌّ لما هو عليه من جنابة غَفَلاتِهِ التي مقتضاها الإقصاء والإبعاد، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى، مضادٌّ للإصرار على المعاصي والهفوات، وإليه الإشارة بقوله عز من قائل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبما روي في بعض الأخبار: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[1]. انتهى.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه. قال العراقي: وأورده صاحب القوت بلا سند إلا أنه قال: «لا بما يعلم» بدل «بما علم». وأخرج أبو نعيم في الحلية في ترجمة أحمد بن أبي الحواري بسنده إليه قال: التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحواري بمكة فقال أحمد: حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان الداراني، فقال: يا أحمد، قل: «سبحان الله بلا عجب»، فقال سبحان الله ـ وطوَّلها ـ بلا عجب، فقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت وعادت إلى ذات العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً، قال: فقام أحمد بن حنبل ثلاثاً وجلس ثلاثاً وقال: ما سمعت في الإسلام =

وقال الـحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: اعلم أنَّ القلب سر لطيف أودعه الله تعالى للإنسان في صدره من الجانب الأيسر، والقطعة اللحم التي هناك بمثابة المركب له، وكل أعضاء الجسد عساكره، وهو الملك، وله وجهتان: وجهة ينظر بها إلى نفسه وعساكره، ووجهة ينظر بها إلى ربه، فالأولى هو المنطبع في مرآتها صور الأكوان، ومرآة القلب العقل، وما دام العقل تحت غطاء الكون فالقلب أسيره ومعتقل به، حتى إذا أزيل عنه الغطاء زال العقل المقيد، وظهرت الآثار، وأشرقت الأنوار، فنظر بنوره المودع في سويدائه، وهو البصيرة، وجاء الحق وزهق الباطل.

وقوله: «أم كيف يرحل» أي: الطالب من نفسه «إلى الله وهو مكبل بشهواته» الناشئة عن طبعه العنصري، «أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله» وهي حقيقة القلب الذي هو بيت الرب؛ لأنه إذا زالت العلل من القلب، وصفا من التكدرات البشرية، والخواطر الردية، تتجلى فيه الأنوار الإلهية، ويصير حضرة من حضرات الله تعالى، وإذا كان القلب باقياً مع أوصاف عوائد الطبع، مشتغلاً بما يجري عليه من أحوال الخلق، لم يدخل هذه الحضرة الشريفة، وكيف يدخل هذه الحضرة «وهو لم يتطهر» بماء المراقبة «من جنابة غفلاته»؛ لأن موطن الغفلة داع لبقاء الشهوة والستر، (أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته»،

= حكاية أعجب من هذه إلي، ثم قال أحمد بن حنبل: حدثني يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس رفعه: «من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم»، ثم قال لابن أبي الحواري: صدقت يا أحمد وصدق شيخك. قال أبو نعيم: ذكر أحمد هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم، فظن بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ. ومن شواهده ما أخرج أبو نعيم من رواية نصير ابن حمزة، عن أبيه، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن الحسين بن علي، عن علي رفعه: «من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيراً وكشف عنه العمى».

الفهم نور ينتقش في الذهن عند صفاء المحل من حكم الفرق، والفرق ما نسب إليك، فإذا تخلصت من مقام الفرق إلى محل الجمع، ونظرت إلى وجودك أو إلى الحالات، كان ذلك هفوات تسد عنك فهم دقائق الأسرار، والأسرار جمع، والسر: ما خفي في البيان ولا يمكن التعبير عنه بلسان؛ لأن لسان العبارة قصير عن آلة يؤدي حقائق الأسرار. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٥٠ ـ (لا يُخافُ عَليكَ أن تَلتَبِسَ الطُّرُقُ عليكَ، وإنَّما يُخافُ عَليْكَ مِن غَلَبَةِ الهَوَى عليك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الطريق إلى الله تعالى واضحة لائحة؛ لأن الحق تعالى هو الذي تولى ذلك، وبه أنزل الكتب، وأرسل الرسل، ونَصَبَ عليه الأدلة والبراهين، فلا يخاف على العبد التباسها عليه، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن رؤيتها.

قال أحمد بن خضرويه البلخي[1] رضي الله عنه: «الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى». انتهى.

وقال الحجازي رحمه الله تعالى: فإنْ لازمت متابعة الرسول مع تخليصك من حضيض نفسك وظلمة طبعك، ورفضت هواك بالترك، فلا بأس عليك، وأنت

---

(١) هو: أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي (توفي سنة ٢٤٠هـ ٨٥٤م). من كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبي، مات عن خمس وتسعين سنة.

(من كلامه) رضي الله عنه: لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رق أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة. (الرسالة ٤١٠).

محفوظ، وعاقبتك إلى خير، ولقد أحسن من قال: «من كان أذاه من هواه، فتَرْكُ هواه دواه»، وإن غلب سلطانُ هواكَ عليك، وركب عليك بجيوش الشهوة، واستأسرك بواسطة الغفلة، واستعملك فيما أحب بواسطة ميلك إلى عالم طبعك، وإجابتك لدواعي الشهوة يُخاف عليك ـ والعياذ بالله ـ أن تكون ممن قال في حقهم ربُّ العزة جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. انتهى.

وقال القُشَّاشِي رحمه الله تعالى في شرحه: فلا يخاف عليك بعد بيان الطريق ووضوحها الالتباس، وإنَّما يُخَافُ عليك اتباع الهوى؛ لكونه طريقاً مسلوكة فتحسبها المطلوب، وهذا واقع بأهل العصر، وهو المستولي عليهم بالظفر والنصر في أقطار أنديتهم، وهم لا يشعرون، ويحسبون أنهم مهتدون، وهم عن الصراط ناكبون، وللهوى متبعون. عافاهم الله وإيانا بكرمه، آمين.

فهذا الذي حبس من حبس، وهو الذي عاق وأخذ بالطوق والساق، وهذا الإله الذي استغرق بالعبادة الآلهة التي قيدت من دونه حتى عبد في الصنم، وهو اسم جنس يقع على أنواع كثيرة ومنها: الدينار، والدرهم، والخميصة، والثوب، والزوجة، والولد، والبستان، والإخوان، والأموال، وما لا يحد، فألْهَاهُمُ الهوى بغلبة التكاثر، فمنهم المُقَال، ومنهم إلى المقابر يُحَال، وأنساهم ذكر الله، ومنه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١] فعليك بالرحيل، ولازم البكاء على ما فرطت في جنب الله والعويل، إن كنت من أهل الفضل والتفضيل، واعلم أنه ليس بينه وبين البين الواضح إلا قدر الحق الفاتح. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧).

٥١ ـ (النَّاسُ[١] يَمْدَحُونَكَ بِما يَظُنُّونَ فيك، فكُنْ أنتَ ذامّاً لِنَفْسِكَ لِـمَا تَعلَمُهُ منها).

قال ابن عباد: ذمُّ العبد لنفسه واحتقارُها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوبٌ منه؛ لأن ذلك يؤدِّيه إلى الحذر من غُرُورِها وشرُورِها، فتصلح بذلك أعماله، وتصدق أحواله، وإلا فسدت عليه واعتلت لدخول الآفات عليها، ولا يصدنَّه عن ذلك ثناء الناس عليه، ومدحهم له؛ لأنه يعلم من عيوب نفسه ما لا يعلمه غيره من الناس.

قال بعضهم: من فرح بمدح نفسه فقد أمكن الشيطان أن يدخل في بطنه».

وقال آخر: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت، وكان أحب إليك من أن يقال: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «وإنَّما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى، يبغِّض إليهم مدح الخلق؛ لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن الله تعالى، الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق، ومهما علم أنّ الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح

---

(١) قوله: «الناس يمدحونك بما يظنون فيك»، أي: من الخير والصلاح واعتباراً بما يظهر من ستر الله عليك، فكن أنت ذاماً لنفسك بما تعلمه من القبائح والرذائل اللازمة لوضعها، فمن خرج بالمدح فقد أمكن الشيطان أن يدخل في جوفه. انتهى. من شرح الأهدل رحمه الله تعالى.

الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حبُّ المدح، واشتغل بما يهمه من أمر دينه». انتهى كلام أبي حامد رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

٥٢ ـ (المؤْمِنُ إذا مُدِحَ اسْتَحَى منَ اللّـه تعالَى أن يُثْنَى عليْه بوَصْفٍ لا يَشهَدُهُ مِن نفْسِه).

لأنَّ المؤمن الحقيقي هو الذي عوفي قلبه من الأمراض والسقم، وكان سليم الإدراك، فلم يشهد له وجوداً، ولا إيجاداً، ولا صفة كمال تنشأ عن نفسه، وإن شهد ذلك شهده من فضل الله، وارداً عليه من خزائن منته، ولهذا إذا مدح استحيا من الله تعالى أن يُثْنَى عليه بما ليس له حقيقة، ولا يشهده له؛ لأن من شهد له وجوداً مع الله تعالى حقيقة أشرك، ومن وقف مع شكر العباد ورضي به كان دليلاً على وجود جهله وبعده عن ربه. ذكره الحجازي في شرحه.

قال رحمه الله تعالى:

٥٣ ـ (أجْهَلُ النَّاسِ مَن تَرَكَ يَقِينَ ما عندَهُ لِظَنٍّ ما عندَ النَّاس).

قال ابن عباد: الاغترار بمدح النَّاس وثنائهم غايةٌ في الجهل والغباوة، وذلك من علامات المقت؛ لأنّ المغتر بمدح الناس ترك يقينه بنفسه لظنٍّ غيره به، وهو على كل حال أعلم بنفسه.

وقد شبه الحارث المحاسبي رضي الله عنه الراضي بالمدح الباطل كمن يُهزأُ به، ويقال له: إنَّ العَذِرةَ[1] التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك، وهو

(١) العَذِرة: الغائط.

يفرح بذلك ويرضى بالسخرية عليه. قلت: ولا شك أنَّ الذنوب والعيوب التي يعملها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه، ولا فرق بين الحالتَيْن؛ إلا أنه في حال المدح يعلم أنَّ المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ به في معرفة حال ما يخرج من جوفه، فهو بجهله وغباوته قد رضي بأن يكون له في قلوب العبيد الجاهلينَ حالَه قدرٌ وجاهٌ من غير مبالاته بسقوطه من عين مولاه الذي يعلم من حاله ما لا يعلمه هو ولا غيره من حيثُ رضي بالمدحة وفرح بها، ولم يقابل ذلك بالإباء والكراهية. هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين، وأما إن كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة أعظمُ من الرضا بمدحهم والفرح به». ذكر ذلك ابن عباد رحمه الله تعالى.

قال الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: وأما كونه أجهل الناس فلأن جهله مركب؛ لأنه يَجهل ويَجهلُ جهلَه، ورأس ذلك عدم معرفته نفسه، فغاية الكمال المنافي للجهل: في إدراك حقيقة العجز والافتقار، وهما صفات النفس؛ بل حقيقتها، وقد ورد: (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه)، فمن عرف قدر نفسه عرف قدر مولاه، ومن عرف قدر مولاه تلاشى عنده كل ما سواه.

قال رحمه الله تعالى:

٥٤ ـ (المؤمنُ يَشغَلُهُ الثَّناءُ على اللّٰهِ تعالَى عَن أن يكُونَ لِنفْسِهِ شاكراً، وتَشغَلُهُ حُقُوقُ اللّٰهِ تعالَى عن أن يكُونَ لِحُظُوظِهِ ذاكراً).

قال ابن عبَّاد: شكرُ النَّفْسِ: رؤيةُ نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، وذلك ثناء عليها، وهو مُضَادٌّ للثَّنَاءِ على الله تعالى، وذِكْرُ حَظِّها: من اعتقاد أنَّ لها حقاً على ما تفعله من الطاعات، وهو مضادٌّ للقيام بحقوق الله تعالى. فالمؤمن الحقيقي لا يلتفت إلى نفسه في نسبة شيء من المحاسن إليها، وفي طلب

حظٍّ عليه لها؛ بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية جميع حقوقه عن جميع ذلك. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٥٥ ـ (إِذا التَبسَ عليْكَ أمرانِ فانْظُرْ أثقَلَهُما علَى النَّفْسِ فاتْبَعْهُ، فإنّهُ لا يَثقُلُ عليها إلاّ ما كان حقّاً).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس؛ لأنها مجبولة على الجهل والشَّرَهِ، فشأنها أبداً إنما هو في طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فإذا وجد المريد من نفسه مَيْلاً وخِفَّةً عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها، وترك ما مالت إليه وخَفَّ عليها، وعمل بما استثقلته.

قال بعض العارفين رضي الله عنهم: «منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة».

وسكون القلب إلى النفس هو: اتباعه للأخف عليها دون الأثقل، وهو معدود عندهم من نفاق القلب، ومن بقي عليه شيء من دواعي الهوى وإن قلَّ لا يؤمن عليه من مثل هذا، فخفَّةُ العمل على النفس إنَّما تكون لأجل موافقة هواها، وهواها لا يميل إلاَّ إلى الباطل، فإذا التبس عليك أمران، واجبان أو مندوبان، ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتُقَدِّمَهُ على الآخر، فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به.

وإنما قلنا باعتبار غالب الأنفس؛ لأنَّ النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا بالشره، فقد يخف عليها العمل ولا يؤوَّل ذلك على أنه باطل، فليكن نظر العبد حينئذ إلى ما هو أكثر فائدة، وأعظم مزية، فليقدِّمه على غيره.

وثَمَّ ميزان آخر أصح وأكثر تحقيقاً من الأول، وهو أن يقدِّر نزول الموت به، فأيُّ عمل سرَّه أن يكون مشغولاً به إذ ذاك فهو حق، وما عداه باطل.

فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء، وممازجة حظ النفس، واتباع الهوى، وهذا هو المطلوب من العبد، ولا يستتم له ذلك إلا بأن يتحقق بما يقدره من حلول الموت وحصول الفوت، وهذا هو معنى «قصر الأمل» الذي هو أصل حسن العمل، وهو ألاَّ يقدِّر لنفسه وقتاً ثانياً يكون فيه حيّاً، وعند ذلك يخلص عمله من الآفات، ويتطهَّر من أنواع الرعونات؛ لأنَّ توقع الموت في كل نَفَسٍ ولحظة يهدم عليه جميع ذلك، وكل عمل استرسل فيه صاحبُه غافلاً عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققاً به لا يسلم مما ذكرناه.

فإذاً بعيدٌ من الإخلاص مَن يأخذُ في علمٍ غير متعيَّنٍ عليه الأخذُ فيه، لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال، ويكون في الحالة الراهِنةِ مُتَمَكِّناً من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها، وينتجز له حصولُ التقرّب بها؛ لأن في ذلك قوة نفسه، ووفارة حظِّه، وآية ذلك: أنه قد يعرض له حال أخذه فيه غرضٌ دنيوي يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدِّمه على ما كان آخذاً فيه، ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك.

وإنما عبَّرْنا بلفظ «الأخذ» ليدخل فيه تعلُّم المتعلِّم، وتعليم المعلِّم؛ فإنَّ الأمر فيهما واحد، وكل عمل، لا إخلاص فيه: ليس بالله ولا لله، مردودٌ على صاحبه، مضروب به وجهه.

وبهذا يتبيَّن لك غرور أكثر الخلق في علومهم وأعمالهم؛ إلاَّ من رحم الله.

انتهى. ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

٥٦ ـ (لولا مَيادِينُ النُّفُوس[١] ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائرين، إِذْ لا مسافةَ بينَكَ وبَيْنَهُ حتَّى تَطْوِيَها رِحْلتُك، ولا قَطِيعةَ بيْنَكَ وبيْنَهُ حتَّى تَمْحُوَها وصْلتُك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: السير إلى الله تعالى هو: قطعُ عَقَبات النَّفْسِ، ومَحْو آثارها ودواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلَّتها، حتى يتطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه، ولو لا معاناةُ هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فالبعد الحسي وهي: المسافات التي تطويها رحلته، والبعد المعنوي وهي: القطيعة التي تمحوها وصلته، محالان في حقه تعالى؛ لنفي المثلية في الأوَّلِ، وعدم الضدية في الثاني.

وهذه الألفاظ التي عبَّر بها المؤلف رحمه الله تعالى من: السير، والميادين، والرحلة، والوصلة، وفي معناها: السير، والسلوك، والذهاب، والرجوع، هي عباراتٌ استعملها الصوفية في أمور معنوية تَجَوَّزوا بها عن أمور حسيَّة، ومرجع جميع ذلك إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير.

---

(١) قوله: «لولا ميادين النفوس» ـ أي: شهواتها ولذاتها ـ ما تحقق سير السائرين»؛ لأن مطلوبك معك وليس بينك وبينه حجاب غير نفسك، فإذا خرجت عنها وعن عوائدها وشهواتها ولذاتها وصلت إلى محبوب قلبك؛ لأنه لا مسافة بينك وبينه تطويها رحلتك، وإنما حجابك من نفسك، فإذا قطعت ميادينها وهدمت عوائدها أشعل مصباح بصيرتك بنور اليقين والحب، فنظرت بنور الحق إلى الحق ولم يحجبك عنه شيء لأنه لا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك، أليس هو أقرب إليك منك؟ قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فالحق تعالى قريب معك وليس هو بعيداً منك. انتهى. من شرح الحجازي.

وهذا الكلام الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ها هنا، من أنَّ النفس هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها ينال سعادة لقاء ربه تعالى صحيح المعنى.

قال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت، أي: ما حياة القلب إلا في إماتة النفس.

وقيل: النعمة العظمى الخروج عن النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: للنفس سرّ، ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه في أن يعينه ويقوِّيه على أمر نفسه، ويسهل عليه طريق سلوكه، وليستعمل هذا في كل حال ووقت، وليجعله عمدته فيما هو سبيله.

قال بعض العارفين: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس، وإنَّما يكون الخروج من النفس بالله تعالى، ثُمَّ يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة في ظاهره وباطنه، والتزام آدابهما.

ولكل عبدٍ عملٌ مخصوص يقتضي لا محالة حكماً مخصوصاً يقوم بحقِّه، وذلك يختلف باختلاف أحوال الناس، فحركات العبد وسكناته هي أعماله الظاهرة، وتصوره وهمته وإرادته هي أعماله الباطنة، وكل واحد من القسمين ينبغي أن يأخذ فيه بعزائم الأمور، ويجتنب الرخص التي هي من شأن العامة والجمهور.

فعمل الظاهر إن كان واجباً فليبادر إلى فعله، ولا يتوانَ عنه، ولْيَقُمْ بآدابه اللازمة له، ويلتحق بذلك ما يكون مندوباً إليه إذا عُلم في أي مرتبة هو.

وإنما اشترطنا هذا الشرط لأن المندوبات التي تعترضه يُحتاج فيها إلى تقديم الأولى فالأولى، والأهم فالأهم منها، فإن لم يفعل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعاً للهوى، لا لموجب العلم، وليأخذ ذلك بالقصد من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير.

وإن كان حراماً فليبادر إلى تركه واجتنابه، وليقطع عن نفسه جميع أسبابه، ويلتحق بذلك ما يكون مكروهاً.

وإن كان مباحاً فهذا هو محل نظر المريد؛ فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه، ويقف على حدود الضرورة منه، وليكن اجتنابه لما يَشْتَدُّ ميل النَّفْسِ إليه، ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك.

ومما يشتد ميل نفوس أكثر الناس إليه، ما يكون سببَ تناوله واستعماله مراعاةُ نظر الخلق، والجري على عوائدهم السيئة ومراسمهم المذمومة، ومجاهدة النفس في مثل هذا عسير جداً، لا سيما على من ابتُلي بحب الجاه والرياسة، وقبول الخلق في ولاية حُكْم، أو نَشْرِ عِلْم، أو غير ذلك، فإنها أشدُّ الشهوات علاقة بالقلب، وأضرُّها بالمريد؛ فيجب عليه أن يعتني بذلك، ويبالغ في تطهير ظاهره وباطنه منه، بما يتعاطاه من أعمالٍ وأحوال.

وليس طريقُ مَوْت النَّفْسِ بقطع جميع الأرفاق[١] عنها، وردها إلى الاجتزاء بالحشيش والنُّخَالَةِ، والمبالغة في التقشف، والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهممه، وقصوده وإراداته، وترك الالتفات إلى ما يحمد منها ويذم، فذلك كلُّه غلو وبدعة، وقد غَلِطَ في هذا طوائف من النَّاس، عملوا عليه في رياضاتهم

---

(١) أي: الأعطيات والمنافع. يقال: أرفقه، أي: نفعه، وارتفقت بالشيء: انتفعت به.

ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، ولم يحصُلوا من أعمالهم على فائدة، وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلفُ هذه الأمة. انتهى ما ذكره ابن عباد ملخصاً.

وقال السيد الأهدل عند قول المصنف رحمهما الله تعالى: «لا مسافة بينك وبينه»،.. إلى آخره: إذ ليس في جهة ولا مكان، ولا يصح أن يتصف بما يدل على الحدود والأزمان، فاجْلُ مرآةَ قلبك بإسقاط نفسك تَرَهُ أقربَ إليك من نفسك، وفي معنى ذلك أنشد من تحقق بها هنالك، فقال:

اسْمَحْ بِنَفْسِكَ إنْ أَرَدْتَ لِقَانَا ... واحْلُفْ بِنَا أَنْ لا تُحِبَّ سِوَانَا

فإذَا قَضَيْتَ حُقُوقَنا يا مُدَّعي ... عايَنْتَنا بَيْنَ الأَنَامِ عيانَا

من أراد الطريق إلى الخروج عن نفسه فليعلم أن الطريق ثلاثة: عُبَّادٌ، ومريدُونَ، وعارفون.

وطريق العُبَّاد: كثرة الأعمال، والتجنب عن الزيغ والضلال.

وطريق المريدين: تخليصُ الباطن عن الشوائب، والنفور عن المشغِّلات والشوائب.

وطريق العارفين: تخليصُ القلب لله، وبذل الدنيا والآخرة في طلب رضاه، وهو أعلى الطريق وأجمعها، وتنبني على قاعدتين: معرفة العبد بربه وما عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، ومعرفته بنفسه وما هي عليه من صفات الخسة وقبيح الخلال، ويتولد من هذه المعرفة شيئان: محبة العبد لمولاه، وشكره له على ما أولاه، إذ يرى نفسه أهلاً لكل شر، ومولاه أهلاً لكل خير، فينسب المحاسن إلى سيده، فيحمده ويشكره على ما دقَّ وجلَّ، وينسب المساوئ إلى

نفسه، فيستغفره منها ومن تقصيره في شكره، ويتبرأ من حوله وقوته، ويكون شعاره: الحمد لله، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في جميع أوقاته، وهو الذكر المنجي من عذاب الله في الدنيا والآخرة، والمقرب للفتح لمن لازمه، وعليه احتوى سيد الاستغفار وعلى جميع الأذكار. فتأمل ذلك تجده.

واعلم: أنك لن تصل إلى التحقيق بهذه الجملة إلا بمراقبة الأوقات بأحكامها من: التوبة، والاستغفار عن العصيان، وشهود المنة في الطاعة، ووجود الرضا في البلية، ووجود الشكر في النعمة، وتصل إلى هذه الأشياء بأحد أربعة أوجه: نور يقذفه الله تعالى في قلبك بلا واسطة، أو علم متسع في عقل كامل، أو فكرة سالمة من الشواغل، أو صحبة شيخ ناصح أو أخ صالح هذه حاله.

قال الشيخ أبو مدين[1] رحمه الله تعالى: اصحب من هذَّبك بأخلاقه، وأدَّبَكَ بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، وجمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه. وليس شرطه أن يكون عالماً بجميع العلوم، ولا قائماً على جميع الأحوال؛ بل شرطه أن يكون عالماً بما تطلب، سالماً من البدع والأهواء، ناصحاً لمن تعلق به، معيناً له بهمته، يرشد إلى من هو أعلم منه، مستشيراً لمن هو أتم حالاً منه، قد جعل الله تعالى الحق بين عينيه فلم يعرج إلا عليه، ولا يهدي إلا إليه.

---

(١) هو: شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني، أبو مدين: صوفي من مشاهيرهم، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية وكثر أتباعه، وتوفي بتلمسان سنة (٥٩٤هـ - ٨٦٠م) وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. ووصفه ابن العماد في وفيات سنة (٥٩٠هـ) بقوله: أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف شيخ أهل المغرب، وكان من أهل العلم والاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت. ويسميه الشيخ محيي الدين ابن عربي بشيخ الشيوخ. وله في الحقائق كلام واسع. (الأعلام ٣: ٢٤٤، وشذرات الذهب ٤: ٣٠٣).

فإنْ وُجِد مَن هذا وصفه فشرطك معه ستة أمور:

أحدها: استمرار طبيعتك على موافقته فيما ظهر وخفي من غير تأويل لأمره، ولا عصيان له فيما يشير به وإن كان الصواب في خلافه.

الثاني: أن تكتم سرَّه ولا تخفي عنه من سرك، ولو كان في أمره.

الثالث: أن لا تسمع من غير مَن أمرك بالسماع، ولا تفتقر إلى غيره، ولا تلتفت بقلبك إلى سواه، وإن كان أكمل منه، إذ ذاك موجب الحرمان من الأول والثاني.

الرابع: أن لا تنكر عليه شيئاً مما يخالف ظاهر الشرع إن وقع فيه، ولا تسمع له إن أمرك بفعله، ولا تستعظم شيئاً من أحواله في عواده.

الخامس: أن تعتقد نقصه في كماله، وكماله في نقصه، بحيث أن ترى أنَّ النقص فيه أصل، والكمال له عارض، فتنظره بعين الكمال، وتحكم عليه بالنقص، فإذا ظهر منه ما يدل على نقصه لم ينقص في نظرك، بل لا يزيد عندك بالوفاء، ولا ينقص بالجفاء.

السادس: أن تقوم بحقه من غير إفراط ولا تفريط.

وهذه الشروط واجبة عليك، سواء كان شيخاً لك أو أخاً في الله أو صديقاً.

واحذر صحبة طائفتَيْن من الناس: الفقهاء المتعمقين القائمين مع نفوسهم المستغرقين في الرضا عنها، والفقراءِ البطالين الذين لا همة لهم إلا في الرقص، والاشتغال للأكل بالدعاوى، وموجبات النقص وكذا أهل السماع. انتهى المراد مما ذكره الأهدل رحمه الله.

باب الاعتدال بين الخوف والرجاء

أمَّا الخوف من الله تعالى فمعناه: أن يخاف العبد أن يعاقبه الله تعالى إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة، وقد فرض الله تعالى على عباده أن يخافوه، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال الغزالي في منهاج العابدين: ومقدمات الخوف أربع، **الأولى**: ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد. **والثانية**: ذكر شدة عقوبة الله سبحانه وتعالى التي لا طاقة لك بها. **والثالثة**: ذكر ضعف نفسك عن احتمالها. **والرابعة**: ذكر قدرة الله سبحانه وتعالى عليك متى شاء. انتهى.

وأما الرجاء فمعناه: حسن الظن بالله في قبول طاعةٍ وُفِّقْتَ لها، أو مغفرة سيئة تُبت منها، وضده الإياس.

قال حجة الإسلام في منهاجه: ومقدمات الرجاء أربع، **الأولى**: ذكر سوابق فضل الله إليك من غير قدم أو شفيع. **الثانية**: ذكر كثرة ما وعد الله تعالى من جزيل ثوابه وعظيم كرامته حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه بالفعل، إذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شيء وأصغر أمد. **الثالثة**: ذكر كثرة نعمه عليك من أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الإمداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال. **الرابعة**: ذكر سعة رحمة الله وسبقها غضبه، لأنه الرحمن الرحيم، الغني الكريم، الرؤوف الرحيم. انتهى.

ثم المطلوب من العبد أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سِيَّيْنِ إلا في حال المرض فيغلب جانب الرجاء، ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة على ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقال ﷺ: «لو يَعلَمُ المؤْمنُ ما عندَ اللّـهِ منَ العُقوبةِ ما طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أحد، ولو يَعلَمُ الكافرُ ما عندَ اللّـهِ منَ الرّحمةِ ما قَنَطَ مِن جَنَّتِهِ أَحَد»[1] وعنه ﷺ: «لو وُزِنَ خَوْفُ المؤمِنِ ورَجاؤُهُ لاعْتَدَلا»[2].

وقال بعض العارفين: «الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت».

وأما في حال المرض فينبغي له أن يغلِّب جانب الرجاء، لا سيما إذا أشرف على الموت، لما ثبت في الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَموتَنَّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله تعالى»[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥)، والترمذي في جامعه (٣٥٤٢) عن أبي هريرة. «ما قنط»: ما يئس.

(٢) قال الزركشي في (اللآلئ المنثورة، ص١٣٦): هذا مأثور عن بعض السلف، وهو كلام صحيح، وقال في المقاصد وتبعه في الدرر: لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف. فرواه البيهقي في الشعب عن مطرف قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان ما كان بينهما خيط شعرة. ورواه عن شعبة قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما زاد خوفه على رجائه ولا رجاؤه على خوفه، ومعناه صحيح.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧)، وابن حبان (٦٣٦)، وأحمد (٣: ٢٩٣ و٣٣٠).

قال رحمه الله تعالى:

٥٧ ـ (مِن عَلاَمَةِ الاعتمادِ علَى العَمَلِ: نُقصانُ الرَّجاءِ عند وُجُودِ الزَّلَل).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى في شرحه: الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين، والاعتماد على غيره نعتُ الجاهلين الغافلين كائناً ما كان ذلك الغيرُ حتَّى علومهم وأعمالهم وأحوالهم.

أما العارفون الموحِّدُون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم؛ فإذا وقعوا في زَلَّةٍ أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم، كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة، أو لاح عليهم لائح من يقظة، لم يشهدوا في ذلك أنفسَهم، ولم يروا فيها حَوْلَهم وقوتهم؛ لأنَّ السَّابق إلى قلوبهم ذكرُ ربهم، فأنفُسُهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبُهم ساكنةٌ بما لاح لها من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالَيْن؛ لأنَّـهُمْ غرقى في بحار التوحيد، وقد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلم ينقص من خوفهم ما يجتنبون من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه: الرجاءُ هو تَعَلُّلُ النَّفْس ببلوغ المُنَى، فإذا كان السَّالِكُ متردداً في حاله، معتمداً على عمله، طالباً الجزاء عليه، يكون متمنياً منبسطاً راجياً في ما لم يكن عنده، حتَّى إذا وقع منه الزَّلَلُ نقصَ رجاؤه، وانقطع طَمَعُهُ عن حصول مطلوبه، فانظر إلى هذا الميزان الذي أعطاه هذا الأستاذ لأهل الخدمة يزِنون به أعمالهم، ويتحققون به وجود أحوالهم. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: النَّاسُ ثلاثة: معتمدٌ على عمله، وعلامتُه: ما ذكر من النَّقْصِ في النَّصِّ، ومعتمدٌ على فضل الله، وعلامتُه: الرجوعُ إلى الله في السَّراءِ بالحمد والشكر، وفي الضَّراءِ باللجوء والفقر، ومعتمد على سابق القسمة وماضي الحكم، وعلامته: فقد الاضطراب لعدم الأسباب، فلا يزيد رجاؤه لعِلَّة، ولا ينقص لِزَلَّة، لو وزن رجاؤه وخوفه لتعادلا في كل حال من أحواله، بل يكونُ دائم البشر، متواصل الأحزان، كما جاء في وصفه ﷺ.

وقد قال أحدُ المحققين رضي الله عنه: من بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أنْ يلتفت إلى العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى. انتهى.

فاعرف قدرك ولا تتعد طورك. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٥٨ ـ (لا يَعظُم الذَّنْبُ عندَكَ عَظَمةً تَصُدُّكَ عَن حُسْنِ الظَّنِّ بالله، فإنّ مَن عَرَفَ رَبَّه، اسْتَصغَرَ ـ في جَنْبِ كَرَمِهِ ـ ذَنْبَه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين:

أحدهما: أن يعظم عنده عظمة تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه وصدق العزم على أن لا يعود إلى مثله، فهذه عظمةٌ محمودة، وهي من علامات إيمان القلب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ العبد المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبَهُ كذباب وقع على أنفه قال به

هكذا فأطاره». ويقال: «إنَّ الطَّاعة كلّما استُصغِرَتْ عَظُمَتْ عند الله تعالى، وإنَّ المعصية كُلَّمَا استُعْظِمَتْ صغرت عند الله تعالى».

والثاني: أنْ يَعْظُمَ عنده عظمةً تُوقِعُهُ في اليأس والقنوط، وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى؛ فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان، وهي أشد[1] عليه من ذنوبه، وسببُ ذلك وجود جهله بصفات مولاه الجواد الكريم، ووقوفه مع نفسه، وقياسه بعقله وحَدْسِهِ[2]، ولو كان عارفاً بالله تعالى حق المعرفة لاستحقر ذنوبه في جنب كرمه وفضله، فأيُّ قدر للعبد أو قيمة حتَّى يقع في ذنب لا يسعُهُ عفو ربِّه، ويكبُرُ عليه أنْ يغفرَ له؟!

فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاماً يؤديه إلى أن يُلْقي بيديه إياساً من روحه، وقنوطاً من رحمته، وسوءَ ظن به؛ بل عليه أن يتوب إلى ربِّه منه، ويرجع إليه عنه، ويعلم حكمة الله تعالى في تسليطه عليه وتخليته بينه وبينه، وفي الخبر عن الرسول أنه قال: «لولا أنَّ الذَّنْبَ خيرٌ للمُؤمِن منَ العُجْبِ ما خَلَّى اللهُ تَعالَى بَيْنَ مُؤْمِنٍ وبَيْنَ ذَنْبٍ أبدَاً»[3]، فنبهك بهذا على أنَّ الذنب مانع من وجود العُجْب، الذي هو أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه؛ لأنّ صاحبه ناظر إلى نفسه، لا إلى ربه، مستعظمٌ لطاعته وعبادته، ملاحظٌ لذلك ومساكن له؛ بخلاف ذلك الذَّنب؛ لأنه يوجب له الخوف والحذر، واللجوء إلى الله تعالى والفرار إليه من نفسه، والعُجْبُ يصرف العبد عن الله تعالى، والذَّنْبُ يصرفه إليه، والعجب يقبل به على نفسه، والذَّنْبُ يقبل به على ربه، والعجب يؤديه إلى

---

(١) في نسخة: شرٌّ.

(٢) الحدس: الظن.

(٣) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (١٣١).

الاستغناء، والذنب يؤديه إلى الافتقار، وأحبُّ أوصاف العبد إلى الله تعالى افتقاره إليه، وأشرف أحوال المؤمن ما يرده إليه، ويُقْبِلُ به عليه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٥٩ ـ (لا صغيرةَ إذا قابَلكَ عَدْلُه[١]، ولا كبيرةَ إذا واجَهكَ فَضْلُه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إذا ظهرت الصفات العلية بطلت أعمال العاملين، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته، بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر، وإذا ظهر وصف الكرم والفضل على من أحبه، اضمحلت سيئاته، وعادت كبائره صغائر.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «إنْ وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) قوله: (لا صغيرة إذا قابلك عدله) ولهذا قيل: إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب، وانظر يا أخي إلى إبليس لم يدع بقعة في السموات ولا في الأرض إلا وسجد عليها لله ومع ذلك لما قوبل بعدله طرد، فليس إلا سابقة العناية والفضل؛ ولهذا قال رضي الله عنه: (ولا كبيرة إذا واجهك فضله) لأن الفضل صفة قديمة، والكبيرة صفة لك حادثة، والقديم لا يغيره الحادث.
فائدة: اعلم: أن العبد إذا أخلص في عمله ظهر له نتائج، فإن كان ثَمَّ بقية في إخلاصه وقف مع وجوده بواسطة شهود العمل، وإن كان من أهل المحبة والتخليص حجب عنه شهود العمل وانحقر عنده وجوده حتى لا يرى له عملاً مع قيامه بجميع وظائف العمل، فيكون ذلك دليلاً على إخلاصه في العمل وتخلصه من النظر إلى وجوده. انتهى ملخصاً من شرح الشيخ أبي الحسن الحجازي.

٦٠ ـ (لا نهايةَ[1] لِمَذامِّكَ إنْ أرجَعَكَ إليك، ولا تَفْرُغُ مَدائِحُكَ إن أظهَرَ جُودَهُ عَلَيْك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: من أرجعه الحق تعالى إلى نفسه، ووَكَلَهُ إلى عقله وحسه، فقد طرده عن بابه، وأبعده عن جنابه، وكانت أحواله مدخولة معلولة، وأعماله مستقبحة مرذولة، ومن آواه إليه، وأظهر جوده عليه، فقد اصطفاه لنفسه، ورفعه إلى حضرة قُدْسه، وكانت أحواله حسنة جميلة، وأعماله كلها ممدوحة مقبولة، كما قيل:

لـمَّا انتَسَبْتُ إلى حِمَاكَ تعرَّفَـتْ ذاتي فـصِرْتُ أنا وإلاَّ مَـن أنـا

قال رحمه الله تعالى:

٦١ ـ (إذا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فلا يكُنْ سَبَباً يُؤَيِّسُكَ مِن حُصُولِ الاستِقامةِ مَعَ رَبِّك، فقد يكُونُ ذلكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الاستقامَةُ على العبوديةِ لا يناقِضُها فعلُ الذَّنْبِ على سبيل الغفلة والهفوة، إذا جرى القدر عليه بذلك، وإنما يناقضُها الإصرار عليه؛ فإذا وقع من العبد ذنبٌ فينبغي له أن يبادر إلى التوبة منه، ولا

(١) قوله: لا نهاية ... إلخ؛ لأن النفس مجبولة على ضد الخير، وقوله: (ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك) إذ لا يعظم عليه شيء يعطيك إياه. قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فأعظموا المسألة، فإن الله لا يتعاظمه شيء». قالوا: ذا كثير يا رسول الله. قال: «الله أكثر». وفي شرح الحجازي، قال: قوله: (لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك) لأنه إذ ذاك وَكَلك على أحوالك، وتركك ترفل في أثواب غفلتك، وذهب بنور بصيرتك ويقينك، وضعف نور إيمانك، فترجع إلى أفعالك وأحوالك، فتشهدها منك، وتقف معها، فيكون ذلك سبباً لمذامك التي لا نهاية لها. انتهى. شرح الحجازي.

ييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربِّه، ويرى أنه طرده وأبعده رؤيةً توجب له القنوط من رحمة الله تعالى، واليأس من روح الله؛ لأنه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قُدِّر عليه، وقد وقع ذلك وفرغ منه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٢ ـ (الرَّجاءُ: ما قارَنَهُ عَمَل، وإلاَّ فهُوَ أُمْنِيَة)[1].

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الرجاء مقامٌ شريفٌ من مقامات اليقين، وهو يبعث على الاجتهاد في الأعمال؛ لأنَّ من رجا شيئاً طلبه.

وأما الرجاء الكاذب الذي يُفَتِّرُ صاحبَهُ عن العمل، ويُجَرِّئُهُ على المعاصي والذنوب، فليس هذا برجاء عند العلماء؛ ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى، وقد ذمَّ الله قوماً ظنوا مثل هذا، وأصروا على حب الدنيا والرضا بها، وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم «خَلْفاً»، والخلف: الرديء من الناس، فقال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال معروف الكرخي رضي الله عنه: «طَلَبُ الـجَنَّةِ بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع

---

(١) فالتمني مع عدم العمل سبب للموت، ومع العمل سبب للحياة، وأصل الحياة العلم، والعلم ينشأ عنه العمل، فمن أحياه الله بالعلم والعمل صارت حياته، ومن أماته رزقه ظلمة، وعدم العلم والعمل. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]... إلخ الآية. قال الأستاذ الكبير سيدي محمد أبو الوفا رضي الله عنه: الرجاء: هو تعليل النفس وبلوغ المنى، وغايته: رغبة الأطماع في حصول المعجوز عنه بالطبع. ذكره الشيخ أبو الحسن الحجازي (مؤلف).

جهل وحمق»، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله تعالى»[1].

وقال الحسن رضي الله عنه: «إنَّ قوماً ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتَّى خرجوا مِنَ الدُّنيا وليس لهم حسنة، يقول أحدُهم: أُحْسِنُ ظَنِّي بربي، وهو يكذب، لو أحسن الظن بربه أحسن العمل، وتلا قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٣ـ (إنْ لم تُحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ لأَجْلِ وَصْفِه، فحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لوُجُودِ مُعاملتِهِ معَك، فهل عَوَّدَكَ إلاَّ حُسْناً؛ وهلْ أسدَى إلَيْك إلاَّ مِنناً؟).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: حُسْنُ الظَّنِّ يُطلَبُ من العبد في أمر دنياه وفي أمر آخرته، أمَّا في أمر دنياه: فأن يكون واثقاً بالله تعالى في إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كَدٍّ ولا سَعْيٍ فيها، أو سعيٍ خفيفٍ مأذون فيه ومأجورٍ عليه بحيث لا يفوِّتُه ذلك شيئاً من نفل ولا فرض، فيوجب لـه ذلك سكوناً وراحة في قلبه وبدنه، فلا يستفزه[2] طلب، ولا يزعجه سبب.

وأما في أمر آخرته: فأن يكون قويَّ الرجاء في قبول أعماله الصالحة، وتوفية أجوره عليها في دار الثواب والجزاء، فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر والتكثير من أعمال البر بوجدان حلاوة واغتباط ولذاذة ونشاط.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦١)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم (٤: ٢٥١)، وفي إسناد الجميع: أبو بكر ابن أبي مريم، وهو ضعيف. الكيس: العاقل. «دان نفسه»: أذلها واستعبدها، وقيل: حاسبها.

(٢) يحركه.

قال يحيى بن معاذ: «أوثَقُ الرَّجَاء: رجاءُ العبد لربه، وأصدقُ الظنون حُسْن الظنِّ بالله تعالى».

ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالةُ الموت، وقد جاء في الخبر: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهُو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللّـهِ عز وجل»[1].

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله تعالى: ما أَحْسَنَ عَبْدٌ ظَنَّهُ بالله تعالى إلا أعطاهُ الله عز وجل ذلك؛ لأنَّ الخير كله بيده، فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه؛ لأن الذي حسَّن ظنَّه به هو الذي أراد أن يحققه له». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٤ـ (إذا أَرَدْتَ أن يَفتَحَ لكَ بابَ الرَّجاءِ فاشهَدْ ما مِنْهُ إلَيْك، وإذا أَرَدْتَ أن يَفتَحَ لكَ بابَ الخوفِ فاشهَدْ ما مِنْكَ إليه).

قال ابنُ عَبَّاد رحمه الله تعالى: الرَّجَاءُ والخوفُ حالان عن مشاهدتَيْن، فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد ما منَ الله له من الفضل والكرم والإسعاف والإلطاف، فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء.

ومن أراد أن يفتح لـه باب الخوف، فليشهد ما منه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧)، وأحمد في المسند (٣: ٢٩٣). من حديث جابر رضي الله عنه.

٦٥ـ (منِ استَغْرَبَ أَنْ يُنقِذَهُ اللهُ تَعالَى مِن شَهْوتِه، وأن يُخْرِجَهُ مِن وُجُودِ غَفْلَتِه، فقدِ استَعْجَزَ القُدْرةَ الإلهيَّة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: من استرقَّتْهُ الشهوة، واستولت عليه الغفلة، فلا ينبغي أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته، وأن يُخْرِجَهُ من وجود غفلته، لما يشاهد من استحكام ذلك فيه؛ فإنَّ في ذلك نسبةَ العجز إلى القدرة الإلهية، والله سبحانه وتعالى مُتَّصِفٌ بالاقتدار على كل شيء. وهذا من الأشياء.

وليعلم العبدُ أنَّ قلوب العباد ونواصيَهم بيده، فلا يقنط، ولا ييأس، وليقصدْ باب مولاه بالذِّلة والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه، ويُظهر فيه ما استغربه، وما ذلك على الله بعزيز.

وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تروى عن الصالحين التي تقدَّمت لهم في بدايتهم الزَّلاَّتُ ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات، فتداركهم الله تعالى بلطفه، واستقدمهم بجوده وعطفه، فأصلح لهم أعمالهم، وصفَّى أحوالهم، وأبدل سيئاتهم حسنات، ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات، كلُّ ذلك في أقرب زمان، وأقصر مُدَّةٍ وأوان.

وأغرب من هذا وأعجب؛ ما خرَّجه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كان فِيمَن كان قَبْلَكُم رَجُلٌ قتَلَ تِسْعةً وتِسعينَ نَفْساً فسَأَلَ عَن أعْلَمِ أهْلِ الأرضِ، فدُلَّ علَى رَاهِبٍ، فأتاهُ، فقال: إنِّي قَتَلْتُ تِسعةً وتِسعينَ نَفْساً، فهل لي مِن تَوْبة؟ فقال: لا، فقَتَلَهُ فكَمَّلَ بِهِ مئة، ثُمَّ سَأَلَ عَن أعْلَمِ أهْلِ الأرضِ، فدُلَّ علَى رَجُلٍ عالِمٍ، فقال: إنِّي قَتَلْتُ مئةَ نَفْسٍ فهل لي مِن تَوْبة؟ فقال: نَعَمْ، ومَن يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التَّوْبة؟ انْطَلِقْ إلى أرْضِ كذا وكذا،

فإنَّ بها أُناساً يَعْبُدُونَ اللهَ عزَّ وجَل، فاعْبُدِ اللهَ تَعَالَى معَهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أرضِكَ، فإنها أرْضُ سُوء، فانْطَلَقَ حتَّى أتَى نِصْفَ الطَّرِيقِ أتاهُ مَلَكُ الـمَوْت، فاخْتَصَمَتْ فيهِ ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العَذَاب، فقالت ملائكةُ الرَّحمة: جاءَ تائباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إلى اللّـهِ تَعَالَى، وقالت ملائكةُ العَذَاب: إنَّهُ لم يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ. فأتاهُم مَلَكُ الـمَوْتِ في صُورةِ آدَميٍّ، فجَعَلُوه حَكَماً بَيْنَهُم، فقال: قِيْسُوا ما بَيْنَ الأرْضَيْنِ، فإلى أيَّتِهِما كان أدْنَى فهُوَ لهُ، فقَاسُوهُ، فوَجَدُوهُ أدْنَى إلى الأرْضِ التي قَصَدَ، فقَبَضَتْهُ ملائكةُ الرَّحمة»[1]. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٦ ـ (لا يُخْرِجُ الشَّهْوةَ منَ القَلْبِ إلاَّ خَوْفٌ مُزْعِجٍ، أو شَوْقٌ مُقْلِق).

قال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: لا يخرج الشهوة التي هي نوع الهوى من القلب إلا خوفٌ مزعج لا يقر معه قرار، أو شوقٌ لا يصح معه استقرار، وهما ليس للعبد فيهما اختيار؛ لأنهما من بسط الحق التي لا تنشأ إلا عن شهود جلال أو جمال، وما كان من بسط الحق لا يقوم له شيء. انتهى.

وقال الحجازي في معناه: لأنَّ الشهوة ظلمة في القلب، فإذا هجم نور الخوف والشوق أذهب تلك الظلمة، وأشعل مصباحَ بصيرته، وتنورت باصرتُهُ، فاهتدى إلى نور الحق. قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

قال بعضهم: الشهوة أغلبُ سلطان على النَّفس فَلا مزيلَ لها إلاَّ الخوف المزعج، وأما الشوق فقال بعضهم: احتراقُ الأحشاء، وتلهبُ القلوب، وتقطُّعُ الأكباد، ومن كان قلبه على هذه الصفة لم يكن فيه متسع لغير ربه، ومن كانت

(١) رواه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢٦٢٢).

نفسُهُ ناظرةً لغير ربه فليؤدبها بمجالسته الحكماء من أهل خاصته، فَطَهِّرْ ذاتك الباطنة أيها الطالبُ لمولاه من الشرك الخفي تكن مخلصاً في أعمالك؛ لأنَّ الله تعالى لا يحب من الأعمال إلا ما كان خالصاً من شريك. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٧ـ (لا تَيْأَسْ مِن قَبُولِ عَمَلٍ لم تَجِدْ فيهِ وُجُودَ الحضُور، فرُبَّما قُبِلَ منَ العَمَلِ ما لم تُدْرِكْ ثَمَرتَهُ عاجِلاً).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: العمل الذي لا يجد صاحبه حضوراً فيه فينبغي له أن لا ييأس من قبوله؛ فإن ذلك إلى الله تعالى، فقد يقبلُ من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً من وجود حضور، أو حلاوة، أو غير ذلك، ولو لم يكن إلاَّ قصده التقرب به وسقوطه عن نظره. انتهى.

* * *

باب آداب طلب الدعاء

اعلم: أنَّ الدُّعاء من أجَلِّ الطَّاعات، وأفضلِ القربات، وقد ورد في الأمر به والترغيب فيه كثيرٌ من الآيات، والأحاديث النبويات. قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال ﷺ: «الدُّعاءُ هُوَ العِبادة»[1]، وقال ﷺ: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادة»[2]، وقال ﷺ: «لا يَرُدُّ القَضاءَ إلاَّ الدُّعاء، ولا يَزِيْد في العُمْرِ إلاَّ البِرُّ»[3]، وقال ﷺ: «الدُّعاءُ سِلاحُ المُؤْمنِ، وعِمادُ الدِّين، ونُورُ السَّماوَاتِ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ٢٧١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧: ٢٤٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٤)، وأبو داود في سننه (١٤٧٩)، والترمذي في جامعه (٣٢٤٧)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في سننه (١١٤٦٤)، وابن ماجه في سننه (٣٨٢٩)، وابن حبان في صحيحه (٣: ١٢٤ إحسان)، والحاكم في المستدرك (١: ٤٩١) عن النعمان بن بشير. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣٣٧١)، والديلمي في الفردوس (٢: ٢٩١٠) عن أنس. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا يعرف إلا من حديث ابن لهيعة، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (٤٢٥٦).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٢١٣٩) عن سلمان، والحاكم في المستدرك (١: ٤٩٣)، وابن ماجه في سننه (٤٠٢٢) عن ثوبان. قال الترمذي: حسن غريب، قال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير.

والأرض»(١)، وقال ﷺ: «لا يَهْلِكُ معَ الدُّعاءِ أحَدٌ»(٢) و«الدُّعاءُ يَنفَعُ مِمَّا نَزَل ومِمَّا لم يَنْزِلْ»(٣).

ثُمَّ إنَّ للدعاء آداباً ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى. قال الإمام النووي في «الأذكار» نقلاً عن أبي حامد الغزالي: آداب الدعاء عشرة، **الأول**: أن يَتَرَصَّدَ الأزمان الشريفة كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل، ووقت الأسحار. **الثاني**: أن يغتنم الأحوال الشريفة: كحالة السجود، والتقاء الجيوش، ونزول الغيث، وإقامة الصلاة، وبعدها. قلت: وحال رقة القلب. **الثالث**: استقبال القبلة، ورفع اليدين، ويمسح بهما وجهه في آخره. **الرابع**: خفض الصوت بين المخافتة والجهر. **الخامس**: أن لا يَتكلَّفَ السجع، وقد فسّر به الاعتداء في الدعاء. **السادس**: التضرع والخشوع والرهبة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. **السابع**: أن يجزم بالطَّلب، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاؤه فيها. **الثامن**: أن يُلِحَّ في الدُّعاء، ويكون ثلاثاً، ولا يستبطئ الإجابة. **التاسع**: أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى، وبالصلاة على رسول الله ﷺ بعد الحمد والثناء عليه، ويختم بذلك كله أيضاً.

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١: ٤٣٩)، والحاكم في المستدرك (١: ٤٩٢)، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي، وابن عدي في الكامل (٦: ١٧٢)، والديلمي في الفردوس (٢: ٢٩٠٨) عن علي، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٤٢٥٨) ورمز لصحته.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢٦٢٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٤٩٣) عن ابن عمر وسكت عنه، وقال الذهبي: عبد الرحمن بن أبي بكرة واه، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠: ٢٠١) عن معاذ، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير (٤٢٦٤).

العاشر ـ وهو أهمها والأصل في الإجابة ـ وهو: التوبة، وردُّ المظالم، والإقبال على الله تعالى. انتهى.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

٦٨ـ (لا يكُنْ تأخُّرُ أَمَدِ العَطاءِ معَ الإلحاحِ في الدُّعاءِ مُوجِباً لِيَأْسِك، فهُوَ الذي ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لك، لا فيما تختارُهُ لِنفْسِكَ، وفي الوقْتِ الذي يُرِيدُ، لا في الوقْتِ الذي تُريد).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: حُكْمُ العبد أن لا يتخيَّر شيئاً على مولاه، ولا يجزم بصلاحية حال من الأحوال له؛ لأنه جاهل من كل وجه، قد يكره الشيء وهو خير له، ويحب الشيء وهو شرّ له.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:«لا تختر من أمرك شيئاً[1]، واختر أن لا تختار، وفرَّ من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء، إلى الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]».

ودخل رجل على سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه، وكان به ألم، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي، فسَكَتَ ولم يجاوبه، ثم سكت ذلك الرجل ساعة، ثم قال: الله يعافيك يا سيدي. فقال الشيخ أبو العباس: وأنا ما سألت الله تعالى العافية؟ قد سألته، والذي أنا فيه هو العافية، هذا رسول الله ﷺ قد سأل الله تعالى العافية، وقد قال: «ما زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُني، والآن قَدْ

---

(١) قوله: لا تختر من أمرك شيئاً ... إلخ. قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه على الحكم: اعلم: أن إكسير النفوس ترك الاختيار؛ ولهذا كان الفقير المتجرد ساقط الاختيار لم يشهد له وقت؛ لأنه مع الله تعالى ابن وقته؛ لأن حالة صدقه مع الله تعالى تمنعه من الالتفات لماضٍ، أو استشواف إلى مستقبل. انتهى. مؤلف.

قَطَعَتْ أبهَرِي»[١]، وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مسموماً، وسيدنا عمر رضي الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعوناً، وسيدنا عثمان رضي الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مذبوحاً، وسيدنا علي رضي الله عنه سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مقتولاً، فإذا سألتَ الله تعالى العافية فاسأله العافية من حيثُ يَعْلَمُها لك أنها عافية»[٢]. انتهى.

فعلى العبد أن يُسْلم نفسه إلى مولاه، ويعتقد أن الخِيَرَةَ له في جميع ما به يتولاه، وإن خالف في ذلك مراده وهواه، فإذا دعا وطلب من مولاه شيئاً يرى أن له فيه مصلحةً أيقن بالإجابة لا محالة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله عز وجل ما سأل أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم»[٣].

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٥١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٤٩٩)، ورواه البخاري (٤١٦٥) بلفظ: «يا عائشة، ما أزالُ أجِدُ ألَمَ الطَّعامِ الذي أكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فهذا أوَانُ انقطاعِ أبْهَرِي من ذلك السُّمِّ». والأبهر: عِرْق إذا انقطع مات صاحبه. (سيرة ابن هشام ٢: ٣٣٨).

(٢) انظر في ذلك: (تاريخ الخلفاء الراشدين ص ٧٦، ١٢٥، ١٥٠، ١٥٥).

(٣) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إيَّاها، أو صرف عنه من السُّوءِ مِثْلَها، ما لم يدعُ بإِثْمٍ، أو قطيعة رحم». فقال رجلٌ من القوم: إذاً نُكْثِرَ. قال: «الله أكثر». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم وقال: صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب للمنذري ٢٤٢٥). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دَعْوَتَهُ، وإما أن يدخرها له في الآخرة، =

فإذاً الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق، حسب ما ورد بِهِ الوعد الصادق؛ إلا أن الإجابة أمرها إلى الله عز وجل يجعلها متى شاء، وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيراً له، فقد جاء في بعض الأخبار: «يبعثُ اللهُ العبدَ فيقولُ اللهُ تعالى: ألم آمُرْكَ برَفعِ حوائجِكَ إليَّ؟ فيقولُ العبدُ: بَلَى، وقد رَفَعْتُها إلَيك، فيقولُ اللهُ تعالى: ما سَألْتَ شيئاً إلاَّ أجَبْتُكَ فيهِ؛ ولكِن نَجَّزْتُ لكَ البعضَ في الدُّنْيا وما لم أُنَجِّزْهُ في الدُّنْيا فهُو مُدَّخَرٌ لكَ، فخُذهُ الآن، حَتَّى يَقُولَ عندَ ذلك: ليْتَهُ لم يَقْضِ لي حاجةً في الدُّنيا»[1]، وقد ورد عن الرسول ﷺ معنى النهي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله: «يُستَجابُ لأحَدِكُم ما لم يَعجَلْ فيقُولُ: قد دَعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لي»[2]. وناهيك شرفاً وحظّاً ما يحصل له بسبب مداومته الدعاء: من

= وإما أن يَصْرِفَ عنه من السوء مثلها». قالوا: إذاً نُكثرَ. قال: «الله أكثر». رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب للمنذري).

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يَدْعُو الله بالمؤمن يوم القيامة حتَّى يوقفه بين يديه، فيقول: عبدي، إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك، فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا ربّ، فيقول: أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغمٍّ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا، ودعوتني يوم كذا وكذا لغمٍّ نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً؟ قال: نعم يا رب، فيقول: إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا. ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: عجلتها لك في الدنيا، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا. قال رسول الله ﷺ: فلا يَدَعُ الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بيَّن له، إما أن يكون عجَّلَ له في الدنيا، وإما أن يكون ادَّخر له في الآخرة. قال: فيقول المؤمن في ذلك المقام: يا ليته لم يكن عُجِّل له شيء من دعائه». رواه الحاكم (١: ٤٩٨) وصححه، والترمذي (٣٥٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبو داود في سننه (١٤٨٤)، والترمذي في جامعه (٣٣٨٧)، وابن ماجه في سننه (٣٨٥٣) عن أبي هريرة.

الظفر بمحبة الله تعالى وموافقة رضاه، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَعالَى يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعاء»[١].

وقد جاء في الحديث: «قال جبريل عليه السلام: يَا رَبِّ: عَبْدُكَ فُلانٌ اقضِ لهُ حاجتَهُ، فيقولُ: دَعُوا عَبْدِي فإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ»[٢]، رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط، ولا علم للداعي بها فتتأخر، لعدم وقوع ذلك أو بعضه، وذلك مثل وجود الاضطرار. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، فرتب الإجابة على الاضطرار.

---

(١) رواه الحكيم (٢: ٨٤)، وابن عدي في الكامل (٧: ١٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٨) عن عائشة، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (١٨٧٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٤٤٢) عن جابر بن عبد الله، ولفظه: «إن العبد يدعو الله وهو يحبه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وأخِّرها، فإني أحب ألا أزال أسمع صوته. وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وعجلها، فإني أكره أن أسمع صوته».

وقال المناوي في فيض القدير: إذا أحب الله عبداً (أي: أراد به الخير ووفقه) ابتلاه (أي: اختبره وامتحنه بنحو مرض أو هم أو ضيق) ليسمع تضرعه (أي: تذلُّلَهُ واستكانته وخضوعه ومبالغته في السؤال ليعطى صفة الجود والكرم جميعاً، فإنهما يطلبانه عند سؤال عبده بالإجابة، فإذا دعا، قالت الملائكة: صوت معروف، وقال جبريل: يا رب اقض حاجته، فيقول: دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته. كذا جاء في خبر. قال الغزالي: ولهذا المعنى تراه يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده، وإذا رأيت الله عز وجل يحبس عنك الدنيا ويكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عزيز عنده، وأنك عنده بمكان، وأنه يسلك بك طريق أوليائه وأصفيائه، فإنه يراك ولا يحتاج إلى ذلك، أما تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقال بعض العارفين: «إذا أراد الله تعالى أن يستجيب دعاء عبد من عبيده رزقه الاضطرار في الدنيا».

والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته. قال بعضهم: «المضطر الذي رفع إلى الله تعالى حاجته لم يرَ لنفسه عملاً». وهذا حال شريف، ومقام منيف، يعز على كثير من الناس الوصول إليه، فكيف يتحقق ما ينبني عليه؟ انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٦٩ـ (لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إلى غيرِه، فالكرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمال).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الهِمَّةُ العلية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى.

قال الجنيد رضي الله عنه: «الكريم: الذي لا يحوجك إلى مسألة».

وأجمع العبارات في معنى الكريم ما قيل: «الكريم: الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا، ولا يُبَالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت إلى غيره حاجة لا يرضى، وإن جُفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعا، فإذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحدٌ سوى الله تعالى فينبغي أن لا تتخطاه آمال المؤمِّلين إلى غيره». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: فمن تمسك بالله دون كل شيء، خرج عن كل ما سوى الله تعالى، وما دام السالك ملتفتاً إلى غير مولاه ما يصلح لمحبته ولا لتوحيده الخاص.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود: أنا بُدُّكَ اللازم، فالزم بُدَّك، فإن حَصَّلْتُ لَكَ حصلَ لكَ كُلُّ شيء، وإنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شيء».

فالعاقل الكَيِّسُ هو الذي لا يرضى في الدارَيْن بغير مولاه، ولا يسأل سواه، لعلمه وتحققه بأن ما ثَمَّ إلا إياه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٠ـ (مَتَى أطلَقَ لِسانَكَ بالطَّلَبِ فاعلَمْ أنّهُ يُرِيدُ أنْ يُعْطِيَك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إطلاقُ اللِّسان بالطلب: هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذي أوجبه الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الفاقة والافتقار، فإذا حلَّ عنه هذه العقدة بشهود فقره وفاقته، وأطلق لسانه بالطلب، وكان إذ ذاك داعياً بلسان الاضطرار، كان مجاب الدعوة لصدق الوعد بإجابة دعوة المضطر، والله لا يخلف الميعاد، وأنشدوا:

لو لم تُرِدْ نَيْلَ مـا أرجُـوهُ مِـن طَلَـبِ   مِن فَيْضِ جُودِكَ ما ألـهَمْتَني الطَّلَبـا

وفي الحديث، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «من أُذِنَ لهُ في الدُّعاءِ مِنْكُم فُتِحَتْ لهُ أبْوابُ الرَّحمةِ، وما يُسألُ اللهُ شيئاً قطُّ أحَبَّ إلَيْهِ مِن أنْ يُسْألَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَة»[1]، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أُعْطِيَ الدُّعاءَ لم يُحْرَمِ الإجابة»[2]. انتهى.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٨) بلفظ: عن عبد الله بن عُمَرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «من فُتِحَ له مِنْكُم بَابُ الدُّعَاءِ فُتِحَتْ له أبوابُ الرَّحمة، وما سُئِلَ الله شيئاً يعطى أَحَبَّ إليه من أَنْ يُسْأَلَ العَافِيَةَ»، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدُّعاءَ يَنفَعُ ممَّا نَزَلَ وممَّا لم يَنْزِلْ، فعَلَيْكُم عِبادَ الله بالدُّعاء»، وقال: هذا حديث غريب، وانظر فتح الباري (١١: ١٤١) حيث قال: رواه الترمذي بسند لين، وصححه الحاكم (١: ٤٩٨) وتعقبه الذهبي.

(٢) جزء من حديث طويل ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤: ٧١) من رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

٧١ـ (ما طَلَبَ لكَ شيءٌ مِثْلُ الاضْطرار، ولا أسرَعَ بالمواهِبِ إليكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافتقار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: اضطرارُ العبد هو أخصُّ أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجلُّ منه، وفيه أيضاً خاصية إجابة الدعاء. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، والاضطرار المطلوب منه: أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئاً من الحول والقوة، ولا يرى لنفسه سبباً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، ويكون بمنزلة الغريق في البحر، أو الضال في التيه القفر، لا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو للنجاة من هلكته أحداً سواه.

وقال بعض العارفين: «المضطر الذي يقف بين يدي مولاه، فيرفع يديه إليه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً فيقول: يا مولاي، هب لي بلا شيء». والذلة والافتقار أمران لازمان له، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما، وإليه الإشارةُ بقوله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فذلتهم أوجبت لهم عزتهم، كما قيل:

وإذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقابُ تَقَرُّباً ... مِنْها إليكَ فعِزُّها في ذُلِّـها

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٢ـ (رُبَّما استَحْيا العارِفُ أن يَرفَعَ حاجتَهُ إلى مَوْلاهُ اكتفاءً بمشيئتِهِ، واعتماداً علَى قِسمتِهِ، فكيفَ لا يَستَحيي أن يَرْفَعَها إلى خَلِيقتِهِ!).

قال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: اعلم: أنَّ مَن عَلِمَ جلال الحق لم يُعَرِّجْ على غيره؛ بل رُبَّما اسْتَحْيا العَارِفُ أنْ يَرْفعَ حاجته إلى مولاه، اكتفاء بمشيئته، واعتماداً على قسمته، وإذا كان كذلك فكيف لا يستحيي أن يرفعها إلى خليقته! إذا كان لا يرفعها إلى غني كريم رحيم، عزيز جليل، فكيف يرفعها لعبد لئيم فقير ذليل؟!

وسئل الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه عن الكيمياء[1] فقال: أخْرِجِ الخَلْقَ مِن قَلْبِكَ، واقْطَعْ طَمَعَكَ مِن رَبِّكَ أنْ يُعْطِيَكَ غَيْرَ ما قُسِمَ لك.

وقال أبو علي الدقاق[2] رحمه الله تعالى: علامة المعرفة أنْ لا تسأل حوائِجَك كلها إلا من الله سبحانه قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، دَقَّتْ أو جَلَّتْ، مثل موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام فإنه اشتاق إلى الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، واحتاج يوماً إلى رغيف فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]. انتهى.

---

(١) الكيمياء: الإكسير (مختار القاموس).
وفي التعريفات للجرجاني: فميز بين كيمياء السعادة التي هي: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها، وبين كيمياء العوام التي هي: استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني، وبين كيمياء الخواص التي هي: تخليص القلب عن الكون باستئثار المكوِّن. انتهى.

(٢) هو: الحسن بن علي بن محمد الدقاق، النيسابوري الشافعي (أبو علي)، صوفي، فقيه، أصولي. توفي في ذي الحجة سنة ٤٠٥هـ. من آثاره: كتاب الضحايا. انتهى. معجم المؤلفين (٣: ٢٦١).
وترجم له ابن العماد في شذرات الذهب في وفيات ٤٠٦هـ، ومما قيل فيه: كان فارهاً في العلم، مبسوطاً في الحلم، محمود السيرة، محمود السريرة، جنيدي الطريقة، سري الحقيقة، برع في الأصول وفي الفقه وفي العربية حتى شدت إليه الرحال في ذلك، له كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة. وقال فيه الغزالي: كان زاهد زمانه وعالم أوانه. (الشذرات ٣: ١٨٠، الكواكب الدرية ١: ٦٢٣).

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى في شرحه نقلاً عن التنوير: واعلم ـ رَحِمكَ اللهُ ـ: أنَّ رفع الهِمَّة لسالكي طريق الآخرة عن الخلق، وعدم التعرض لهم، أَزْين من الحُليِّ للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس، ومن خُلِعَتْ عليه خِلْعَةُ المُلك فحفظَها وصانها، فحريٌّ أن تدام له ولا تُسلب عنه، والمدنِّس لخلع المواهب فحريٌّ أن لا تترك له. فلا تدنِّسْ أيُّها الأخ إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين، وكن أيها الأخ إبراهيمياً، فقد قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وما سوى الله تعالى آفل، إمَّا وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي: اتبعوا ملته. فواجب على كل مؤمن أن يتبع ملَّة إبراهيم، ومن ملته رفع الهمة عن المخلوقين، فإنه يوم زُجَّ به في المنجنيق تعرَّض له جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، وأمَّا إلى الله تعالى فبَلَى. قال: فاسأله، قال: «حسبي من سؤالي، علمه بحالي». فانظر كيف رفع همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من الله تعالى؛ بل رأى ربه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله؛ فلذلك سلمه من نمرود ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصَّه بوجود إقباله. انتهى.

وقال أيضاً في شرحه عند قول المصنف رضي الله عنه: «رُبَّما دَلَّهُمُ الأدَب علَى تَركِ الطَّلَبِ، اعتماداً علَى قِسْمَتِه، واشتِغالاً بذِكْرِهِ عَن مَسْألَتِه»: قد يكون من الأدب ترك السؤال والطلب لمن هو مستغرق في الأذكار، راضٍ بما يجري عليه من تصاريف الأقدار، وهو أحدُ مذاهب القوم. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: واختلف الناس في أي شيء أفضل: الدعاء أم السكون والرضا؟

فمنهم من قال: الدعاء في نفسه عبادة. قال ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[١]، فالإتيانُ بما هو عبادة أولى من تركها، ثم هو حقُّ الحق سبحانه وتعالى، فإن لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق ربه، ولأن الدعاء: إظهار فاقة العبودية.

وقد قال أبو حازم الأعرج[٢] رضي الله عنه: لأن أُحْرَم الدعاءَ أشدُّ عليَّ من أن أحرم الإجابة.

وطائفة قالوا: السكوتُ والخمولُ تحت جريان الحكم أتمُّ، والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى؛ ولهذا قال محمد الواسطي: «اختيار ما جرى لك في الأزل خيرٌ لك من معارضة الوقت». وقد قال ﷺ خبراً عن الله تعالى: «مَن شَغَلَهُ ذِكْرِي عَن مسألتي أعطَيْتُهُ أفْضَلَ ما أُعْطي السَّائلين»[٣].

وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضاً بقلبه، ليأتي بالأمرين جميعاً.

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٤: ٤٥٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣: ٢٩٣)، وقد تقدم.

(٢) هو سلمة بن دينار المخزومي، المديني، الأعرج، الواعظ الزاهد. كان فقيه النفس، ثقة، نبيلاً، كثير العلم، عالم المدينة وإمامها. قال ابن خزيمة: لم يكن في زمنه أحد مثله، أدخل على سليمان بن عبد الملك، فقال له: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. فقال: كيف القدوم على الله؟ فقال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. مات سنة (١٤٠هـ). (الشذرات ١: ٢٠٨، الكواكب الدرية ١: ١٥٨، صفة الصفوة ٢: ١٠٧ - ١١٣).

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه البخاري في التاريخ، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وصفوان بن أبي الصهباء ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات. انتهى.

قال الإمام أبو القاسم رضي الله عنه: «والأولى أن يقال: إنَّ الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال: الدعـاء أفضـل من السكوت، وهو الأدب، وفي بعض الأحوال: السكوت أفضل من الدعاء، وهو الأدب، وإنما يُعرف ذلك بالوقت؛ لأنَّ علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى، ويصح أن يقال: ينبغي للعبد أن لا يكون ساهياً عن شهود ربه تعالى في حال دعائه.

ثم يجب عليه أن يراعي حاله، فإن وجد من الدعاء زيادة بسط في وقته، فالدعاء له أولى، وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شِبْهُ زجر ومثل قبض، فالأولى له ترك الدعاء في هذا الوقت، وإن لم يجد في قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر، فالدعاء وتركه هنا سِيَّان، وإن كان الغالبَ عليه في هذا الوقت العلمُ فالدعاء له أولى لكونه عبادة، وإن كان الغالبَ في هذا الوقت المعرفةُ والحال فالسكوت أولى.

ويصح أن يقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب، أو للحق تعالى فيه حقٌّ فالدعاء أولى. وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أَتَمُّ وأولى، وفي الخبر المروي: «إنَّ العَبدَ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى وهُو يُحِبُّه، فيقولُ: يا جبريلُ: أَخِّرْ حاجةَ عَبْدِي فإنِّي أُحبُّ أنْ أسْمَعَ صَوْتَهُ، وإنَّ العَبْدَ لَيَدْعُو اللَّـهَ، وهُوَ يُبْغِضُهُ، فيقُولُ: يا جبريلُ: اقْضِ لِعَبْدِي حاجتَهُ، فإنِّي أكرَهُ أنْ أسْمَعَ صَوْتَه»(١). انتهى كلام أبي القاسم رضي الله عنه، وهو حسن بديع، وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٦٥).

٧٣ـ (لا تَستَبْطئْ مِنهُ النَّوالَ؛ ولكنِ استَبْطِئْ مِن نَفْسِكَ وُجُودَ الإقبالِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: النوالُ: العطاءُ على نوع من الكرم والإفضال. والإقبالُ: الرجوعُ إليه تعالى بنوع من التَّذَلُّلِ وتركِ السِّوى.

وإنما أمرت باستبطاء إقبالِكَ دون نواله لثلاثة أوجه، **أحدها**: أنَّ نواله لم يُمْنَعْ عنك من بخلٍ ولا عُدم؛ ولكن لتخلف شروطِه التي اقتضت حكمته تعليقه عليه وهو الإقبال. **الثاني**: أنَّ الاستبطاء لإقبالك حق عبوديتك، واستبطاؤك لنواله حظ نفسك، وحقك أن تكون مهتماً بحق ربك، لا بحظ نفسك، كن صاحب الاستقامة ولا تكن صاحب الكرامة. **الثالث**: أنَّ طلب النوال بدون الإقبال إتيان للأمر من غير بابه، وتوصل له بغير وجود أسبابه، والاهتمام بالمسبب دون إعمال السبب والتهمُّم به جهل وحمق، فقد قال معروف الكرخي رضي الله عنه: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٤ـ (خَيْرُ ما تَطلُبُهُ مِنهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْك).

قال الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: وطلبه منك ـ والله أعلم ـ القيام بحقوق العبودية، فإن أنت طلبت منه ذلك مع القيام به فقد وافقت إرادتُك إرادته، والذي يدل على أنَّ العبودية مرادة لك ومنك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فأنت طلبت منه القيام بحقوق العبودية مع قيامك على ذلك بتوفيته، فأنت حرٌّ مما سواه؛ لأن من طلب الحق من الحق للحق: وجد الحق. يقول جلَّ وعلا في بعض كتبه المنزلة: (أنا المطلوب فاطلبني

تجدني)، ومن طلب الحق بنفسه لنفسه لم يجده؛ لأن أعظم حجاب عن الله نفسك؛ فإن أردت اللحوق بأهل الكمال والغايات، فعليك بتصحيح البدايات، وقُمْ على قدم العبودية بحُسْن الموافقة والأدب فيما أقامك فيه، ولا تترُكْ شيئاً من الطَّاعات، وتحزن على فقدها، وتحتجَّ بالمشيئة، فقد قال أصدق القائلين على لسان أصدق العاملين ﷺ في القرآن العظيم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

قال بعض المحقِّقين في معنى تأويل هذه الآية الشريفة؛ ردّاً على بعض الضالين الحائدين عن طريق الرشاد: يا ليت شعري! إذا لم يكن للإنسان كسب ولا سعي فمن يُجْزى بالجزاء الأوفى؟ انتهى.

* * *

باب التسليم لأمر الله تعالى وترك الاختيار

اعلم: أنَّ التسليمَ لأمر الله عز وجل هو: الرضا بقضائه تعالى، وهو: عبارة عن ترك السخط. والسخط: ذكر غير ما قضى الله بأنه أولى به وأصلح فيما لا يستيقن صلاحه وفساده، فيجب على العبد أن يرضى بقضاء الله ولا يعترض عليه في شيء من أفعاله لا ظاهراً ولا باطناً، ومثال الاعتراض أن يقول: لم كان هذا؟ ولأي شيء كان هذا؟ وبأي ذنب استحق فلان ما جرى؟ بل يجب عليه أن يعتقد أن جميع أفعال الله تعالى وقعت على وجه لا أحكم منه ولا أعدل ولا أفضل منه ولا أكمل، ثم إنَّ الأمور التي تختص العبد على قسمين:

أحدهما: ما يلائمه كالصحة والغنى، وهذا القسم لا يتصور فيه سخط إلا من حيث النظر إلى من فضل عليه في ذلك، فالواجب عليه عنده أن يرضى بما قسم الله له من حيث إنه سبحانه يفعل ما يشاء في ملكه، أو من حيث إنه تعالى اختار له ما هو الأصلح والأنسب بحاله، وهذا هو الأكمل.

والثاني: ما يلائمه كالمصائب والأمراض والفاقات، فحرام عليه أن يتبرم بشيء من ذلك، أو يجزع عنده، والأكمل له أن يرضى ويسلم، فإن لم يستطع فليصبر وليحتسب، ففي الحديث: «اعْبُدِ اللهَ بالرِّضا، فإن لم تَستَطِعْ ففي الصَّبرِ علَى ما تَكْرَه خيرٌ كثير»[١].

---

(١) رواه أحمد (١ : ٣٠٧) من حديث ابن عباس بلفظ: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً». وقال العراقي: رواه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أُمر بالرضا به، ويرضى ببعض المقضيات لا بكلها، إذ ليس كلُّ ما هو بقضائه يجوز للعبد الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين، فلا يجوز له الرضا بسائر المعاصي، وإن كانت مرادة لله تعالى؛ لأنه ليس معدوداً من الرضا الممدوح المطلوب من العبد، وليس من الرضا في شيء ما يجده بعض الأغبياء من الطمأنينة عند ترك بعض المأمورات، وارتكاب بعض المحظورات، فإنَّ فعل المعاصي، وترك الطاعات مما يسخط الله تعالى فكيف يرضى هو بشيء لا يرضى به الله؟ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وإنما رضي هذا المسكين عن نفسه، وظن أنه رضي عن ربه، والرضا عن الله وعن النفس بعيد أن يجتمعا في موطن واحد. انتهى. من «رسالة المعاونة»[1] للإمام العارف بالله تعالى السيد عبد الله الحداد رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٥ـ (إرادتُكَ التَّجرِيدَ معَ إقامةِ اللّٰـهِ تعالَى إيَّاكَ في الأسْبابِ، منَ الشَّهوةِ الخفِيَّةِ، وإرادتُكَ الأسبابَ معَ إقامةِ اللّٰـه تعالَى إيَّاكَ في التَّجرِيدِ انحِطاطٌ عنِ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الأسباب ههنا عبارة: عمَّا يتوصَّل به إلى غرضٍ مما يُنَال في الدنيا.

والتجريد: عبارةٌ عن عدم تشاغله بتلك الأسباب؛ لأجل ذلك فمن أقامه الحقُّ تعالى في الأسباب، وأراد هو الخروج منها، فذلك من شهوته الخفيَّة، وإنَّما

(١) ص٣٧.

كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به، وإرادتُه هو خلاف ذلك؛ وإنما كانت شهوة خفيَّة؛ لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل، وإنَّما قصد بذلك التقرُّب إلى الله تعالى بكونه على حال هي أعلى بزعمه؛ لكنه فاته الأدب، بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إيَّاه فيما أقامه فيه، وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به في الوقت.

وعلامة إقامته إياه في الأسباب أنْ يديم له ذلك، وأنْ تحصل له ثمرته ونتيجته، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامةً في دينه، وقطعاً لمطمعه عن غيره، وحسن نية في صلة رحم، وإعانة فقير معدم، إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين.

ومن أقامه الحق تعالى في التجريد، وأراد الخروج منه إلى الأسباب، فذلك من انحطاط همَّته وسوء أدبه، وكان واقفاً مع شهوته الجلية؛ لأنَّ التجريد مقام رفيع، أقام الحقُّ تعالى فيه خواصَّ عباده من الموحدين والعارفين، فإذا أقامه الحقُّ تعالى مقام الخواصِّ فلِمَ ينحطُّ عن رتبتهم إلى منازل أهل الانتقاص؟

وعلامة إقامته إياه في التجريد ما ذكرناه من الدوام، ووجدان الثمرة، ومن ثمرات ذلك: طِيبُ وقت المتجرِّد ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم.

والهمة: حالةٌ للقلب، وهي: قوةُ إرادة، وغلبةُ انبعاث إلى نيل مقصودٍ ما، وتكون عالية إن تعلقت بمعالي الأمور، وسافلة إن تعلقت بأدانيها. قال الشاعر:

إذا أعطَشَتْكَ أكُفُّ اللِّئـام ... كَفَتْكَ القَناعةُ شِبْعاً ورِيّـا
فكُنْ رجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى ... وهامــةُ هِمَّتِــهِ في الثُرَيَّــا

انتهى.

قال الأهدل في شرحه نقلاً عن بعض المشايخ: مَثَلُ المتسبب والمتجرد كمثل عبدَيْن للملك، قال لأحدهما: اعمل وكُلْ من عَمَلِ يدك، وقال للآخر: الزم أنت خدمتي وأنا أقوم لك بقسمتي، فمتى خرج واحد منهما عن مراد السيد فقد أساء الأدب، وتعرض لأسباب المقت والعطب. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٦ـ (أرِحْ نَفسَكَ منَ التّدبير، فما قامَ بِهِ غيرُكَ عنكَ لا تقُومُ بِهِ أنتَ لِنَفْسِك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذي نقوله مذموم؛ لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك، وقام به عنهم، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه، ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط، وهو أن يقدر العبد لنفسه شؤوناً يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال، ويستعد لذلك ويهتم لأجله، وهذا تعب عظيم استعجله، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه، ويبطل سعيه، ثم فيه من ترك العبودية، ومضادة أحكام الربوبية، ومنازعة القدر وإضاعة العمر ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه، وقطع مواده وأسبابه. قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم».

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «إذا كان ولا بد من التدبير فدبروا ألاَّ تدبروا».

وهذه المسألة أساس طريق القوم، بل هي جملته وكليته[1]. انتهى.

---

(١) لعلك لم تنس الحكمة السابقة، وهي قوله: (إرادتك التجريد).. إلخ، ولعلك تقرن بينها وبين هذه الحكمة ليكمل المعنى الذي أراده الصوفية في هذا الموضوع.

وقال الأهدل في شرحه نقلاً عن إبراهيم الخواص[١]: «العلم كله في كلمتين: لا تتكلف ما كُفِيت، ولا تُضَيِّعْ ما استكفيت، والذي كُفِيتَهُ رزقُكَ في الدنيا والآخرة، والذي استكفيته عملك لله بما أمرك، وثقتك به فيما ضمن لك منهما، فإن قُمْتَ بكل منهما في محله كنت سالم البصيرة، منوَّر السريرة». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٧ـ (اجتهادُكَ فيما ضُمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طُلِبَ منكَ، دليلٌ على انطماسِ البَصِيرةِ مِنْك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الشيء المضمون للعبد هو رزقُه الذي يحصل لـه به قوام وجوده في دنياه. ومعنى كونه مضموناً: أن الله سبحانه وتعالى تكفَّل بذلك وفرَّغ العباد عنه، ولم يطلب منهم الاجتهاد في السعي فيه ولا الاهتمام له.

والشيء المطلوبُ من العبد هو العمل الذي يتوصل به إلى سعادة الآخرة، والقرب إلى الله تعالى من عبادات وطاعات. ومعنى كونه مطلوباً: أنه موكول إلى اكتساب العبد واجتهاده فيه، ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته بهذا جرت سنة الله تعالى في عباده. قال الله عز وجل في المعنى الأول الذي ضمنه للعبد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال سبحانه في المعنى

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص. من أقران الجنيد والنوري، وله في التوكل والرياضات حظ كبير، كان مبطوناً، وقد مات بالري سنة ٢٩١هـ.

ومن كلامه رضي الله عنه: ليس العالم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم.

وقال: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن الكريم بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين. (الرسالة القشيرية ص٤١١).

الثاني الذي طلب منه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]. وقد ورد في بعض الآثار عن الله عز وجل أنه قال: «عبدي، أطعني فيما أمرتك، ولا تُعلِمْني بما يصلحك»، فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه: من الاجتهاد في الأمر المطلوب منه، وتفريغ القلب من الأمر المضمون له، فقد انفتحت بصيرته، وأشرق نور الحق في قلبه، وحصل على غاية المقصود.

ومَن عكس هذا فهو مطموس البصيرة، أعمى القلب، وفعله دليل على ذلك.

والبصيرة ناظر القلب، كما أن البصر ناظر العين. وناظر القلب إنَّما ينظر للعاقبة، والعاقبة للمتقين، فالتقوى هي التي تجب على العبد، وأن يجتهد فيها لا غير.

وتعبير المؤلف رحمه الله تعالى بالاجتهاد إشعار بأنَّ طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام، وهو كذلك؛ لأنه مباح ومأذون فيه، فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه، إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٧٨ـ (ما ترَكَ منَ الجَهْلِ شيئاً مَن أرادَ أن يُحْدِثَ في الوقتِ غيرَ ما أظهرَهُ اللهُ تعالَى فيه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إذا أقام الله تعالى العبد في حال من الأحوال التي لا يذمُّها الشرع، فليلتزم حُسْنَ الأدب في اختيار بقائه عليها ورضاه بها، وليراقب الله تعالى في مراعاة آدابها، وليوافق مراد الله تعالى في ذلك حتى يكون هو الذي ينقله عنها.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني منه إلى غيره فسخطته».

وهذا من نتائج العلم بالله تعالى، ومعرفة ربوبيته؛ فإنْ سَخِطَ تلك الحال وتشوَّف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث[١] غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربِّهِ، وأساء الأدب في حضرة مولاه عز وجل، وهذا من معارضة حكم الوقت الذي يشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة، فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى في ذلك الوقت، فهو أدب العبودية، ومقتضى العلم بالله تعالى، وهو أحد معاني لفظ «الوقت» في اصطلاحهم. انتهى.

وقال أبو الحسن علي الحجازي في شرحه: وأما الوقت فعندهم: عبارة عن حالك في زمن بحال لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل، فكأنه رضي الله عنه يشير إلى أن العارف مقطوع الإرادة، ساقط الاختيار؛ لأن هذه صفة لازمة للعارف على الدوام. وعلامة ذلك أن يكون مع ذلك متصفاً بوصف العبودية، قائماً بحقوق الربوبية؛ لأن من عرف الرحمن ولم يخدمه استخدمه الشيطان. انتهى.

قال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: وقد جاء في بعض الآثار أن الله يقول: «ابن آدم، تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلَّمْتَ لي فيما أريد، أعطيتك ما تريد، وإن نازعتني فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد»، ونظم بعضهم معنى ذلك في بيتَيْن، فقال:

سيكُونُ الذي قَضَى ... سَخِطَ العَبْد أم رَضِي
فَدَعِ الْهَمَّ يَا فَتَى ... كُلُّ هَمٍّ سَيَنْقَضِي

انتهى.

---

(١) أي: يظهر.

قال رحمه الله تعالى:

٧٩ـ (ما تَوقَّفَ مَطلَبٌ أنتَ طالِبُهُ برَبِّك، ولا تَيسَّرَ مَطلَبٌ أنتَ طالبُهُ بنَفْسِك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: من أنزل حوائجه بالله تعالى، والتجأ إليه، وتوكل في أمره كلِّه عليه، كفاه كل مؤنة، وقرب عليه كل بعيد، ويسَّر عليه كل عسير، ومن سكن إلى علمه وعقله، واعتمد على قوَّته وحوله، وَكَلَه الله تعالى إلى نفسه، وخَذَلَهُ وحرَمَه توفيقه، وأهملَهُ فلم تنجح مطالبُه، ولم تتيسَّر مآربُه، وهذا معلومٌ على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارِب. انتهى.

وقال الحجازي في شرحه ـ عند قوله: «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك» ـ: لأنَّ العبد إذا كان طلبه بربه كان موافقاً لإرادة سيده؛ لأن مراد الله تعالى من عباده أن يُظهروا الفاقة والفقر بين يديه، وهذا موطن العبودية، وهو أتم من موطن الحرية، وأعلى؛ لأنه مطلوب الله تعالى من عباده. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبودية مختار الله تعالى لخلقه، ومختار رسول الله ﷺ لنفسه، إذ خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فأشار جبريل أن تواضَعْ فاختار العبودية لله، فلما تواضع لله باختيار العبودية له رفعه الله، فجعله سيدَ ولد آدم.

ثم قال رضي الله عنه: «ولا تيسر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك» أيها العبد القاصر على ما عنده، الواقف مع نفسه، وذلك لعدم الموافقة لإرادة سيدك؛ لأن النفس لا تطلب إلا العاجل وما كان فيه حظُّها، والحق يطلب منك أن تترك مرادك لمراده، وألا تختار معه شيئاً. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٨٠ـ (الغافلُ إذا أصبَحَ نَظَرَ ماذا يَفْعَل، والعاقلُ ينظرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بـهِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: أولُ خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده، فالغافل إذا أصبح أوَلُ خاطر يرد عليه نسبةَ الفعل إلى نفسه، فيقول: ماذا أفعل اليوم؟ فهو مشتغل بتدبير نفسه، مصروف عن النظر إلى مولاه؛ لوجود غفلته عنه، فهو حقيق بأن يكِلَه الله تعالى إلى نفسه، فيتشتت عليه قلبه، ويتنغص عليه مراده، والعاقلُ أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى، فيقول: ماذا يفعل الله تعالى بي؟ فهو ناظر إلى الله تعالى، وإلى ما يرد عليه منه، وذلك لوجود عقله، ودوام يقظته، فلا جرَمَ أن يَكْفِيَهُ الله تعالى تعلقات الآمال، ويُفَرِّغَهُ من جميع الأشغال، ويُرْضِيَهُ، ويُقِرَّ عينه بما يقيمُه فيه من أعمال، ويُورِدُه عليه من أحوال، وهذه سعادة عظيمة، ومنَّة من الله لمن وليه من عباده جسيمة.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «أصبحتُ وما لي سُرُورٌ إلّا في مواضع القدر»، وقد يكون في معنى نظره إلى ما يفعل الله به: أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارات من قِبله، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق. وهذا ميزان شريف، اقتضاه دوام التجائه، وصدق افتقاره.

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «احرص أن تُمسي وتُصبح مُفَـوِّضاً مُسْتَسْلِماً، لعله ينظر إليك فيرحمك».

وقد صح بمعنى جميع ما قلناه الخبر ونقله إلينا علماء الحديث والسير.

وليكن من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليتوافق عقدُه وقوله في جميع تصرفاته: «اللَّهُمَّ إنِّي أصبحتُ لا أملِكُ لنفسي ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً

ولا نشوراً، ولا أستطيع أن آخُذَ إلا ما أعطيتني، ولا أتَّقي إلا ما وقيتني، اللَّهُمَّ وفِّقني لما تحبه وترضاه من القول والعمل في طاعتك، إنك ذو الفضل العظيم».

* * *

باب الصبر على البلايا والشدائد

اعلم: أنَّ الصبر من أشرف الخصال وأجلِّها، وأعظم الأخلاق وأكملها، وقد ورد في فضله والأمر به آيات كثيرة، وأخبار وآثار شهيرة. قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقال ﷺ: «في الصَّبْرِ علَى ما تَكْرَهُ خيرٌ كثير»، وقال ﷺ في وصيته لابن عباس: «واعلم: أنَّ النَّصْرَ معَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكَرْبِ، وأنَّ العُسْرَ معَ اليُسْر»[1]، وقال ﷺ: «ما لِعَبْدِيَ المؤمِنِ جَزاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجنة»[2]، وقال علي رضي الله عنه: «الصبر من الإيمـان بمنزلة الرأس من الجسد»، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «إنّ الله ليواصل البلاء بعبده المؤمن، فيُنزل عليه بلاءً بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة».

ثم اعلم: أن الصبر على أربعة أقسام:

أولها: الصبر على الطاعات، ويحصل باطناً: بالإخلاص فيها، وحضور

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٨٠٤) في حديث طويل عن ابن عباس، وأوله قوله ﷺ: «يا غلام: ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن».. الحديث، ورواه الحاكم (٦٣٠٤)، وانظر المعجم الكبير (١١٢٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٠) باب العمل الذي يبتغى به وجه الله، ورواه أحمد في المسند (٩٣٨٢).

القلب، وظاهراً: بلزومها، والدوام عليها، والدخول فيها بنشاط، والإتيان بها على الوجه المشروع.

ويبعث على هذا الصبر ذكر ما وعد الله به على فعل الطاعات من الثواب عاجلاً وآجلاً.

وثانيها: الصبر عن المعاصي، ويحصل ظاهراً: باجتنابها والبعد من مظانِّها، وباطناً بترك تحدث النفس بها، وميلها إليها؛ لأنَّ أول الذنب خطرة، ويبعث على هذا الصبر تذكر ما توعد الله به على المعاصي من العقاب عاجلاً وآجلاً.

وثالثها: الصبر على المكاره، وهي نوعان:

النوع الأول: ما يحصل من الله بلا واسطة، كالأمراض، والفاقات، وذهاب الأموال، وموت الأعزة من الأقارب والأصحاب، ويحصل باطناً: بترك الجزع، وظاهراً: بترك الشكوى إلى الخلق، ولا ينافيه وصف العلة للطبيب، وفيضان العين عند المصيبة.

ويبعث على هذا الصبر العلم بأن الجزع مؤلم في نفسه، وهو مع ذلك مفوت للثواب، وموجب للعقاب، وأنَّ الشكوى إلى من لا يستطيع أن ينفع نفسه، ولا أن يكشف عنها ضُرّاً من الحماقة، وذكر ما في الصبر على المصائب من الثواب، وأن الله تعالى أعلم بما يصلح له منه لنفسه.

والنوع الثاني من المكاره: ما يكون من قبل الخلق من الأذى في النفس والعرض والمال، ويحصل كمالُ الصبر على ذلك بكفّ النفس عن بغض المؤذي إن كان مسلماً، وعن حب الشرّ له، وكفّ اللسان عن الدعاء عليه، وترك المؤاخذة له، إمَّا حلماً واحتمالاً، أو عفواً وصفحاً، اكتفاءً بنصرة الله في الأول، ورغبة في

ثوابه في الثاني، ويبعث على هذا الصبر العلم بما ورد في فضل كظم الغيظ، واحتمال الأذى، والعفو عن الناس.

ورابعها: الصبر عن الشهوات، وهي: كلُّ ما تميل النفس إليه من مباحات الدنيا، ويحصل كمال الصبر عنها بكف النفس باطناً عن التفكر فيها، والميل إليها، وظاهراً بكفها عن طلبها والتعريج عليها، ويبعث على هذا الصبر العلم بما في طلب الشهوات وتناولها من الشغل عن الله وعن عبادته، ومن التعرض للوقوع في الشبهات والمحرمات. انتهى الكلام على أقسام الصبر ملخصاً من «رسالة المعاونة».

قال رحمه الله تعالى:

٨١ـ (إذا فَتَحَ لكَ وِجهةً منَ التَّعرُّفِ فلا تُبالِ معَها وإنْ قَلَّ عَمَلُك، فإِنَّهُ ما فَتَحَها لك إلاَّ وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتعرَّفَ إِليك، ألم تَعلَمْ أنَّ التَّعرُّفَ هُوَ مَوْرِدُهُ إِلَيْك، والأعمالُ أنتَ مُهْدِيها إِلَيْه! وأينَ ما تُهْدِيهِ إِلَيْهِ ممَّا هُوَ مُوْرِدُه عَلَيْك!).

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: الوجهةُ: هي عينُ البصيرة، والتعرفُ هو: الإلهامُ إلى النظر بها إلى آثار مصنوعاته الدالة على توحيد ذاته وصفاته وأفعاله، فإذا نظرت بعين بصيرتك إلى آيات ربك الدَّالة على وحدانيته، اهتديت إلى الحق، واستغنيت عن السَّبب والعمل الذي تكتسب به المعرفة، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك بأفعاله وصفاته الدالة على وحدانية ذاته، ألم تعلم أنَّ التعرف هو مُورِدُه عليك، والأعمال من صدقة وبِرٍّ وصلاة وزكاة وصيام وغير ذلك من أنواع العبادات أنت مهديها إليه؟ وأين ما تهديه إليه من هذه الأحوال مما هو مورده عليك من إلهامٍ وتوفيق وهدايةٍ إلى طريق المعرفة

والكشف المختص بها أهلُ العنايات ذوو المواهب والتحقيق؟ وأهل هذه المواطن الأعمال مسخرة لهم من غير تكلف ولا مشقة، وأمَّا أهل الأعمال فإنَّهم مكلَّفون ومجاهِدون. والمجاهدة هي: حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى على كل حال. انتهى.

وقال ابن عباد في شرحه: معرفةُ الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرُّف له منها، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرَّبين، المؤدِّي إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد، ولا بعمله، والأعمالُ التي من شأنه أن يتلبس بها هي باكتسابه وبعمله، فلا تسلم من دخول الآفات عليها، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما أمَّلَهُ من الثَّواب عند مناقشة الحساب، وأين أحدهما من الآخر؟!

ومثاله: ما يُصَابُ به الإنسان من البلايا والشدائد التي تُنَغِّصُ عليه لذّات الدنيا، وتمنعه من تكثير أعمال البر، فإنَّ مرادَه أن يستمر بقاؤه في دنياه، طيِّب العيش، ناعم البال، ويكون حاله في طلب سعادة الآخرة حال المترفهين، فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة التي لا كبير مؤنة عليه فيها، ولا مشقة، ولا تقطع عليه لذة ولا تفوته شهواته.

ومراد الله عز وجل منه أن يُطَهِّرَه من أخلاقه اللئيمة، ويحولَ بينه وبين صفاته الذميمة، ويخرجه من أثر وجوده، إلى مُتَّسَعِ شهوده، ولا سبيل له إلى

الوصول إلى هذا المقام، على غاية الكمال والتمام، إلا بما يضادُّ مراده، ويُشَوِّشُ عليه مُعْتَادَه، ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينهما وبين الأعمال الظاهرة.

فإذا فهم هذا عَلِمَ أن اختيار الله تعالى له ومراده منه خيرٌ له من اختياره لنفسه ومراده لها.

قال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي[1] رضي الله عنه: «ولقد مرضت في سالف أيامي مَرْضةً، فلما شفاني الله تعالى منها، مَثَّلْتُ في نفسي ما دبر الله تعالى من هذه العلة في مقدار هذه المدة، وبين عبادة الثقلين في مقدار مدتها إلى أيهما أميل اختياراً؟ فصَحَّ عزمي، ودام يقيني، ووقعَتْ بصيرتي، أنَّ مختار الله تعالى أكثر شرفاً، وأعظم أجراً، وأنفع عاقبة، وهي العلَّة التي دبرها لي ولا شوب فيه إذ كان فعله، فشتان بين فعله بك لتنجو به، وبين فعلك لتنجو به، فلَمَّا رأيت هذا دقَّ في عيني عبادة الثقلين في مقدار تلك المدة في جنب ما آتاني، فصارت العلة عندي نعمة، وصارت النعمة منَّة، وصارت المنَّة أملاً، وصار الأمل عطفاً، فقلت في نفسي: بهذا كانوا يستمرون في البلاء على طيب النفوس مع الحق، وبهذا الذي انكشف كانوا يفرحون بالبلاء». انتهى.

---

(١) نسبة إلى ترمذ: مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بـ(جيحون). كان إماماً من أئمة المسلمين، من كبار الشيوخ، وله تصانيف كثيرة في علوم القرآن، والتصوف، وأصول الدين، ومعاني الحديث، صحب أبا تراب النخشبي، وأحمد بن خضرويه، وأحمد بن الجلاَّء، وغيرهم.

ومن كلامه رضي الله عنه لما سئل عن صفة الخلق فقال: ضعف ظاهر ودعوى عريضة.

وقال: ما صنفت حرفاً عن تدبير، ولا نسبت إليَّ شيئاً منه؛ ولكنه كان إذا اشتد عليّ وقتي أتسلَّى به. (انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ١: ١٢٧).

فهذه هي وجهة التعرف التي فتحها الله تعالى له، وحصلت له الغبطة بها، وآثرها على عبادة الثقلين، والله أعلم.

فإذا أورد الله تعالى على العبد شيئاً من البلاء فليستشعر ما ذكرناه، وليجعله نصب عينيه، وليُجَدِّد تذكاره على نفسه حتَّى يَحْصُلَ له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك، ويزيل عنه مرارته، ويوجده حلاوته، وعند ذلك يكون حاله في بلائه كحال الشاكرين، من الفرح والاغتباط به، فيرى من حقِّ شكره أن يأتي بما يمكنه من أعمال برّه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٨٢ـ (لا تَستَغْرِبْ وُقُوعَ الأكدار ما دُمْتَ مُقِيماً في هذِهِ الدَّار، فإنَّها ما أبْرَزَتْ إلاَّ ما هُوَ مُسْتَحِقٌّ وَصْفِها وواجِبُ نَعْتِها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: جعل الله تعالى الدنيا دار فتنة وابتلاء؛ ليعمل كل واحد فيها على مقتضى ما سبق له، ويُوَفَّى جزاءه في الدار الآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وعمل كل أحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه، أو موافقتها، وذلك لا محالة يستدعي وجود محبوب أو مكروه بفعل أو بترك، فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها، فتقع الأكدار بسبب ذلك، وأيضاً: فحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباعُ الناس إليها، وهي لا تفي بجميع مطالبهم لضيقها وقِلَّتها، وسرعة تقضِّيها وتقلبها، فتجاذبوها بينهم، فتَكدَّر عَيشُهم، ولم يحصلوا على كلية أغراضهم، فلا تستغرب وقوع أمثال هذا، فإنه ما ظهر منها إلا ما هو مُسْتَحِقٌّ وصفها، وواجبُ نَعْتِها من وجدان المكاره التي هي ذاتية لها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الدنيا كلها غموم، فما كان منها في سرور فهو ربح».

فالواجب على العبد أن لا يُوطِّن على الراحة في الدنيا نَفْساً، ولا يركن منها إلى ما يقتضي فرحاً وأُنساً، وأن يعمل على قول النبي ﷺ فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ»[1]. فتوطين العبد على المحن في دنياه يُهَوِّن عليه ما يلقاه، ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه، كما قيل:

يُمَثِّـلُ ذُو اللُّـبِّ في لُبِّـهِ ... شَـدائِدَهُ قَبْـلَ أنْ تَنْـزِلا

فَـإنْ نَزَلَـتْ بَغْتَـةً لَمْ تَرُعْـهُ ... لِـمَا كَـانَ في نَفْـسِهِ مَـثَّلا

رَأَى الأَمْرَ يُفْضِـي إلى آخِـرٍ ... فَـصَيَّرَ آخِـرَهُ أَوَّلا

وَذُو الـجَهْلِ يَـأْمَنُ أَيَّامَـهُ ... ويَنْسَى مَصَارِعَ مَن قد خَلَا

فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَـانِ ... بِـبَعْضِ مَـصَائِبِهِ أَعْـوَلا

فَلَـوْ قَـدَّمَ الحَـزْمَ في نَفْـسِهِ ... لَعَلَّمَـهُ الـصَّبْرَ عِنْـدَ الـبَلا

فليتلقَّ المريدُ ما يَرِدُ عليه من ذلك بالصبر والرضا، والاستسلام عند جريان القضا، فعن قريب إن شاء الله تعالى يتجلي الأمر، ويستوجب من الله عز وجل جزيل الأجر.

قال أحمد بن أبي الحواري: قال لي أبو سليمان الداراني: جوعٌ قليل، وعريٌ قليل، وذُلٌّ قليل، وصبر قليل، وقد انقضت عنك أيام الدنيا.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦)، ولفظه: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» والترمذي (٢٣٢٤)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد في المسند (٢: ٣٢٣)، وابن حبان (٢: ٣٨ إحسان).

قال رحمه الله تعالى:

٨٣ـ (لِيُخَفِّف أَلمَ البلاءِ عَلَيْك، عِلمُكَ بأَنَّهُ المُبْتلي لك، فالذي واجَهَتْكَ مِنهُ الأَقدار هُوَ الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إذا علم العبد أنَّ الله تعالى رحيم به، ومُتعطِّفٌ عليه، وناظر إليه، فكُلُّ ما يُورِدُهُ عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يكترث به، ولا يباليه، فإنه لم يتعوَّد منه إلا خيراً، فليحسن به ظنه، وليعتقد أنَّ ذلك اختيار له، وأن له في ذلك مصالحَ خفية لا يعلمها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه في هذه الآية: فالعبدُ يَكْرَهُ العَيْلَة[١] والفقر والخُمول والضرر وهو خير له في الآخرة، وقد يُحِبُّ الغِنَى والعوافي والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة.

قال في التنوير: «إنما يقوِّيهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره»، وأنشد فيه لنفسه:

وَخَفَّفَ عَنِّي مَا أُلاَقِي مِنَ العَنَا ... بِأَنَّكَ أَنْتَ المُبْتَلِي وَالمُقَدِّرُ

وَمَا لامرئٍ عمَّا قضى الله مَعْدِلٌ[٢] ... وليس له منه الذي يتخيَّرُ

وقال الجنيد رضي الله عنه: كنت نائماً عند سريٍّ السقطي رضي الله عنه، فأنبهني وقال لي: يا جُنيد: رأيت كأني قد وقفت بين يديه، فقال لي: يا سريُّ:

---

(١) أي: الفقر.

(٢) أي: مفر ومهرب.

خلقتُ الخلق، فكلهم ادَّعوا محبتي، وخلقتُ الدُّنيا فَهَرَبَ مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العُشْر، وخلقتُ الجنَّة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، وخلقت النار فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فسلَّطتُ عليهم ذَرَّة من البلاء، فهرب مني تسعة أعشار عشر عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أخذتم، ولا من النار هربتم، ولا من البلاء فررتم، فما تريدون؟ قالوا: إنَّك لتعلم ما نريد، فقلت لهم: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إن كنت المبتلي فافعل ما شئت، فهؤلاء عبادي حقاً.

قال رحمه الله تعالى:

٨٤ ـ (مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ، فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ).

أي: في العقليات والعاديات والشرعيات، أمَّا **العقليات** فما مِن بلاء إلا والعقل قاض بإمكان أعظم منه، حتى لو قدرنا اجتماع بلاء الدنيا كلها على كافر، وعوقب في الآخرة بأعظم عذاب أهل النار لكان ملطوفاً به، إذ الله قادر أن يعذبه بأكثر من ذلك، وتهاونه بأمر الله يقتضي له استحقاق ما يواجه به من ذلك.

وأما **العاديات**: فما وجدت بليةً إلا في ضمنها خيرة، وحفَّها لطف باعتبار قصرها على نوعها، إذا المُـبْتَلى مثلاً بجُذام ـ والعياذ بالله ـ ليس كأعمى، وهما مع الغني ليس كهما مع الفقير، واجتماع كل ذلك مع سلامة الدين أمر يسير، ورُتَبُ البلاءِ لم تنحصر، ولم يشاهد اجتماعها قط على شخص واحد، فاللُّطْفُ متوجه للعبد بحسب نقصها.

وأما **الشرعيات** فقد قال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإنْ صَبَرَ اجتباه،

وإن رضي اصطفاه»[١]، وفي الصحيح عنه ﷺ: «ما يُصِيْبُ المُؤْمِنَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَب، ولا حُمَّى وَلا مَرَض، حتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُها، إلاّ كَفَّرَ اللهُ به خَطَايَاهُ»[٢]، فإذاً الواجب على العبد الشكر على البلية؛ لما تضمنته من النعمة، فإن فقد فالصبر، وإنما يغطي موجبها وجود الهوى. ذكر ذلك الأهدل في شرحه.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: تصوُّر النظر في عدم رؤية اللطف في القدر إنما هو من ضعف اليقين وقلَّة حسن الظنِّ بالمقدِّر الحكيم، إذ لو كَمُلَ نظرُ العبد وقويَ بصره لرأى في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى، وما غاب عنه أكثر؛ ولكان كما روي عن بعض الصالحين العارفين أنه قال: مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول.

وكان عمران بن الحصين[٣] رضي الله عنه قد استسقى بطنُهُ، فلبثَ مُلْقَىً

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء في كتاب التوحيد والتوكل بهذا اللفظ، وقال العراقي في تخريجه: رواه الطبراني من حديث ابن عيينة الخولاني بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيراً ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه، لا يترك له مالاً ولا ولداً»، وسنده ضعيف. انتهى.

وقال في كتاب المحبة: ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولده في مسنده. قلت: وقريباً من ذلك ما رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»، وإسناده حسن.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٤١ و٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، وأحمد في المسند (٢: ٣٠٣ و٣٣٥ و٣: ١٨ - ١٩ و٨١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد معاً.

(٣) عِمْرَان بن حُصَيْن بن عُبَيد بن خَلَف الخزاعي الكعبي، يُكنى أَبا نُجيد؛ بابنه نُجَيد، أَسلم عام خيبر، وغزا مع رسول الله غزوات، بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى البصرة ليفقه أَهلها وكان من فضلاءِ الصحابة.

قال محمد بن سيرين: لم نَرَ في البصرة أَحداً من أَصحابِ النبي ﷺ يفضُلُ على عمران بن حُصَين. وكان مجاب الدعوة ولم يشهد الفتنة. =

على ظهره سطيحاً ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له على سرير من جريد، وكان تحته ثُقْبٌ لغائطه وبوله، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء بن الشخير، فجعل يبكي لما رأى من حاله، فقال لِمَ تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة. قال: لا تبكِ، فإنَّ ما أَحَبَّه إليَّ أَحَبُّهُ إلى الله تعالى، ثم قال: أُحَدِّثُكَ بشيء لعل الله ينفعك به، واكتمْ علي حتى أموت: إنَّ الملائكة تزورني فآنس بها، وتُسَلِّمُ عليَّ فأسمع تسليمها.

ووجود الألطاف والمنن في البلايا لا تحصى؛ ولكنَّا نذكر منها ههنا ما يزداد المريد به قوة وحسن ظن بربه عز وجل، ويحمله ذلك على القيام بواجبها فنقول: البلايا التي يبتلي الله تعالى بها عباده مناقضة لإراداتهم، ومنغصة لشهواتهم، وكُلُّ ما أزعج النفس ونَغَّصَهَا وآلمها فهو محمود العاقبة، من قِبَل أَنَّ ذلك رادٌّ له إلى الله تعالى، وملازمة بابه بصدق اللجوء والافتقار، وهذا هو أعظم فوائد البلايا، ويجد ذلك من نفسه من نزلت به بلية أو أصابته رزية، وفيها أيضاً: ضَعْفُ النَّفْسِ وذهابُ قوّتها وبطلانُ صفاتها، إذ بوجود ذلك يقع العبد في الذنوب والمعاصي، ويتأكد منه الرغبة في الدُّنيا، والحرص على اتباع الهوى، وقد قيل: لا يخلو المؤمنُ من عِلَّةٍ، أو عَيْلةٍ، أو قِلَّةٍ، أو ذلة. وفي الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجني، والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحببته من عبادي». وفيها أيضاً: يحصل له طاعة القلوب

= وكان في مرضه تسلم عليه الملائكة فاكتوى ففقد التسليم. ثمّ عادت إليه وكان به استسقاءٌ فطال به سنين كثيرة وهو صابر عليه، وشُقَّ بطنه وأُخذ منه شحم، وثقب له سرير فبَقِي عليه ثلاثين سنة، ودخل عليه رجل فقال: يا أبا نُجَيد! والله إنه ليمنعني من عِيَادتك ما أَرى بك! فقال: يا ابن أَخي، فلا تجلس، فوالله إن أَحبّ ذلك إليّ أَحبه إلى الله عز وجل.

وتوفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين. وكان أَبيَض الرأس واللحية وبَقِيَ له عَقِب بالبصرة. (أسد الغابة ٤: ٢٩٩).

وأعمالها، وذرَّة منها خيرٌ من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وذلك مثل: الصبر، والرضا، والزهد، والتوكل، وحب لقاء الله تعالى.

فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات، وتوفية حقوقها في البلايا النازلة به فقد حصل على كنوز البر.

وفيه أيضاً: يحصل له كفارة الذنوب والخطايا، ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا، ولا سبيل إلى ذلك إلا بما يرد عليه من أنواع البلايا؛ لأن العبد قد يعجِز عن القيام بوظائف الطاعات، ويتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات، فيكون العبد حينئذ محروماً من ثوابها، غير حاصل له تكفير سيئاته بها، وإن قدر عليها ولم يتكاسل عنها مَن له بتخليصها عن الشوائب، وتسليمها من الآفات والمعائب، وحينئذ يبطل عمله، ويخيب من انتفاعه به أمله، فليحسن العبد ظنه بمولاه، وليعلم أنَّ ما يختاره له خير مما يختاره لنفسه بشهوته وهواه.

وفيها أيضاً: يحصل له تجديد التوبة، وأداء الحقوق والظلامات، وكثرة الاستغفار، وحسن التذكار، وكثرة ذكر الموت؛ إذ ذاك أبلغ ما يذكر به، فقد قيل: «الحمى بريد الموت»، وفي حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ قال: «نعَمْ، من ذكر الموتَ كلَّ يوم عشرين مرة»[1].

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥: ٣٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها بألفاظ متقاربة، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لا أعرفهم. وقال الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين»: روى الطبراني في الأوسط من حديث عائشة: قلت: يا رسول الله، ليس الشهداء إلا من قتل في سبيل الله؟ قال: «يا عائشة، إن شهداء أمتي إذاً لقليل، من قال في يوم خمساً وعشرين مرة: اللهم بارك لي في اليوم وفيما بعد اليوم، ثم مات على فراشه، أعطاه الله أجر شهيد». وفي إسناده من لا يعرف حاله. (إتحاف السادة المتقين).

وقد كان السلف يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص نفس أو مال.

ويقال: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يُروع بِرَوْعَة، أو يصاب بِنَـكْبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشيء.

وفيها أيضاً: يقع له خلف ما يفوته من الطاعات، ونوافل العبادات، فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعالى له، الذي هو خير له من اختياره لنفسه، وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العبدُ أو سَافَرَ كُتِبَ لهُ مِثْلُ ما كان يَعْمَلُ مُقيماً صَحيحاً»[1]. إلى غير ذلك من الألطاف التي لا نعلمها. انتهى ملخصاً مما ذكره ابن عباد رحمه الله تعالى.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٨٣٤) في باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة.

باب ذكر خفايا أَلطافِهِ ومِنَنه على العِباد

في جميع أقداره التي قدرها عليهم؛ فالواجب على العبد التسليم والرضا، وترك التدبير فيما جرت به المقادير، ومن أعظم لطف الله بعبده المؤمن وسر تدبيره له: أن جعل له البلاء في هذه الدار؛ ليعرف قدر النعمة في تلك الدار، وليرفع له الدرجات مع تدبيره له ولطفه به فيه؛ لأنه تعالى إذا جرى فيك حكمه، ونفذ فيك قضاؤه وقدره، لطف بك في ذلك قبل وقوع ذلك؛ لأنه تعالى جعل التدبير للبلاء، واللُّطف للقدر، فالتدبير لا ينفك عن البلاء، واللطف لا ينفك عن القدر، ولهذا كثيراً ما أجرى الله على ألسنة العباد: «يا من إذا قضى لَطَف، وإذا بلى دبَّر»، ومن جملة ألطاف الله تعالى أيضاً: أن جعلك أعظم الأدلة عليه، وطريقاً من أقرب الطرق إليه؛ لأنك مثال للعالم الأكبر، قد انطوى فيك ما سوى الله تعالى، ولا شيء في العالم الأكبر إلا وفيه آية تدل على وحدانيته تعالى، وقد جمعت فيك تلك الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، واختصك بأسرار نفيسة وأنوار عظيمة لم تكن لغيرك، فضلاً منه وتكرماً. ذكر ذلك الشيخ أبو الحسن علي الحجازي في شرح الأصل.

قال رحمه الله تعالى:

٨٥ـ (إِنَّما جَعَلَ الدَّارَ الآخِرةَ مَحَلاً لِجَزاءِ عِبادِهِ المُؤْمنين؛ لأَنَّ هذِهِ الدَّارَ لا تَسَعُ ما يُرِيدُ أَنْ يُعطيَهُم، وَلأَنَّهُ أَجَّلَ أَقدارَهُم عَن أَنْ يُجازِيَهُم في دَارٍ لا بقاءَ لها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إنما جعل ثواب المؤمنين في الآخرة فيما ظهر لنا لوجهين:

أحدهما: أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حساً ولا معنى، أما الحسُّ، فلأن الدنيا متدانية المسافات، ضيقة الأقطار، يُعطي الله تعالى في الدار الآخرة لآحاد المؤمنين في ملك واحد منهم ـ كما ورد في الخبر ـ مسيرة سبعمئة عام، فما ظنُّك بخواصهم! فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم، وأما المعنى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص، والخساسة والحقارة، والأشياء التي يتنعَّم بها أهل الجنَّة أمورٌ شريفة رفيعة كما جاء في الخبر: «إنَّ مَوضِعَ سَوْطٍ في الجنَّة خيرٌ منَ الدُّنيا وما فِيْها، وإنَّ نُورَ سِوَارِ حَوْراءَ يَطمِسُ نُورَ الشّمس»[1]، وما أشبه هذا، ويكفي في هذا قوله عز من قائل: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَر»[2].

والثاني: أن الله تعالى أَجَّلَ أقدار المؤمنين فلم يعجل لهم الجزاء على طاعاتهم في دار فانية منقضية متصرمة؛ لأنَّ كل من يفنى وإن طالت مدته كلا شيء، بل أعطاهم الخلود في النعيم والبقاء الدائم في الملك المقيم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٠) في كتاب بدء الخلق، وفي الجهاد (٢٨٩٢)، وأحمد (٢: ٤٣٣)، والترمذي (١٦٤٨) في كتاب فضائل الجهاد، وابن ماجه (٢٧٥٦ و٤٣٣٠) في كتاب الجهاد، والبيهقي في السنن (٩: ٣٨، ١٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤) في كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) في كتاب الجنة، وأحمد في المسند (٢: ٤٣٨)، والترمذي في كتاب التفسير (٣٢٩٢)، وابن ماجه في كتاب الزهد (٤٣٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٨٥).

٨٦ـ (رُبَّما فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وما فَتَحَ لَكَ بَابَ القَبُول، وقَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فكانَ سَبَباً في الوُصُول).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: ينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء، ولينظر إلى حقائقها، فصورُ الطَّاعَات لا تقتضي وجودَ القبولِ لها؛ لما قد تَضَمَّنَتْهُ من الآفات القادحة في الإخلاص فيها، وذلك مانع من وجود القبول لها، ووجود صور الذَّنْب لا يقتضي الإبعاد والطرد؛ بل ربَّما يكون ذلك سبباً في وصوله إلى ربه، وحصوله في حضرة قربه، وقد جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «والذي نَفْسي بيَدِه، لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُم، ولَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لهم»[1]، وذلك أن يصحبه عند عمله بالطاعة أنْ يعجب بها، ويعتمد عليها، ويتكبر بفعلها، ويستصغر من لم يفعلها، ويصحبه عند وقوعه في الذنب اللجاء إلى الله تعالى فيه، والاعتذار إليه منه، واستصغاره نفسه، ويعظم من لم يفعله.

قال أبو حازم رضي الله عنه: إن العبد ليعمل الحسنة تَسُرُّه حين يعملها، وما خلق الله تعالى من سيئةٍ أضرَّ له منها، وإنَّ العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، وما خلق الله تعالى من حسنة أنفع منها، وذلك أنَّ العبد حين يعمل الحسنة تسره فيمتن بها، ويرى أنَّ له فضلاً على غيره، ولعلَّ الله تعالى أنْ يُحْبِطَهَا ويحبط معها عملاً كثيراً، وإنَّ العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها، ولعل الله أن يحدث له بها وجَلاً، حتى يلقى الله تعالى، وإن خوفها في جوفه لَباقٍ. انتهى.

---

(١) رواه مسلم، وأحمد في مسنده، وغيرهما، ووجه ذلك أن المؤمن إذا وقع منه ذنب أخذ في الندم، واحتقر نفسه، ولزم باب سيده مع الذل والخجل، ولم يزل متوجهاً إليه وقلبه منكسر بين يديه، فيكون ذلك سبباً في الوصول وعلامة القبول. قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، رواه مسلم (٢٧٤٩) عن أبي هريرة.

قال رحمه الله تعالى:

٨٧ـ (مَتى أوْحَشَكَ مِن خَلْقِهِ، فاعلَمْ أنَّهُ يُرِيدُ أنْ يَفتَحَ لكَ بابَ الأُنْسِ به).

قال ابنُ عَبَّاد رحمه الله تعالى: فتحُ بابِ الأُنْس بالله تعالى هو: الاستيحاش من النَّاس؛ ولذلك قيل: الاستيناس بالنَّاس من علامات الإفلاس، فإذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الأغيار كلها، وتحققت في أنسك بربك، ومعنى الوحشة منها: أن تشمئز منها بقلبك، وتنقبض عنها بسرك، ولا يكون للأشياء وقع عندك، ولا تجد فيها مقنعاً لك، كما جاء عن أبي يزيد رضي الله عنه حين اطلع على أنواع من العجائب، ووُجِّهَ بسني الغرائب، وكشف له عن الملكوت الأعلى، فقيل له: هل استحسنت منها شيئاً؟ فقال: لم أر شيئاً أستحسنه، فقيل له: أنت عبد الله حقاً. فإذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الأنس، ونزوله في حضرة القدس. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٨٨ـ (لَمَّا عَلِمَ الحقُّ مِنكَ وُجُودَ المَلَل، لَوَّنَ لكَ الطَّاعات، وعَلِمَ ما فِيكَ مِن وجُود الشَّرَه، فحَجَرَها عَليكَ في بعضِ الأوقات؛ لِيكُونَ هَمُّكَ إقامةَ الصَّلاة، لا وُجُودَ الصَّلاة، فما كُلُّ مُصَلٍّ بِمُقيم).

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: لما علم منك وجود الملل في العبادة، لَوَّنَ لك الطَّاعات، كي لا تسأم نفسك، كُلُّ ذلك عناية بك، وحسنُ تدبير منه لك؛ لأنه أعلم منك بك، لأنَّ علمه بك قديم، وعلمك بنفسك حادث، والنفس طبعها طلب السمو والارتقاء، وتأبى الانقياد، فدخولها للطاعة، وانقيادها وخضوعها للعمل قهراً، ولهذا وجد الملل منها في الطاعات، وأيضاً فإنَّ

الإنسان خلق ضعيفاً عاجزاً، فلو كُلِّف بحالة واحدة في زمن واحد، لملَّتْ نفسُه، ونفرت، وبعدت عن الانقياد للطاعة والعمل، ولما علم الله تعالى منها ذلك رحمها، ولوَّن لها الطاعة رحمة بها ورأفة عليها. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ولمَّا لون لك الطاعات بفضله، وعلم ما فيك من وجود الشره وهو زيادة الرغبة في الثواب، وهي رغبة النفس، حجرها عليك في بعض الأوقات، ليكون هَمُّك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة. قال النبي ﷺ: «الصَّلاةُ عِمَادُ الدِّين، فمن أقامَها فقد أَقَامَ الدِّين، ومَن تَرَكَها فقد هَدَمَ الدِّين»[1]، ومراد الله تعالى منك بإقامة الصلاة حضور قلبك لمناجاته؛ ليكون محلًّا لقبول تنزل لطائف أنواره، وواردات إحسانه، فما كل مُصل بمقيم. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: تَلَوُّن الطَّاعات لوجود الملل وتحجيرها في بعض الأوقات لوجود الشَّرَه: نِعْمتان عظِيمتانِ أنعَمَ اللهُ بهما على العبد، فإنَّ الملل

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء في كتاب الصلاة. وقال العراقي في تخريجه: أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر.
قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر. قال: وأورده ابن عمر، ولم يقف عليه ابن الصلاح، فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف. اهـ.
ورواه الديلمي في مسنده الفردوس، وأبو القاسم التيمي في الترغيب والترهيب من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.
قال الزبيدي في شرح الإحياء: تنبيه: يوجد في كتب أصحابنا الحنفية هذا الحديث بزيادة جمل أخرى وهي: (فمن أقامها فقد أقام الدين)، وبهذه الزيادة يفهم وجه الشبه بين الصلاة والعماد، أي: الإقامة بالإقامة، والهدم بالترك، كما أن الخيمة تقام بإقامة عمدها، وتهدم بترك إقامته، وكأن هذا هو السر في عدم مجيء الأمر بالصلاة غالباً إلاّ بلفظ الإقامة في الكتاب والسنة بخلاف غيره من الأوامر على ما لا يخفى. والله أعلم.

والشره آفتان عظيمتان، قاطعتان على العبد سبيل عبوديته، والذي يوجب الملل المداومة على نمط واحد من العبادات، فتسأمها النفس، وتستثقلها، فإذا لونت عليها حينئذ، استحلتها واستخفتها.

وقد قال بعض الشعراء:

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إن كانت مُـدَبَّرَةً إلاَّ التَّنَقُّـلُ مِـن حَـالٍ إلى حَـالِ

والموجب لوجود الشَّرَهِ: صلاحيةُ الأوقات كلها؛ لإيقاع العبادات فيها، مع شدة الحرص عليها، وعند وجود الشَّرَه يقع النقص فيها؛ فلذلك عين لها أوقاتاً توقع فيها، وذلك هو معنى تحجيرها في الأوقات، فإنْ كان الملل والشره واقعين في الصلاة لم يكن الآتي بهما مقيماً لها؛ لوقوع التقصير منه فيها، ولم يؤمر إلا بإقامة الصلاة، لا بوجود صورة الصلاة، وإقامة الصلاة: حِفْظُ حدودها ظاهراً، وباطناً، وتمثيل المؤلف رحمه الله تعالى بالصلاة دون سائر العبادات حسن؛ لأن ذلك أكثر ما يقع فيها. انتهى.

وقال الأهدل رحمه الله تعالى عند قوله: «فما كل مصل بمقيم»: ولا كل عامل مستقيم؛ بل المقيم واحد من الألف. قال القاضي أبو بكر ابن العربي[1]: في قول عمر رضي الله عنه: «من حفظهـا وحافـظ عليها فهو لما سواها

(١) محمد بن عبد الله بن أحمد، الإمام، أبو بكر ابن العربي المعافري الأندلسي، الحافظ، أحد الأعلام، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مقدماً في المعارف كلها، أحد من بلغ رتبة الاجتهاد وأحد من انفرد بالأندلس بعلو الإسناد، ثاقب الذهن، ملازماً لنشر العلم، صارماً في أحكامه، هيوباً على الظلمة، صنف التفسير وأحكام القرآن وشرح الموطأ وشرح الترمذي وغير ذلك. مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة. (طبقات المفسرين ١: ١٠٥).

أحفظ»: ولقد رأيت من يحفظ آلافاً لا أحصيها، فأما من يحفظها بحدودها وشروطها وحضورها فما أَعُدُّ منهم خمسة. انتهى بمعناه.

قال رحمه الله تعالى:

٨٩ـ (إذا أرادَ أن يُظهِرَ فضلَهُ عَلَيْك، خَلَقَ الطَّاعةَ ونَسَبَها إلَيْك).

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: فنسبة العمل له نسبة خلق وإيجاد، ونسبته لك نسبة إضافة وإسناد، فسبحان من أنعم على أهل الفضل بالتوفيق والهداية، وتولاَّهُم باللُّطْفِ والعناية، من غير استحقاق ولا سبب. انتهى.

وقال الأهدل في شرحه: إذا أراد أن يُظْهِرَ فَضْلَهُ عليك في الدنيا والآخرة، خَلَقَ ونسب إليك ما جرى من أسباب نفعها على يديك.

قال أبو يزيد: غلطت في بدايتي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته سبقت محبتي، وطلبه لي أَوّلاً حتى طلبته. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله: فَحَقُّ العبد أنْ لا ينسب إلى نفسه شيئاً من محامد الصفات ومحاسن الأعمال حقيقة ولا أدباً، إذ لا أهلية فيه لذلك، وأما مذامُّ الصفات والأعمال ومساوئها فمقتضى الأدب أن يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٩٠ ـ (لولا جميلُ سِتْرِه، لم يكُنْ عَمَلُكَ أهْلاً للقَبُول).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله، من

حيث نسبته إليه، وشهود حوله وقوته عليه، وهذا لا محيص له عنه، إلاّ بما شاء ربه، وقد يكثف حجابه، فيُرائي به، ويطلب حمد النَّاس له، وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص الحقيقي، والإخلاص شرطُ قبول الأعمال كما تقدم.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «مسكين ابن آدم، جسم معيب، وقلب معيب، يريد أن يُخرج من بين معيبين عملاً بلا عيب»، فعمل العبد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجوب القبول لولا جميل ستر الله تعالى، وعظيم حلمه وبره، فليعتمد المريد على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده وعمله. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٩١ـ (أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدمتِه، وما أَوْجَبَ عليْكَ إلاَّ دُخُولَ جَنَّتِه).

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: لأنه تعالى تفضل عليك بالإيمان الذي هو سبب للانقياد والطَّاعة والخدمة من غير استحقاق، فاسْتَوْجَبْتَ الجَنَّة برحمته، إذ الرحمةُ تحصل بواسطة إبداء النِّعَم من غير سبب؛ لأنَّ العطاء من الله تعالى يتوقف وجوده على سبب.

تنبيه: الجنة تجب بالإيمان لا بالعمل؛ قال عليه السلام «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»(١) الحديث؛ ولكن في لفظ الحديث إشارة إلى أن الجنة تجب بالإيمان، والدرجات بالأعمال. انتهى.

---

(١) رواه البخاري (١٠: ١٠٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وابن ماجه (٤٢٠١)، وأحمد في المسند (٢: ٢٣٥) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه أيضاً البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه مسلم وأحمد في المسند والدارمي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: والمقصود من هذا كله الإعلام بأن الله تعالى غنيٌّ عن خلقه، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، وأن التكاليف كلها إنما أوجبها عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم لا غير.

قال في التنوير: «وإنما جعل الله سبحانه الإيجاب على العباد علماً منه بما هم عليه من وجود الضعف، وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل، فأوجب عليهم ما أوجبه؛ لأنه لو خيرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا قائمين به إلا قليلاً، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فأوجب عليهم وجود طاعته».

وفي التحقيق: ما أوجب عليهم إلا دخول جنته، فساقهم إلى الجنة بسلاسل الإيجاب. «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»[1].

قال: واعلم ـ رحمك الله ـ: أنَّا تلمحنا الواجبات، فرأينا الحق سبحانه جعل في كلِّ ما أوجبه تطوُّعاً من جنسه في أي من الأنواع كان؛ ليكون ذلك التطوعُّ من ذلك الجنس جابراً لما عساه يقع من الخلل في قيام العبد بالواجبات، وكذلك جاء في الحديث: أنه يُنظر في مفروض صلاة العبد فإن نقص منها شيء كمل من النوافل، فافهم رحمك الله هذا، ولا تكن مقتصراً على ما فرض الله عليك؛ بل لِيكن فيك ناهضةُ حبٍّ توجب إكبابك على معاملة الله تعالى فيما لم يوجبه عليك، ولو كان العباد لم يجدوا في موازينهم إلا فعل الواجبات، وثواب ترك المحرمات، لفاتهم من الخير والمنَّة ما لا يحصره حاصر، ولا يحرزه حارز، فسبحان الفاتح للعباد باب المعاملة، والمهيئ لهم أسباب المواصلة. انتهى المراد مما ذكره ابن عباد.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠)، وأبو داود (٢٦٧٧)، وأحمد في المسند (٢: ٣٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

قال رحمه الله تعالى:

٩٢ـ (لا تَنفَعُهُ طاعَتُك، ولا تَضُرُّهُ مَعصِيتُك، وإنَّما أَمَرَكَ بهذِهِ، ونَهاكَ عَن هذِهِ لِمَا يَعُودُ عَلَيْك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الحق تعالى غنيٌّ عن أعمال العاملين، لأنه مُنَزَّهٌ عن الأعواض والأغراض، فلا تنفعه طاعتك، ولا تضره معصيتك، وإنَّما أمرك ونهاك لما يعود عليك من المصالح والمنافع في الدارين لا غير، وذلك على سبيل التفضُّل منه من غير إيجاب عليه.

قال في لطائف المنن: «اعلم رحمك الله تعالى، أنَّ الله عز وجل لم يأمر العبادَ بشيء وجوباً، أو يقتضيه منهم ندباً، إلاَّ والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهة، إلاَّ والمصلحة لهم في ترك ما أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً، ولسنا نقول كما قال مَن عُدِلَ به عن طريق الهدى[1]: «إنه إنما يجب على الله تعالى رعاية مصالح العباد»؛ بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرُّ فعلها مع عباده على سبيل التفضُّل، فليت شعري! إذا قالوا: يجب على الله تعالى رعاية مصالح عباده، فمن هو الموجب عليه؟ ثم إذا نظرنا فرأينا كلَّ ما هو مأمور به ومندوب إليه يستلزم الجمع على الله تعالى، وكلَّ منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه، فإذاً مطلوب الله تعالى من عباده وجودُ الجمع عليه؛ لكن الطَّاعات هي أسباب الجمع ووسائله؛ فلذلك أمر بها، والمعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها؛ فلذلك نهى عنها». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

---

(١) يقصد بهم المعتزلة، ويرد عليهم ردّاً قوياً.

٩٣ـ (إنَّما جعَلَها مَحَلاًّ للأغيار، ومَعدِناً لِوُجُودِ الأكدار، تزهِيداً لكَ فيها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: ورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نِعَمٌ من الله تعالى عليه؛ لأن ذلك ـ لاَ محالة ـ يدعوه إلى الزهادة في الدنيا والتجافي عنها، ويَصْرف عنه وجود الغباوة والجهالة؛ لأجل تمسكه بالخيال، وما يستضرُّ به في الحال والمآل؛ لأن الموجب لرغبته فيها، وحرصه على نيلها، إنما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على مُنيتِهِ وبُغيتِه، وقضاء غرضه من شهوته، ونهمته من غير مكدِّر ولا منغِّص، ولو تصوَّرَ له حصوله على هذه الأشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغي له أن يرغب عنها عوضاً عن الرغبة فيها إن كان عاقلاً؛ لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال والانقضاء والارتحال، وقال الشاعر:

أَشَدُّ الغَـمِّ عِنْـدِي في سُرُورٍ ... تَـيَقَّنَ عَنْـهُ صَـاحِبُهُ انْتِقَـالا

أَرَى الدُّنْيَا عَلَى مَن كان فيها ... تَدُورُ فلا تُدِيْمُ عَلَيْـهِ حَـالا

ثم هي مانعة له من سعادة الآخرة، والقرب من الله عز وجل، الذي هو غاية طلب الطالبين، ونهاية رغبة الراغبين، فكيف وهو مُعَرَّضٌ فيها لأنواع المصائب والفجائع، ووقوع الأكدار والأغيار، فما من أحد فيها إلا وهو في كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة: سهم بليَّة، وسهم رزيَّة، وسهم منيَّة، فإذا نزل به ذلك، عادت النعمة نقمة، وانقلبت الحَبْرةُ[1] عَبرة، وصارت الفرحةُ ترحة، وكذا شأن الدنيا أبداً، فلا يفي مرجوُّها بمخوفها، ولا يقوم خيرها بشرها، ولقد صدق الشاعر في قوله:

إنَّ اللَّيَالِيَ لم تُحْسِنْ إلى أحَـدٍ ... إلاّ أساءَتْ إليْه بعدَ إحسانِ

---

(١) الحبرة: السرور والبهجة.

وقد قال بعض البلغاء: «دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثُها كصوائب السِّهَام، وفتنها كالأمواج الطوامّ».

وقال أبو العتاهية[١]:

هِيَ الدَّارُ دارُ الأَذْى والقَذَى	ودَارُ الفَنَـــاءِ ودَارُ الغِـــيَرْ
ولـــو نِلْتَهَـــا بِحَـــذَافِيْرِهَا	لُمُتَّ ولم تَقْـضِ مِنهـا الـوَطَرْ
أَيَـا مَـن يُؤَمِّـلُ طُـوْلَ البَقَـا	وطُـولَ الخُلُـودِ عَلَيْـه ضَرَرْ
إذا ما كَبِرْتَ وفَاتَ الـشَّبَابُ	فلا خَيْرَ في العَيْش بعدَ الكِبَرْ

فإذا علم العبد هذا عِلْم يقين، وتمكَّن من قلبه غاية التمكين، لم يتصوَّر منه مع ذلك وجود رغبة البتة؛ لأنه إذ ذاك يجمع بين خيبتَيْن وخسارتَيْن، ويأتيه الموت وهو صفر اليدَيْن من منافع الدارَيْن، وذلك هو الخسران المبين.

قال أبو هاشم الزاهد[٢] رضي الله عنه: «إنَّ الله تعالى وَسَمَ الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريدين به دونها، ولِيُقْبِلَ المطيعونَ إليه بالإعراض عنها. وأهلُ المعرفة بالله تعالى من الدنيا مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون». وقيل: «أوحى الله تعالى إلى الدنيا: تضيَّقي وتشددي على أوليائي، وترفهي وتوسعي

---

(١) أبو العتاهية: إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني، المعروف بأبي العتاهية (أبو إسحاق) شاعر، ولد بعين تمر سنة ١٣٠هـ، ونشأ بالكوفة، ثم سكن بغداد، وتوفي بها في جمادى الآخرة، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك، وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ، وأكثر شعره حكم وأمثال. ومن آثاره: ديوان شعر. (معجم المؤلفين ٢: ٢٨٥).

(٢) هو: أبو هاشم الزاهد، ذكره المناوي في (الكواكب الدرية ١: ٣٦٥)، وقال: كان إلى الحق وافداً، وعن الخلق عائداً، وفيما سوى الحق زاهداً.

على أعدائي: تضيَّقي على أوليائي حتى لا يثقوا بك عني، وتوسعي على أعدائي حتى يشتغلوا بك عني، فلا يتفرغوا لذكري».

قال رحمه الله تعالى:

٩٤ ـ (إذا عَلِمتَ أنَّ الشَّيطانَ لا يَغفلُ عَنكَ، فلا تَغْفلْ أنتَ عمَّن نَاصِيتُكَ بِيَدِه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الشيطان عدوٌّ سُلِّطَ على الإنسان، ومقتضى ذلك أنه لا توجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال.

فإذا علمت أنه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده ـ وهو الله عز وجل ـ وذلك بتحقق عبوديتك له، وتوكلك عليه، وافتقارك في كل أحوالك إليه، واستعاذتك به من شر عدوك وعدوه، فبذلك تخرج من سلطنته، وتنجو من غائلته. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، فمن تحقق بهذه الصفات العلية، من الإيمان بالله تعالى، والعبودية له، والتوكل عليه، واللجاء والافتقار إليه، والاستعاذة والاستجارة به، كيف يكون لعدو الله عليه سلطان، والله حبيبه، ووليُّ حفظه ونصره!

قال بعضهم: الشيطان منديل هذه الدار، يعني: يُمْسح به أقذارُ النِّسْبِ[1]، وهي نسبة الشرور وأنواع الفساد والمعاصي إليه، أدباً مع الله عز وجل وهذا سر إيجاده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقوله عز وجل:

(١) قال في المصباح: وانتسب إليه: اعتزى، والاسم النِّسْبة بالكسر، فتجمع على نِسْب، مثل: سِدْرة وسِدْر، وقد تضم فتجمع مثل: غُرفة، وغُرف.

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، وأمَّا أنَّ له حولاً وقوة يضرُّ بها أو ينفع: فلا.

قال أهل العلم: إنَّ لكل أحد من النَّاسِ وَسْوَاساً موكَّلاً به، مُسْتَبْطِناً قلبه، واضعاً رأسه [أو قال خرطومه] عليه، فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس، أي: تأخر واستتر.

وقيل: صدرُ ابن آدم مسكن له، ومجراه من ابن آدم مجرى الدم، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى، وقال مالك بن دينار: إن عدوّاً يراك ولا تراه لشديد المؤونة إلا من عصمه الله تعالى، وفيه يقول القائل:

أشْكُو عَدُوّاً كَيْدُهُ بَرَانِي ... ولا أراهُ حيثُما يَرَانِي
وعندَما أنساهُ لا يَنْسَانِي ... يَا سَيِّدِي إنْ لم تُغِثْ سَبَانِي

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فإن الله تعالى يراه من حيث لا يرى الله عز وجل، فاستعن بالله عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال إبليس لربه عز وجل: بعِزَّتك وجلالِك، لا أبرَحُ أُغوي بني آدم ما دامتِ الأرواحُ فيهم، قال ربه: وعزَّتي وجَلالي، لا أبرح أغفرُ لهم ما استغفروني»[(١)]. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٩٥ـ (جَعَلَهُ لكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ[(٢)] بِهِ إلَيْه، وحَرَّكَ عليْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إقبالُكَ عَلَيْه).

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ٧٦)، والحاكم في المستدرك (٤: ٢٦١) وصححه.

(٢) حاش الصيد: جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة، وبابه: قال.

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: عداوةُ الشَّيْطان لك نعمة عظيمة من الله عز وجل عليك، إذ مقتضاها كما قلنا: ألاَّ يغفل عنك، وأن يبذل جهده في محاربتك بنفسه وبجنده، وبخيله ورجله، ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك؛ لأنك في غاية الضعف والعجز، فيضطرك الحال لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوي، فيُوجد منك حينئذ الالتجاء إليه، والانتصار به، والتوكل عليه في دفعه عنك.

فعداوة الشيطان هي التي ردَّتك الحق تعالى بها إليه، وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود.

وكذلك حركة النَّفْس عليك بالحمل على متابعة الهوى والشهوة، بما جعل فيها من الطبع والجِبِلَّة نعمةٌ عظيمةٌ أيضاً ـ وإن كانت أعدى الأعداء إليك ـ إذ بواسطتها يتوصلون إليك، وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك، من قبل أنك لا تقدر على مجاهدتها، وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك، إلّا بمن هو أقوى منك، وليس ذلك إلا لمولاك، فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال إليه، والعكوف بالهمِّ عليه.

وكأن المؤلف رحمه الله تعالى قصد في هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورة في قول الشاعر:

إنِّي بُلِيْـــتُ بِــــأَربَعٍ يَرْمِيْنَنَـــي ... بالنَّبْـلِ عــن قَـوْسٍ لــهُ تَــوتِيرُ

إبليسُ والدُّنيا ونَفْسِـيَ والـهَوَى ... يا ربِّ أنتَ علَى الـخَلاصِ قـديرُ

ويبين في كلامه وجود عداوتهم، ووجوه الاحتراز منهم، وتمَّمَ ذلك ببيان أنَّ تلك العداوة ـ وإن عظمت ـ من أعظم الوسائل إلى أسنى المقاصد لمن أريد بذلك، ووُفِّق له. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

٩٦ـ (أكرَمَكَ بِكراماتٍ ثلاثٍ: جَعلَكَ ذاكراً له؛ ولولا فضلُهُ لم تكُنْ أهلاً لِجَريانِ ذِكْرِهِ عليك، وجَعلَكَ مذكوراً بِهِ، إذْ حَقَّقَ نِسْبتَهُ لَدَيْك، وجَعلَكَ مذكوراً عندَهُ، فتَمَّمَ نِعمتَهُ عليك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات جمع له فيها كلَّ المفاخر والمحامد، **أولاها**: كونُه ذاكراً له، بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه، ومن أين يكون له ذلك؟ وبأي وسيلة ناله؟ لولا فضل الله تعالى وكرمه. **وثانيتها**: كونه مذكوراً به، فيقال: هذا عبد الله، ووليُّه، وصفيُّه، ومُختاره، وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه، وهي إثبات الخصوصية له. **وثالثتها**: كونه مذكوراً عنده، وهذه هي غاية الإكرام، ومنتهى الفضل والإنعام. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. قيل معناه: ذكرُ الله عَبْدَهُ أكبرُ من ذكر العبدِ لله، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «أنا عندَ ظَنِّ عَبْدي بي، وأنا معَهُ حينَ يَذْكُرُني، فإن ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُهُ في مَلأٍ خيرٍ مِنهُ، وإنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ ذِراعاً، وإنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذراعاً، تَقَرَّبْتُ مِنهُ باعاً، وإنْ أتاني يمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلة»[1]، وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، يشهدان به على النبي ﷺ أنه قال: «ما جَلَسَ قومٌ مجلساً يَذكُرونَ الله تَعالى فيهِ إلاَّ حفَّتْهُمُ

---

(١) رواه البخاري (١٣: ٤٢٨)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٥٩٨) في الدعوات، باب حسن الظن بالله عز وجل، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد في المسند (٢: ٢٥١، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢).

الملائكةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمةُ، ونَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِينةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فيمنْ عندَهُ»[1].

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «يا غفولُ يا جهول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمتَّ طرباً». انتهى.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) ومعنى (حفّتهم): أحاطت بهم وعمَّتهم.

باب الصحبة

اعلم: أن صحبة أهل الخير ومجالستهم تزرع في القلب محبة الخير، وتعين على العمل به، كما أن صحبة أهل الشر تزرع في القلب محبة الشرّ، والعمل به، فعليك بصحبة الأخيار، واعتزال الأشرار، ومجالسة الصالحين، ومجانبة الفاسقين، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَن يُخَالِل»[1]، وعنه ﷺ: «إِنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وجَلِيسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسْكِ ونَافِخِ الكِيرِ: فحامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وإِمَّا أَنْ تَبْتاعَ مِنهُ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنهُ رِيحاً طَيِّبَة، ونَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنهُ رِيحاً مُنْتِنَةً»[2].

واعلم: أنَّ العزلة والوحدة محمودة بالنسبة إلى أرذال الناس، وأمَّا أهل العلم والورع والصفا والأخلاق الحميدة فتغتنم صحبتهم ومجالستهم، فإن الاستئناس بهم استئناس بالله تعالى.

ثم اعلم: أنَّ النَّفْعَ المترتب على صحبة الأولياء والاجتماع بهم إنَّما يحصل بلزوم الأدب معهم، وحسن الاعتقاد فيهم، فعليك بالتأدب معهم بالأدب النافع، والانكسار لحضرتهم كانكسار الذليل الخاضع، لا ترى لك حالاً ولا مقاماً، ولا

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٨٣٣)، والترمذي في جامعه (٢٣٧٨) عن أبي هريرة، وقال أبو عيسى: حسن غريب. وحسنه السيوطي بالرمز في الجامع الصغير (٤٥١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) عن أبي موسى.

تطلب منهم لك تعظيماً ولا احتراماً، ولتكن هِمَّتُكَ لهم الخدمة، ومعاملتك معهم الاحترام والحشمة، لا تخالفهم في ظاهرك، ولا تعترض عليهم في باطنك.

قال بعضهم: من أشد الحرمان أن تجتمع بأولياء الله ولا ترزق القبول منهم، وما ذاك إلا لسوء الأدب.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: من صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة.

قال رحمه الله تعالى:

٩٧ـ (لا تَصحَبْ مَن لا يُنهِضُكَ حالُه، ولا يَدُلُّكَ علَى اللّـهِ مَقالُه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: تَكلَّمَ هنا في الصحبة، وهي أصل كبير من أصول القوم، وفيها منافع وفوائد؛ فإنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة. ومعنى الحال المنهضة ها هنا هو: أن تكون همته متعلقة بالله تعالى، مرتفعةً عن المخلوقِين، لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى، ولا يتوكل في أموره إلا على الله. قد سقط اعتبار الناس من عينه فما يرى منهم ضرّاً ولا نفعاً، وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلاً، ولا يقتضي لها حظاً. ويكون في أعماله كلها جارياً على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط.

وهذه صفة العارفين الموحدين، فصحبةُ مَن هذا حاله وإن قلت عبادته ونوافله مأمونة الغائلة، محمودة العاقبة، جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية؛ لأنَّ الطَّبْعَ يسرق من الطبع، والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام؛ فإن ذلك متعذر، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون

أعلى منه حالاً، وأصوب منه مقالاً، ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير، فليس له فائدة في صحبته؛ بل ربما زادته شراً؛ لأن خلطته تدعوه إلى التصنُّع والتزين له، ويؤدِّيه ذلك إلى كبائر معاصي القلوب، وهي أشدُّ عليه من معاصي الجوارح بكثير.

قال يوسف بن حسين الرازي[1] رضي الله عنه: «لأن ألقى الله عز وجل بجميع المعاصي أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بِذَرَّةٍ من التصنُّع»، فيدخل إليه النقص في حاله من حيث رجاءُ الزيادة فيها.

قال بعض الصوفية: «لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر، ولا تنقص عنده بإثم، يكون ذلك لك وعليك، وأنت عنده سواء»، وإذا كان يزيد عنده بالعلم وينقص بترك العمل، فالفرقة أسلم للدين، وأبعد من المراءاة من قِبل أنَّ النَّفْسَ مجبولة على حبِّ المدح وكراهة الذم، ومبتلاة بأن يرى حالها التي عرفت به، وأن تظهر أحسن ما يَحْسُن عند الناس منها، وأن تجتلب ما يوجب المدح منهم، وتجتنب ما يوجب به الذم منهم، فإذا صحب من يعمل هذا فليس ذلك بطريق الصالحين، ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلوب، وأسلم للدين، وفي معاشرة أمثالهم فساد القلب، ونقصان الإيمان، وضعف اليقين؛ لأن هذه أسباب الرياء، وفي الرياء حبط الأعمال وخسران رأس المال، والسقوط من عين ذي الجلال.

---

(١) هو: أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، كان شيخ الري والجبال في وقته، وكان نسيجاً وحده في إسقاط التصنع، وكان عالماً أديباً، صحب ذا النون وأبا تراب، ورافق أبا سعيد الخراز مات سنة (٣٠٤هـ).

كتب إلى الجنيد: لا أذاقك الله طعم نفسك، فإن ذقتها لم تذق بعدها خيراً. (الرسالة ٤١٤).

وكان الثوري رضي الله عنه يقول: «من عاشر النَّاس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه فيهلك كما هلكوا».

ويدل على إرادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذي ذكرناه في التنبيه على قوله: «لا تصحب من لا ينهضك حاله» ما عقَّبَه به من قوله: «ولا يدلك على الله مقاله» فيكون الحال والمقال متناسبَيْن في كون كل واحد منهما متعلقاً بالله تعالى عبودية ودلالة.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «احذر صحبة ثلاثة من أصناف النَّاس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين».

وقال حمدون القصار[1]: «اصحب الصوفية؛ فإنَّ للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحَسَن عندهم كبير موقع يعظِّمونك به»، إشارةً إلى أن العجب بالعمل منفي في صحبتهم دون من عداهم من المنسوبين إلى العلم والدين؛ لأنهم خُصُّوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يشابههم فيها أحد، وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: من تحقَّق بحالة لم يخل حاضروه منها؛ فمن جلس في دكَّان العطَّار لم يفقد الرائحة الطيبة. هذا في الحضور والمجالسة فما ظنُّك في الصحبة والمؤانسة! انتهى ملخصاً.

---

(١) هو: أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار، من نيسابور: دفن بها سنة ٢٧١هـ.
ومن كلامه رضي الله عنه: «من نظر في سير السلف، عرف تقصيره، وتخلُّفه عن إدراك درجات الرجال».
وقال: «لا تُفشِ على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك».
وقال عبد الله بن منازل: قلت لأبي صالح: أوصني، فقال: إن استطعت أن لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل. (الرسالة القشيرية ص٤٢٦).

قال رحمه الله تعالى:

٩٨ـ (رُبَّما كنتَ مُسِيئاً فأراكَ الإحسانَ مِنكَ صُحبتَكَ إلى مَن هُوَ أسوأُ حالاً مِنك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ما ذكره، وصحب من هو دونه في الحال، وهو استحسانه لما هو عليه، فيؤديه ذلك إلى رضاه عن نفسه، ورؤيته لإحسانها، وهو أصل كلِّ شرٍّ.

قال رحمه الله تعالى:

٩٩ـ (ما صَحِبَكَ إلاَّ مَن صَحِبَكَ وهُوَ بِعَيْبِكَ عليم، وليسَ ذلك إلاَّ لِمَوْلاكَ الكريم).

قال ابن عباد: الصاحبُ على الحقيقة هو: من بذل إحسانَهُ لك، فأسبغَ نِعَمَهُ عليك، ولم يمنعه من ذلك ما يعلَمُهُ من عيوبك التي يكرهها منك، وليس ذلك إلا مولاك الكريم. انتهى.

فانظر يا أخي إلى سعة كرم مولاك، وتأمَّل قولـه تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤]، فلولا فضله وسعة رحمته لهلكت؛ لأن ما ثمَّ أضعف منك، ولا أقوى من الحق، ومع هذا الضعف العَظِيْم منك وقوته العظيمة تعصيه، وهو معك في تقلبك ومثواك، حاضر بعلمه، ناظر بحكمته، عالمٌ بعيبك أكثر من علمك بعيب نفسك، ومع ذلك يغفر لك، ويتكرم عليك، ويعاملك بالصفح الجميل، بالله يا مسكين: مَن يَصحَبُكَ مع وجود علمه بعيبك ومعصيتك له؟ مَن يُعْطِيْك بغير سؤال؟ مَن ربَّاك مِن نُطْفةٍ مِن ماءٍ مَهِين؟ من يبدل لك السيئة حسنة؟ فانظر هذا اللُّطف العظيم من

هذا السيد الكريم الجبَّار العظيم، ولا يَغُـرَّنَّـكَ إهماله لك، فإنَّ بطشه شديد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. ذكره الشيخ أبو الحسن الحجازي.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٠ـ (خيرُ مَن تَصحَبُ مَن يَطلُبُكَ لك، لا لشيءٍ يَعُودُ مِنكَ إليه).

قال: وهذا مستحيل وجوده في الإنسان؛ لأنَّ كلَّ من يصحبُك من الخلق إنما يَصحَبُك لنفع يعود عليه منك إما في الدنيا وإما في الآخرة، فإنْ أردت ذلك فاصحب مولاك؛ لأنه تعالى يَطلُبُكَ لك لا لشيء يعود منك إليه، إذ هو غني عن العالمين، وكل شيء مفتقر إليه. انتهى.

قال الأهدل في شرحه: ولما لم يرَ المحققون مُـحْسِناً سواه تعالى لم يحبوا غيره، ولم يلتفتوا إلى سواه، إذ جُبِلَتِ القُـلُوب على حب من أحسن إليها، حتى قال بعضهم:

كانَـــتْ لِقَلْبِـــيَ أهـــواءٌ مُفَرَّقـــةٌ ... فاستَجْمِعَتْ إذْ رَأَتْـكَ العَـيْنُ أهـوائي

تَرَكْـــتُ للنَّـــاسِ دُنْيـــاهُمْ ودِيْـــنَهُمُ ... شُـغْلاً بِحُبِّـكَ يـا دِيْنِـي ودُنْيَـائي

فَـصَارَ يَحْسُدُني مَـن كنـتُ أَحْـسُدُهُ ... وصِرْتُ مَوْلَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلائي

* * *

باب الطمع

هو: أنْ تُعَلِّقَ قَلْبَكَ وهِمَّتَكَ وآمالَك بحصول ما لم يكن عندك. ذكره الحجازي.

واعلم: أنَّ الطَّمَعَ في الخلق يَجُرُّ إلى الحرص والتطلع لما في أيدي الناس، وينشأ منه الذل لهم، وعدم القناعة والرضا بالمقسوم من الرزق، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «القَنَاعةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى»[1]، وقال ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رَوْعي؛ أنَّ نَفْساً لن تَمُوتَ حتَّى تَستكمِلَ أجَلَها، وتَسْتَوْعِبَ رِزْقَها، فاتَّقُوا اللهَ وأجْمِلُوا في الطَّلَب»[2].

وقال بعضُ الحكماء: وجدتُ أطول النَّاس غمّاً الحسود، وأهناهم عيشاً القَنِعُ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا رقم (١٩٠٠) بلفظ: «القناعة مال لا ينفد، وكنز لا يفنى»، وقال: رواه الطبراني والعسكري عن جابر، وكذا عن القضاعي عن أنس؛ لكن بدون (وكنز لا يفنى). قال الذهبي: وإسناده واهٍ، والمشهور: (القناعة كنز لا يفنى)، وفي القناعة أحاديث كثيرة، منها: ما رواه ابن عمر مرفوعاً: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه»، وعن علي في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: القناعة. وعن سعيد بن جبير قال: لا نحوجه إلى أحد.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠: ٢٧) عن أبي أمامة الباهلي بإسناد ضعيف.

وقيل لحكيم: ما تملك؟ قال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس.

وسئل فتح الموصلي[1] عمن تابع الشهوات: كيف صفته؟ وكان بقربه صبيَّان مع أحدهما خبز بلا إدام ومع الآخر خبز مع كامخ، فقال: الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه: أطعمني من الكامخ، فقال: بشرط أن تكون كلبي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطاً في فيه وجعل يجره كما يجر الكلب، فقال فتح للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه ولم يطمع في كامخه لم يصر كلباً لصاحبه.

قال حجة الإسلام الغزالي في الإحياء: اعلم أن الفقير محمود؛ ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً مُنْقَطِعَ الطَّمع عنِ الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا أن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والمشرب والملبس، ويقتصر على أقله قدراً أو أخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، فإنْ تشوَّف إلى الكثير وطَوَّل الأَمل فاته عز القناعة، ونَدِمَ لا محالة بالطَّمع، وذل بالحرص، وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠١ـ (ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلاَّ علَى بَذْرِ طَمَع).

---

(١) هو: زاهد زمانه، فتح بن محمد بن وشاح الأزدي الموصلي. قال الذهبي: له أحوال ومقامات، وقدم راسخ في التقوى، وكان بكاءً خوافاً متهجداً. مات سنة (١٧٠هـ). وهو فتح الموصلي الكبير، أما الصغير فهو فتح بن سعيد الموصلي، أبو نصر، من أقران بشر الحافي. مات سنة (٢٢٠هـ). (سير أعلام النبلاء ٧: ٣٤٩).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: البسوق: الطول، يقال: بسقت النخلة بسوقاً: إذا طالت. قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]، والأغصان: جمع غُصْنٍ وهو: ما تشعَّب عن سوق الشجر، ويجمع أيضاً على غصون.

والبذر: الحب الذي يزرع. وهذه كلها استعارات مليحة.

والطمع من أعظم آفات النفس وعيوبها القادحة في عبوديتها؛ بل هو أصل جميع الآفات؛ لأنه محض تَعَلُّق بالناس، والتجاء إليهم، واعتمادٍ عليهم، وعبوديةٍ لهم. وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، ولا يحلُّ للمؤمن أن يذل نفسه. والطمع مضادٌّ لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزّة. والعزَّة التي اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع هممهم إلى مولاهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، وثقتهم به دون من سواه، فهذه هي العزَّة التي منحها الله تعالى عبده المؤمن، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وكما أنَّ العزة من صفات المؤمنين كذلك الذِّلَّة من أخلاق الكافرين والمنافقين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]. قال أبو بكر الوراق الحكيم[1] رضي الله عنه: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في القدر، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذلّ. ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

فالطامع لا محالة فاسد الدين، مفلس من أنوار اليقين.

---

(١) هو: أبو محمد بن عمر الوراق الترمذي، أقام ببلخ، وله تصانيف في الرياضة.

(ومن كلامه): من أرضى الجوارح بالشهوات، غرس في قلبه شجر الندامات. (الرسالة القشيرية ص٤٤٠).

قال في التنوير: «وتَـفَقَّدْ وجودَ الورع من نفسك أكثر مما تتفقد مما سواه، وتَطَهَّرْ من الطَّمَع في الخلق، فلو تَطَهَّرَ الطَّامِعُ فيهم بسبعة أبحر ما طهَّره إلا اليأس منهم، ورفعُ الهمة عنهم». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٢ـ (أنتَ حُرٌّ مِمَّا أنتَ مِنهُ آيِس، وعَبْدٌ لِمَا أنتَ لهُ طامع).

قال ابن عباد: الطَّمَعُ في الشيء: دليل على الحب له، وفرط الاحتياج إلى نيله، وذلك عبودية له، كما أنَّ اليأس من الشَّيء دليل على فراغ القلب منه، وغناه عنه، وذلك حُرِّيَّةٌ منه، فالطَّامع عبدٌ والآيسُ حرٌّ، ولهذا قيل:

العَبْـدُ حـرٌّ مـا قَـنَعْ ... والحُـرُّ عَبْـدٌ مـا طَمَـعْ
فاقْـنَعْ ولا تَطْمَـعْ فـما ... شيءٌ يَشِيْنُ سِوَى الطَّمَعْ

وقيل: «لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شيء لا خطر له»، وقيل: «إن العُقاب يطير في فضاء عِزِّه بحيث لا يرتقي طَرْف إلى مطاره، ولا تسمو همَّـة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم مُعَلَّقة على شبكة فيُنزلـه الطَّمَعُ من مطاره، فيَعْلَقُ بالشبكة جَناحُه، فيصيده صبيٌّ حتَّى يلعب به!». انتهى.

وقال الأهدل في شرحه: فمن أشعر نفسه بمحبة شيء في الدنيا فقد قتلها بشيء من الطَّمع، ومن طَمَعَ في شيء ذُلَّ به، وبِذُلِّهِ هلك، وكثرة الحرص والطمع يورث الغم والجزع، وقلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع. وفي المعنى لبعضهم:

اضْـرَعْ إلى اللّـهِ لا تَـضْـرَعْ إلى النّـاسِ ... واقْنَعْ بِيَأسٍ فإنّ العِـزَّ في اليَـاسِ
واسْتَغْنِ عن كُلِّ ذِي قُرْبٍ وذِي رَحِمٍ ... إنّ الغَنِيَّ مِنِ اسْتَغْنَى عنِ النّـاسِ

وقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه البصرة، فدخل جامعها، فوجد القصاص يقصون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري فقال: يا فتى، إني سائلك عن أمر، فإنْ أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابَك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً، فقال له الحسن: اسأل عما شئت، فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطَّمَع. قال: اجلس، فمثلك من يتكلم على النَّاس.

فعليك أيها المريد برفع هِمَّتِك عن الخلق، ولا تذل لهم في شأن الرزق، فقد سبقت قسمته وجودك، وتقدم ثبوته ظهورك، واسمع ما قال بعض المشايخ: أيها الرجل ما قدر لماضِغَيْكَ أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه، فَكُلْهُ ـ ويحك ـ بعزّ ولا تأكله بذل. انتهى.

* * *

باب التواضع

اعلم: أنه قد ورد في مدح التواضع آيات وأخبار وآثار تدل على فضله وعلو قدره. قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال ﷺ: «خَيَّرَني رَبِّي بَيْنَ أنْ أكُونَ عَبْداً رَسُولاً ومَلِكاً نَبِيّاً، فلم أدْرِ أيُّهما أخْتَار، وكان صَفِيِّي منَ الملائكة جِبْرِيل، فرَفَعْتُ رَأْسِي، فقال: تَواضَعْ لِرَبِّكَ، فقُلتُ: عَبْداً رَسُولاً»[1]، وقال ﷺ: «طُوْبَى لِمَن تَواضَعَ في غَيْرِ مَنْقَصةٍ[2]، وأنْفَقَ مالاً جَمَعَهُ في غيرِ مَعصِيةٍ[3]، ورَحِمَ أهْلَ الذُّلِّ والمَسْكنة، وخَالَطَ أهْلَ الفِقْهِ والحِكمة»[4]، وقالت عائشةُ رضي الله عنها:

---

(١) ذكره العراقي في الإحياء في كتاب ذم العجب والكبر. وقال العراقي في تخريج أحاديثه: رواه أبو يعلى من حديث عائشة، والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثَيْن ضعيف. انتهى.

(٢) أي: بأن يضع نفسه بمكان يزري به، ويؤدي إلى تضييع حق الحق أو الخلق، فالقصد بالتواضع: خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين.

(٣) أي: صرفه في وجوه الطاعات.

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢: ١: ٣٣٨)، والبغوي في معجم الصحابة، والبارودي (١٤: ٣٨٨٤٤ كنز العمال)، وابن قانع (١٤: ٣٨٨٥٩ كنز العمال)، والطبراني في الكبير: (٤٦١٥، ٤٦١٦)، والبيهقي (٤: ١٨٢)، وابن عساكر، وابن الأعرابي في المعجم (٢٣٣) من رواية نصيح العبسي، عن ركب المصري ـ وله صحبة ـ مرفوعاً بلفظ: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل نفسه في غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، ورحم =

«إِنَّكُم لَتَغْفلُون، أَفْضَلُ العِبَادةِ التَّواضُع».

وقال يوسف بن أسباط[1]: «يجزئ قليل الورع عن كثير العمل، ويجزئ قليل التواضع عن كثير الاجتهاد».

وقال الفضيل، وقد سئل عن التواضع: هو أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته»، وروي أنه خرج

= أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن ذل نفسه، وطاب كسبه، وحسنت سريرته، وعزل عن الناس شرَّه، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢: ٥٠٨): ركب المصري، كندي، له حديث واحد حسن عن النبي ﷺ، فيه آداب وحض على خصال من الخير والعلم، ويقال: إنه ليس بمشهور في الصحابة، وقد أجمعوا على ذكره فيهم، روى عنه نصيح العنسي.

وقال الحافظ في الإصابة (٢: ٤٩٨): إسناد حديثه ضعيف، ومراد ابن عبد البر بأنه حسن لفظه، وقال ابن مندة: إنه لا يعرف له صحبة. وقال البغوي: ولا أدري أسمع من النبي ﷺ أم لا.

وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٤٠): رواته ثقات إلا نصيحاً.

وقال الهيثمي بعد عزو الحديث إلى الطبراني: وفيه نصيح العنسي لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وذكره السيوطي في الجامع الصغير ورمز لحسنه (٥٢٩).

ورواه البزار من حديث أنس (كشف الأستار ٣٢٢٥)، وفي إسناده النضر بن محرز، وهو ضعيف.

(١) هو: يوسف بن أسباط الشيباني، أحد مشايخ الطريق المشهورين بالتحقيق، صاحب تعبد وتجرد، وأقوال وأحوال، وكلام يبرئ العليل، كان من المحدثين الأخيار، أخذ عن سفيان الثوري رضي الله عنه، وزائدة، ومخلد بن خليفة رضي الله عنهما، والمسيب بن واضح، وعبد الله الأنصاري: (مات سنة١٩٢هـ).

ومن كلامه: من قرأ القرآن ثم مال إلى الدنيا اتخذ آيات الله هزواً ولعباً. وقال: إياكم ولذة إقبال الناس عليكم فإنها مصيبة. وقال: لا تفرح بما أقبل، ولا تأسف على ما أدبر. (تهذيب التهذيب ١١: ٤٠٧).

يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع، فقال لهما الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن مائدته أجذم ولا أبرص ولا مبتلى، بل يُقْعِدُهُم على مائدته ويأكُلُ معهم، وكان يقول: «رأس التواضع أن ترضى بأدونِ المجالس لا لحظ نفس».

وقال الشِّبْلي رحمه الله تعالى: «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب».

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى: «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر. قيل: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم يرَ لنفسه مقاماً ولا حالاً». وقال عبد العزيز بن أبي وراد: «والله لا أعرف الآن على وجه الأرض رجلاً شرّاً مني».

قال يوسف بن عبيد، وقد انصرف من عرفات: «لم أشكّ في الرحمة لو لم أكن في الناس».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «مِنْ علامة تواضعك أن يكون ذكرك بالبر والتقوى بين الناس».

والآثار فيما يتعلق بالتواضع كثيرة مشهورة. والله الموفق.

ثم اعلم: أنّ ضد التواضع الكبر ومحله القلب وله علامات في الظاهر تدل عليه، ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى، فمنها: حب التقدم على الناس، وإظهار الترفع عليهم، وحب التصدر في المجالس، والتبختر والاختيال في المشية، والاستنكاف من أن يرد عليه كلامه وإن كان باطلاً، والامتناع عن قبول الحق، والاستخفاف بضَعَفَةِ المسلمين ومساكينهم.

ومنها: تزكية النفس، والثناء عليها، والفخر بالآباء من أهل الدين والفضل، والتبجح بالنسب، وجميع ذلك كله مذموم ومستقبح، والخير كله في التواضع والخشوع والخضوع لله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٣ ـ (مَن أثبَتَ لِنفْسِهِ تَواضُعاً فهُوَ المُتكبِّرُ حقًّا، إذْ ليسَ التَّواضُعُ إلاَّ عَن رِفْعةٍ، فمَتَى أثْبَتَّ لِنفْسِكَ تَواضُعاً فأنتَ المُـتكبِّر).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إثباتُ التَّواضع يقتضي وجودُ الرفعة لا محالة، إذ لو كانت معدومة لكان ضدُّها، وهو: الضَّعة، ثابتاً موجوداً، ولا ينتفي عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة، ووجود الضَّعة لا يحتاج إلى إثبات من العبد؛ لأنه ثابت في نفسه، فالتواضع الذي أثبته العبد لنفسه لا ينفي عنه وجود التكبر بالضرورة.

والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف العبد بالضَّعة وعدم الرفعة حقيقة لا إظهاراً فقط؛ بل ينتفي عنه وجود الرفعة بالكلية، وحينئذ يبرأ العبد من الكبر، ولا يكون له وجود البتة. انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: والرفعة لا تكون إلا عن عظمةٍ واقتدارٍ، ومن أثبت ذلك لنفسه كان متكبراً حقاً؛ لأن الضَّعف والعجز والذُّل والاحتقار صفة العبد، والقوة والعظمة والاقتدار صفة الرب، وإذا كان صفة العبد ما ذكر، فكيف يرى وجوداً واقتداراً؟ وربَّما يؤدي ذلك والعياذ بالله إلى الشرك الخفي أو غيره؛ لأنَّ العبد إذا رأى إلى عمله وإلى وجوده، وتعاظم في نفسه وتكبر بواسطة ما رأى في نفسه من علم وعمل، كان ذلك شركاً بالنسبة إلى

من نظر ما لله عليه من المنَّة والجود، فمتى أثبتَّ لنفسك تواضعاً فأنْتَ المتكبر؛ لأنَّك لا تثبت ذلك إلا بعد أن تشهد في نفسك الكمال وفي غيرك النقص، وبهذا الاعتبار حصل التكبر والافتخار على غيرك من نفسك وأنت لا تعلم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٤ـ (ليسَ المُتواضِعُ الذي إذا تَواضَعَ رَأَى أَنَّه فَوْقَ ما صَنَعَ، ولكنَّ المُتواضِعَ: الذي إذَا تَواضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ ما صَنَع).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يُثبت التواضع لنفسه، لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك، وهذا هو التواضع الحقيقي، وهو: شهوده لذلك، ووجده به، وظهور آثاره على ظاهره؛ بل شهوده لذلك ووجده به ممَّا يقدح في حقيقة تواضعه، كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «من وجد ذوق ذلـة في ذله فهو متعزز، وفيه بقية».

فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعاً؛ لأنه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة شهود الوجد عليه، فإن ما أثبته لنفسه، ورأى أن نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه؛ فهو متكبر حقيقة.

ومن علامة التحقق بهذا الخلق: ألاَّ يغضب إذا عِيْبَ أو تُنُقِّص، ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر.

ومن علامات تحققه أيضاً: أن يشتد حرصه على ألاَّ يكون له جاه وقدر عنْدَ الناس، ويلتزم الصدق في حاله بألاَّ يرى لنفسه موضعاً في قلوبهم.

ويُحكىٰ عن الحسن بن الكرابيسي[1] أستاذ الجنيد رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده، فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله داره في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد ريضت نفسي على الذل عشرين سنة حتَّى صارت بمنزلة الكلب يُطْرَدُ فينطرد ثم يُدعى فيعود، ثم يُرمى له عظم فيجيب، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتك. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٥ـ (التَّواضُعُ الحقيقيُّ هُوَ ما كانَ ناشئاً عن شُهُودِ عَظَمتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: شهود عظمة الله تعالى وتجلِّي صفته هو الذي يوجب للعبد وجودَ التواضع الذي ذكرناه؛ لأن ذلك هو الذي يُخمِد النفس ويذيبها، ويُبطل أنانيتها؛ فما تجلى الله لشيء إلا خضع له، فلا تنقلع من القلب شجرة حب الرياسة والكبر إلا به، لا بما يتكلفه العبد ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال. قال ذو النون المصري رضي الله عنه: «من أراد التواضع فليوجِّه نفسه إلى عظمة الله تعالى؛ فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه؛ لأنَّ النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى».

وفي كتاب «عوارف المعارف»[2]: واعلم: أنَّ العبد لا يبلغ حقيقة التواضع

---

(١) هو: أبو علي الحسن بن علي بن يزيد البغدادي الكرابيسي، كان جامعاً بين الحديث والفقه، سمي الكرابيسي لأنه كان يبيع الكرابيس: وهي الثياب الخام. مات سنة (٢٤٥هـ). (طبقات الفقهاء ١: ١٩١)

(٢) عوارف المعارف: كتاب في التصوف للإمام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السُّهرَوَردي، ولد سنة ٥٣٩هـ وتوفي سنة ٦٣٢هـ. (كشف الظنون ٢: ١١٧٧).

إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين فتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٦ـ (مَعصِيةٌ أورَثَتْ ذُلاًّ وافتقاراً خيرٌ مِن طَاعةٍ أورَثَتْ عِزّاً واستكباراً).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الذل والافتقار من أوصاف العبودية، والعزّ والاستكبار مناقضان لهما، لأنهما من صفات الربوبية، ولا خير في الطاعة إذا لزم منها شيء مما يناقض صفات العبودية؛ لأنَّها تُحْبطُها وتبطِلُها، كما لا مبالاة بالمعصية إذا لزمتها صفات العبودية؛ لأنها تمحوها وتزيلُها.

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: «انكسارُ العاصي خيرٌ من صولة المطيع».

ورويَ أنَّ عيسى عليه السلام خرج ومعه صالح من صالحي بني إسرائيل، فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم، فقعد بعيداً عنهما مُنْكَسِراً، فدعا الله تعالى وقال: اللَّهُمَّ اغفر لي. ودعا هذا الصالح وقال: اللَّهُمَّ لا تجمع بيني وبين ذلك العاصي، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أني قد استجبتُ دعاءهما جميعاً: رددت ذلك الصالح، وغفرت لذلك المجرم. انتهى.

وقال أبو الحسن الحجازي في شرحه: فإذا أردت أنْ تفتحَ أقفالَ ما سُدَّ عليك من معاني هذه العبارات، وتفهمَ ما فيها من الإشارات، فتأمَّل واقعة السيد آدم عليه السلام وإبليسَ اللَّعين، فمعصية آدم عليه السلام كانت سبباً للكمال، ولهذا قال الأستاذ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «أكرم بها معصية أورثت الخلافة، فمن حُسْن تدبير الله لآدم أكله من الشجرة، ونزوله إلى الأرض، وإكرام الله إياه

بالخلافة، والأمانة. وإبليس اللَّعين لما فتح له باب الطاعة في أوَّليته، ولم يفتح له باب القبول، أورثته عزاً بنفسه واستكباراً على غيره، فكان ذلك سبباً لبليته وطرده. فنسأل الله التوفيق، وأن يجعلنا ممن شملته العناية، وتمسك بعروة الاستعانة بالله على كل قصد. ولقد قال بعض أئمة هذا الطريق: «من سبقت له العناية لا تضره الجناية». انتهى.

* * *

باب الخوف من الاستدراج

وهو المكر من الله تعالى، وهو: إردافُ النِّعَمِ مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الآيات والكرامات من غير أمر ولا حدّ. ذكر ذلك الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه.

وقال القشيري، كما نقله الأهدل في شرحه: الاستدراج: تواتر الـمنَّة بغير خوف الفتنة، الاستدراج: إنشاء الذكر دون خوف المكر، الاستدراج: التمكن من الـمُنْيَة، والصرف عن البُغية، الاستدراج: تعليل وتأميل بغير وفاء، الاستدراج: ظاهر مضبوط، وسر بالأغيار منوط. انتهى.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ومن الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لا تُؤْمِنَّا مَكْرَك، ولا تُنْسِنا ذِكْرَك، ولا تَهْتِكْ عَنَّا سِتْرَك، ولا تجعَلْنا منَ الغافلين»[1].

---

(١) قال العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف. انتهى.
ورواه ابن النجار كذلك، ولفظه: «من قال عند منامه: اللهم لا تؤمنا مكرك، ولا تنسنا ذكرك، ولا تهتك عنا سترك، ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم ابعثنا في أحب الأوقات إليك حتى نذكرك فتذكرنا، ونسألك فتعطينا، وندعوك فتستجيب لنا، ونستغفرك فتغفر لنا، إلّا بعث الله إليه ملكاً في أحب الساعات فيوقظه». الحديث.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٧ـ (خَفْ مِن وُجُودِ إحسانِه إليك، ودَوامِ إساءتِكَ معَهُ، أن يكُونَ ذلكَ استِدراجاً لك، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين، يقال: من أمارات الاستدراج ركوب السيئة، والاغترارُ بزمن المهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفيِّ. قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] أي: يشعرون، وهو أن يُلقي في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، ليستدرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً، حتى يأخذهم بغتة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إشارةً إلى مخالفتهم وعصيانهم: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] أي: آيسون، قانطون من الرحمة.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه في قولـه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] قال: «يمدهم بالنعمة، وينسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أُخذوا».

وقال ابن عطاء الله: «كلّما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، ونَسَّيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٨ـ (مِن جَهْلِ المُرِيدِ أنْ يُسيءَ الأدَبَ فتُؤَخَّرَ العُقُوبةُ عنه، فيقُولَ: لو كانَ هذا سُوءَ أدَبٍ لَقَطَعَ الإمْداد، وأوجَبَ البِعَاد، فقد يُقْطَعُ المَدَدُ عنهُ مِن حيثُ لا يَشعُرُ، ولو لم يكُنْ إلاَّ مَنْعُ المَزِيدِ، وقد يُقامُ مَقامَ البُعْدِ مِن حيثُ لا يَدرِي، ولو لم يكُنْ إلاَّ أنْ يُخَلِّيَكَ وما تُرِيد).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا نوع من الاستدراج الذي تقدَّم ذكره، وسوءُ أدبِ المريد موجبٌ لعقوبته؛ ولكن العقوبات مختلفة فمنها معجّلة، ومنها مؤجَّلة، ومنها جليَّة، ومنها: خفيَّة، فالعقوبةُ الجلية: العقوبة بالعذاب، والعقوبة الخفية: العقوبة بوجود الـحجاب، فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب، والعقوبة بالحجاب لأهل سوء الأدب بين يدي علام الغيوب.

وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجَّلة أشدَّ على المريد من العقوبة الجلية المعجلة، ومثال العقوبة الخفية ما ذكره من قطع المدد عنه وإقامته مقام البُعد منه، وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذي ذكرناه، فإذا ابتلي به المريد ولم تدركه رحمة الله تعالى في الحال العتيد كان ذلك موجباً لسقوطه من عين الله تعالى، ووقوع الحجاب على قلبه، ويتبدل الأنس بالوحشة، وانتساخ الضياء بالظلمة، فتنكشف عنه حينئذ شمسُ العرفان، وتتستر عنه الكشوفات والبيان، فإذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع في الخذلان، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه الذكر، وحاق به سيئُ المكر، ورجع إلى متابعة هوى نفسه الأمّارة، وخرج عن دائرة الصفوة المختارة، وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذي ذكره المؤلف، يقتضي توجه هذه العقوبة إليه؛ لأن قوله: (لو كان هذا سوء أدب)... إلى آخره دليل على رضاه بحاله، واستحسانه لأعماله، وهذا هو الموجب له عدم المزيد، الذي اقتضاه قطع

المدد عنه، ولو كان المدد متواصلاً إليه لازداد عندما يقع منه سوءُ أدب تواضعاً لربه، وافتقاراً إليه، وخوفاً من مَكْرِه، ولم يستحسن حال نفسه، ولم يرضها.

وهو الذي أوجب له أيضاً التخلية بينه وبين ما يريد الذي اقتضاه إقامته مقام البعد، إذ لو كان مُقاماً في القرب لبعد عن رؤية نفسه، وكان متَّهماً لها في إرادتها، وكان واقفاً مع مراد الله به، فإنْ أقدم على أمرٍ بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة، وعوَّق عليه ما أراده، وسدَّ عليه مسالكه، ولم يخله وما أراد من ذلك.

ويقال: من علامة التوفيق ثلاثة: دخولُ أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرفُ المعاصي عنك مع السَّعي فيها، وفتحُ باب اللجاء والافتقار إلى الله تعالى في كلّ الأحوال.

ومن علامة الخذلان ثلاثة: تعسُّر الطَّاعة عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللّجاء إلى الله تعالى وترك الدعاء في الأحوال.

والأدب له موقع عظيم في التصوف، ولذلك قال أبو حفص رضي الله عنه: التصوف كله آداب، ولكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم الآداب بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول.

وقال أبو عبد الله بن خفيف[1]: قال لي رُوَيْم: «يا بني، اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً».

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، أمه نيسابورية، أقام بشيراز، كان من الأمراء، ثم تفقه وتصوف وتزهد، أخذ عن الأشعري وغيره، ومات سنة ٣٧١هـ.

وقال بعضهم: «الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً».

والآداب اللازمة للمريد عامة في ظاهره وباطنه، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن، وآداب الباطن هي التحلي بمحاسن الأخلاق كلها. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، أمرني بمكارم الأخلاق فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]»[1]. ولا يحصل له ذلك بعد توفيق الله وتأييده إلاَّ بالرياضة والمجاهدة.

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: «النَّفْسُ مجبولةٌ على سوء الأدب، والعبدُ مأمورٌ بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يَرُدُّها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عِنانها فهو شريكها في فسادها».

ولهذا كله يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ، والتأدب بآدابهم، واتباع أوامرهم ونواهيهم؛ لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره لا يصح له الانتقال عن الهوى ولو بلغ في الرياضة والمجاهدة كل مبلغ؛ وذلك لكثافة حجاب نفسه.

وقد سئل الدَّقَاق رضي الله عنه: بماذا يُقَوِّمُ الرجلُ اعوجاجه؟ فقال: بالتأدب بإمام، فإن لم يتأدب بإمام بقي بطَّالاً، فإذا قام العبد على ذلك، تزكت نفسه، وطهر قلبه، وتهذبت أخلاقه، وظهر على ظاهره أنوار ذلك، فتكون حركة ظاهرة وباطنة مزمومة[2] بزمام الأدب حتى يُنتَهَى به إلى المحافظة، ويُعَاقَبَ على تجنب أمورٍ غير

---

(١) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود رضي الله عنه، وسنده منقطع، قاله الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير (٣١٠). وانظر كشف الخفا رقم (١٦).

(٢) مربوطة مشدودة.

مستكثرة في ظاهر العلم، ويكون ترك محافظته عليها ذنباً من مثله، وقد يعاتب عليه ويعاقب من أجله.

قال سري رضي الله عنه: «صليتُ العشاءَ واشتغلت بوردي ليلة من الليالي، ومدَدتُ رجلي في المحراب، فنوديت: يا سري كذا تجالس الملوك، فضممت رجلي ثم قلتُ وعزَّتك وجلالك لا مددتُ رجلي أبداً».

قال الجنيد رضي الله عنه: فبقي أربعين سنة ما مدَّ رجلاً ليلاً ولا نهاراً.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: «كنت جالساً في مسجد «الشونيزية» أنتظر جنازة أصلي عليها، وأهل بغداد على طبقاتهم، جلوس ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس، فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه لكان أجملَ به، فلما انصرفت إلى منزلي، وكان لي شيء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغيره، فثقل عليَّ جميع أورادي، فسهرت وأنا قاعد، فغلبتني عيني فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان[1] ممدود، وقالوا: كل لحمه فقد اغتبته، وكشف لي عن الحال فقلت: ما اغتبته، ولكن قلت في نفسي شيئًا. فقيل: ما أنت ممن يُرضى منك بمثله، اذهب فاستحله، فأصبحتُ ولم أزل أتردد حتى رأيته في موضع يلتقط من الماء عند ترداد الماء أوراقاً من البقل مما تساقط من غسل البقل، فسلَّمت عليه، فقال: أتعود يا أبا القاسم؟ فقلت: لا، فقال: غفر الله لنا ولك» إلى غير ذلك من آدابهم رضي الله عنهم.

والظَّاهر أنَّ مراد المؤلف رضي الله عنه بإساءة الأدب ما كان فيه نوع من الرعونة، وإظهار الدعوى، واتصاف العبد بصفة المولى، وانبساطه وإذلاله في

---

(١) الخوان، بضم الخاء وكسرها: ما يوضع عليه ليؤكل.

موقف الهيبة والحياء وما أشبه ذلك مما يُـخَافُ على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به؛ ولكن ينبغي للمريد ألاَّ يتهاون بشيء من الآداب ولا يستحقرها؛ فإنَّ التَّهَاونَ بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل، وعدم المعرفة بالله تعالى، وهذا أقبح أنواع سوء الأدب، فإنْ وقعت منهُ إساءة أدب فليكن خائفاً من ذلك، مستعظماً للأمر فيه، ويبادر إلى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن تتوجه إليه العقوبة من حيث لا يشعر.

وآكد ما ينبغي أن يجتنبه المريد من أنواع سوء الأدب: أن يوطِّن خَاطِرَهُ على شيء من الاعتراض على الله تعالى، ويتعاطى التدبير معه، والتبرم بأحكامه المؤلمة في نفسه أو غيره، وأنْ يَطرَحْ لسانه بالشكوى إلى الخلق، والعتب لما لا يوافق هواه، أو نقص في نظره مما ذرأه الحق، فإنْ خطر بباله وجرى على لسانه شيءٌ من ذلك فليبادر إلى الاستغفار منه.

قال بعض السادات: أذنبتُ ذنباً، فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء: ليته كان!

وقال بعض السلف: لو قُرِضَ جسمي بالمقراض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله ليته لم يقضه. ومن مقتضياتها أيضاً: أن يتعلق القلب بشيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء، وأن يَتْرُكَ تعظيمهم واحترامهم، وأن لا يَقْبَلَ إشارتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا: عقوق الأستاذِينَ لا توبة لها.

وقالوا أيضاً: من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يُفلح.

وكذلك من سوء أدبه: أن يتصدر للتعليم والهداية، وأن يتصدر للإمرة والولاية، ومحبة الاستتباع، والرياسة، وتربية الجاه والحشمة، والقبول بين الناس،

واستدعاؤه بسره أن يُكرَمَ ويُعَظَّم، ويُتَبَرَّكَ به، ويقبل بين يديه، ويسارع في قضاء حوائجه، وذلك من أضر الأشياء به، وهو نتيجة استحسانه بما هو عليه، وعدم تفقده لعيوبه، واتهام نفسه في كل حال من الأحوال، وذلك مذموم منه.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: لا يرى أحد عيب نفسه، وهو مستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال، فإن استشعر المريد في نفسه شيئاً مما ذكرناه فليبادر إلى قطع مواده، واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويترسخ.

ومن أنواع سوء الأدب المفضي إلى عَطَب المريد: نزولُه عن مقتضيات الحقيقة إلى رُخَصِ الشريعة: فقد عدُّوا هذا من الجنايات العظيمة، الموجبة لانحطاط الرتبة، والبعد عن محل القربة.

قال ابن خفيف رضي الله عنه: «الإرادةُ استدامة الكدِّ، وتركُ الراحة، وليس شيء أضرَّ على المريد من مسامحة النفس وقبول الرخص والتأويلات».

ونعني بالرخصة ها هنا: ما كان مضاداً لحال المريد من تناول الشهوات واللذات والميل إلى المألوفات والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات والتأويلات، فإنَّ حال المريد يقتضي مباينته لهذا كله، وإن كان بعض ذلك مباحاً في رخصة الشرع لعامة الناس.

قال أبو سليمان رضي الله عنه: «ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها».

قال أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: «وقد اشتد خوف السلف رضي الله عنهم من تناول لذائذ الأطعمة، وتمرين النفس عليها، ورأوا أنَّ ذلك علامة الشقاوة ـ ورأوا أن منع الله تعالى منه علامة السعادة ـ حتى روي عن وهب بن

منبه رضي الله عنه: التقى ملكان في السماء الرابعة، فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال الآخر: أُمِرْتُ بِسَوْقِ حُوتٍ من البحر اشتهاه فلان اليهودي، وقال الآخر: أُمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد. وقال: هذا تنبيه على أن تيسّر الشهوات ليس من علامات الخير.

والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تتيسر أسباب ذلك، ويكون ذلك ابتلاءً من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عَوَّدَ نفسه كَسْرَ العزم أَلِفَتْ ذلك، وفسدت، فإذا اتفق كسر عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرنا في معاقبة النفس من كتاب المراقبة، فإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسَّنت عنده تناول الشهوة، وتفسد الرياضة عليه بالكلية». هذا كلام أبي حامد، وهو حسن، ومعناه صحيح مجرَّب، فليعمل عليه المريد.

وفي بعض الأخبار عن الله تعالى: «إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحْرمه لذائذ مناجاتي»، ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل إلى أهل الدنيا، وأن يتقرب منهم، وأن يصحبهم.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا، فإن صحبتهم سمٌّ مجرب؛ لأنهم ينتفعون به وهو ينقص بهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ومن ذلك: معاشرة الأحداث والشبان، وقبول إرفاق النسوان[١]، فإن تعرَّض لاستجلاب ذلك منهن فهو أشدُّ.

---

(١) أعطيات ومنح النساء، رفقه رفقاً: نفعه وأعانه، وأرفقه: رفق به ونفعه.

قال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه: رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، ورفق النسوان.

وآداب المريد كثيرة، وإنما نبهنا هاهنا على بعض ما يعظم فيه الخطر والضرر مما حذَّر عنه أئمتنا رضي الله عنهم، وبالغوا في التوصية به والنهي عنه. انتهى ما ذكره ابن عباد رحمه الله تعالى باختصار.

* * *

باب الورد والوارد

قال ابن عباد رحمه الله تعالى:

الورد: هو عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة.

والوارد: هو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره.

فالورد: ما من العبد للحق من معاملة وعبودية، والوارد: ما من الحق سبحانه وتعالى للعبد من لطف وكرامة[1]. انتهى.

وقال الأهدل في شرحه عند قول المصنف رحمه الله تعالى: «قلَّ ما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة»، إلى آخره: سئل الشيخ عبد القادر[2] رضي الله عنه عن

---

(١) وفي شرح أبي الحسن الحجازي عند قول المصنف: «إنما أورد عليك الوارد...» إلخ: وهو: التردد والنغمات الواردة على قلبك من غير تعمد ولا اجتلاب، فتكون به إليه وارداً، فتكون سائراً إليه بما أمرك به من أنوار المعرفة. انتهى.

(٢) هو: السيد عبد القادر بن موسى بن يحيى الجيلاني الحنبلي، من ذرية الحسن رضي الله عنه، طار ذكره في الآفاق وأجمع على إمامته أهل الخلاف والوفاق، كان في الفقه إماماً، وفي التصوف لا يُسامى، مؤسس الطريقة القادرية. مات سنة (٥٦١هـ).
من (كلامه): لا يبرأ الرجل من العجب إلا إن شاهد أموره كلها من الله وأخرج نفسه من البين.
وقال: النعم واصلة إليك بالقسمة اجتليتها أم لا، والبلوى حالّة بك وإن كرهتها، فسلم لله في الكل يفعل ما يشاء، فإن أتتك نعمة فاشتغل بالذكر والشكر، أو بلوى: فبالصبر والموافقة، =

صفات الواردات الإلـهية، والطوارق الشيطانية، فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء، ولا يذهب لسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت مخصوص. والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالباً. وقال الشيخ أبو الحسن: كل علم تسبق لك فيه الخواطر، وتتبعها الصورة، وتميل إليها النفوس، وتلتذ بها الطبيعة، فارمِ به وإن كان حقاً، وخذ بعلم الله الذي أنزل على رسوله، واقتد به، وبالخلفاء، والصحابة والتابعين من بعده، وبالهداة الأئمة المبرَّئين من الهوى ومتابعته، تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه، وماذا عليك أن تكون عبد الله، ولا علم ولا عمل؟! وحسبك من العلم بالوحدانية، ومن العمل: محبةُ الله ومحبة رسوله، ومحبة الصحابة، واعتقاد الحق للجماعة. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٠٩ـ (إذا رأيتَ عَبْداً أقامهُ اللهُ بِوُجُودِ الأوراد، وأدامهُ عليها معَ طُولِ الإمداد، فلا تَستَحْقِرَنَّ ما مَنَحَهُ مَوْلاه؛ لأنَّكَ لم تَرَ عَلَيْهِ سِيماءَ العارِفين، ولا بَهجةَ المُحِبِّين، فلولا وارِدٌ ما كان وِرْد).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: عباد الله المخلصون ينقسمون إلى قسمين: مقربين، وأبرار.

فالمقربون: هم الذين أُخذوا عن حظوظهم وإرادتهم واستعملوا في القيام بحقوق ربهم عبودية له وطلباً لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون.

والأبرار: هم الذين بقوا مع حظوظهم وإرادتهم، وأُقيموا في الطاعات ليُجزَوا عليها برفع الدرجات في الجنات، وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون.

= وعلامتها التلذذ والرضا بالقضاء. (فوات الوفيات ٢: ٢، الشذرات ٤: ١٩٨، الكواكب الدرية ١: ٦٧٦، طبقات الشعراني ١: ١٠٨).

وكل واحد منهم مُمَدٌّ في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهي اقتضى منهم القيام بحقوق مقاماتهم على اختلافها، فإذا رأيت عبداً أقامه الله في أعمال البر الظاهرة، ومواصلة الأوراد المتواترة، وأمده في ذلك بالمعاونة والتيسير، فذلك من اختيار الله تعالى له، فلا تستحقر ذلك لأجل أنك لم ترَ عليه سيماء العارفين مِن ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإرادات بين يدي المريد المختار، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم، والانبساط والإذلال بين يدي حبيبهم، فلولا الوارد الإلهي الذي أورده الله تعالى عليه ما استقام على عمله ووِرده، فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته، فلا تستحقر خطير ما منحه، وتستقل كثيرَ ما ربحه، وهل ذلك إلا من وجود جهلك، ونقصان عقلك؟ انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٠ـ (لا يَستَحْقِرُ الوِرْدَ إلاَّ جَهُول. الوارِدُ يُوجَدُ في الدَّارِ الآخِرة، والوِرْدُ يَنطَوِي بانْطواءِ هذِهِ الدَّارِ، وأولَى ما يُعْتَنَى بِهِ ما لا يُخلَفُ وُجُودُه. الوِرْدُ هُوَ طالبُهُ مِنك، والوارِدُ أنتَ تَطلُبُهُ مِنْه، وأينَ ما هُوَ طالبُهُ مِنكَ ممَّا هُوَ مَطلَبُكَ مِنه!).

قال السيد محمد الأهدل في شرحه: لا يستحقر الورد إلا جهول بحق ربه، وحظ نفسه، ووجه وصوله إليهما.

قال بعضهم: من لا ورد له لا وارد له، إذ الوارد يوجد في الدار الآخرة على حسب الورد، إذ جاء في الحديث أن الله تعالى يقول: «ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم». والورد ينطوي بانطواء هذه الدار فيفوت ثوابه، إذ هو مرتب عليه، وأولى ما يُعتنى به عند العقلاء الأكياس ما لا يخلف وجوده، إذ تذهب فائدته بذهابه، فإذا بطلت نفسك بعدم طلب الثواب فقل لها: الورد هو

طالبه منك، إذ هو حق العبودية منك، والوارد أنت تطلبه منه؛ لأنه حظ نفسك، وأين ما هو طالبه منك من واجب حقه مما هو مطلبك منه من غرضك وحظك؟ فطِبْ نفساً بالعمل لمولاك، وسلم له فيما به تولاك، فقد قالوا: كُنْ طالب الاستقامة، ولا تكن طالب الكرامة، فإنَّ نفسك تهتز وتطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق ربك أولى بأن تكون بحق نفسك، ولأنَّ مداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين، وطريق العابدين، وفيها مزيد الإيمان، وعلامة الإيقان. والعبادة على رؤوس العارفين كالتيجان على رؤوس الملوك. انتهى.

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: والورد أحقُّ ما يعتني به العبد ويراعيه من الوارد؛ لوجهين:

أحدهما: أنَّ الورد مختصٌّ بهذه الدار لا يقع إلا فيها؛ فهو منقطع بانقطاعها، فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها؛ إذ لا يمكنه خلف ما فات منها.

والثاني: أنَّ الورد هو حق الحق منك، والوارد هو حظك منه، وقيامُك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها، فإذا ثبت مزيد الورد على الوارد باعتبار العبد كان استحقاره من نهاية الجهل، وكان مُسْتَحقِره جهولاً، وقد رؤي الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة، فقيل: هل أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: نعم، سَبَبٌ وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً.

وكان يدخل كل يوم حانوته، ويُسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، ورؤي رضي الله عنه بعد وفاته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، وأبيدت تلك الرسوم، وغابت تلك العلوم، وما نفعنا إلا الركعات كنا نركعها في السَّحَر.

وحكى أبو محمد الحريري[(١)] رضي الله عنه قال: كنت عند الجنيد رضي الله عنه في حال نزعه، وكان يوم جمعة، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى مني بذلك وهو ذا تُطوى صحيفتي.

وفي خبر عائشة رضي الله عنها: سئلت عن عمل رسول الله، فقالت: «كان عمله ديمة»، وفي لفظ آخر: «كان إذا عمل عملاً أتقنه وأثبته»[(٢)]، وفي الخبر المشهور: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[(٣)].

وقد يكون استحقاره الورد من المكر والاستدراج للعبد، ويكُون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات، وتظهر له صورة كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته، وفي ذلك رفض العبودية بالكلية، وهو أمارة لوجود الطرد والبعد، والعياذ بالله، وصاحب هذا عظيم الجهالة، شديد العماية والضلالة. انتهى ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

١١١ـ (تَنوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ لِتَنوُّعِ وارِداتِ الأحوال).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: واردات الأحوال: هي ما تَرِدُ على القلوب من المعارف الرَّبَّانِيَّة والأسرار الروحانية وهي تُوجبُ لها أحوالاً حميدة، فمنها: واردٌ

---

(١) هو: أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الحريري، من كبار أصحاب الجنيد، أقعد بعد الجنيد في مكانه، وقد صحب سهل بن عبد الله، وكان عالماً بعلوم الصوفية. مات سنة أربع أو إحدى عشرة وثلاثمئة. (الرسالة ٤٠٢، حلية الأولياء ١: ٣٤٧، وصفة الصفوة ٢: ٢٥٢).

(٢) رواه مسلم (١: ١٤١) في صلاة المسافرين، وأبو داود في سننه (١٣٦٨)، والنسائي (٧٦١)، عن عائشة رضي الله عنها. وفي لفظ لأبي داود: «كان عمله ديمة».

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٩) باب القصد والمداومة على العمل، ومسلم (٧٨٣) باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

يُوجِبُ هيبة، ومنها: وارد يوجب أُنْساً، ومنها: وارد يوجب قبضاً، ومنها: وارد يوجب بسطاً، إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال. انتهى.

ولما كانت هذه الواردات متنوعة كانت أجناس الأعمال التي تقتضيها هذه الواردات أيضاً متنوعة، والأعمال الظاهرة أبداً تبع لأحوال القلب الباطنة.

ولهذا قال رحمه الله تعالى:

١١٢ـ (حُسْنُ الأعمال نتائجُ حُسْنِ الأحوال، وحُسْنُ الأحوال منَ التَّحَقُّقِ في مَقاماتِ الإنزال).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: حسنُ الأعمال: توفيتها بما يجب لها من شروطٍ وآداب العبودية لله تعالى، لا لطلب حظٍّ عاجل، ولا لثواب آجل.

وحسنُ الأحوال: أن تكون سالمة من العِلَل والدعاوى، موسومةً بسمة الصدق.

والتحقق في مقامات الإنزال: هو ارتواء القلب بما يُنزله الحق فيه من مقامات العلوم والمعارف، بحيث ينتفي عنه كلُّ شك وريب.

وهذه الثلاثة المذكورة مرتَّبٌ بعضُها على بعض. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٣ـ (لا يَنبغي للسَّالكِ أنْ يُعَبِّرَ عن وارِداتِه، فإنَّ ذلك ممَّا يُقِلُّ عَمَلَها في قلْبِه، ويَمنَعُهُ وُجودَ الصِّدْقِ معَ رَبِّه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الواردات الإلهية لا ينبغي للسالك أن يعبِّر عنها اختياراً منه؛ بل يُخْفيها ويصونها ولا يُطْلع عليها أحداً، إلا شيخاً مرشداً؛

لأن نفسه تجد في ذلك لذة وانشراحاً، فتقوى به صفاتها، فيقل بسبب ذلك عمل الواردات في قلبه من التأثير المحمود، ولأجل غلبة إحكام نفسه، وإيثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٤ـ (لا تَطلُبَنَّ بقاءَ الوارِداتِ بعدَ أن بَسَطَتْ أنوارَها، وأودَعَتْ أسرَارَها، فلَكَ في اللّـهِ غِنىً عن كلِّ شيء، وليسَ يُغْنِيكَ عنهُ شيء).

قال ابن عباد: أنوار الواردات المنبسطة على العبد هي تَكَيُّفُ ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه بما لاح له من عظيم الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبنَّ بقاءه في حال كونه، ولا تأسَ على فقده إذا فقدته، فإنَّ لك في الله تعالى غنى عنه وعن غيره، وليس لك عن غير الله تعالى غنى في شيء من الأشياء، كما قال الشاعر:

لكــلِّ شيءٍ إذا فارَقْتَــهُ عِــوَضٌ ... وليسَ للّـهِ إنْ فارَقْتَ مِن عِـوَضِ

قال أبو عبد الله بن عطاء الله رضي الله عنه: «إيَّاك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً». ويدخل في المعنى الذي ذكره ابن عطاء الله رضي الله عنه جميع الأغيار، والأنوار، والمقامات، والأحوال، والدنيا، والآخرة، والنِّعَمِ الظَّاهِرة والباطنة، فلا تلاحظ شيئاً من ذلك، ولا تركنن إليه، ولا تعتمد عليه، بقي أو ذهب، فإنَّ ذلك قادحٌ في إخلاص التوحيد. انتهى.

* * *

باب مراتب السالكينَ عموماً وخصوصاً
على اختلاف طبقاتهم

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرح الأصل: اعلم أنَّ أفضل العبادة والطاعة المعرفة؛ لأن معرفة كيفية العمل بالطاعة ينشأ عنها نتيجة التقوى، والتقوى ينشأ عنها نتيجة المعرفة، فالمعرفة لب اللُّباب، وغاية الغايات، وهي تختلف بحسب حال العارفين؛ لأن معرفة كل عارف على قدر ما أمده الحق من التعرف.

قال بعض المحققين: من تعرَّف إليه بأفعاله عرف نفسه بالآلاء، ومن تعرف إليه بذاته محَقَ عنه المعارف والمعروف والمعرفة، وكل ما يتعرف به، وثبت بلا إضافة لا لمضمر ولا لمظهر. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٥ـ (قَوْمٌ أقامَهُمُ الحقُّ لِخدمتِه، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُم لَمحبَّتِه، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]).

قال الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: قوم أقامهم الحق لخدمته، وهم العباد والزهاد وأهل الأعمال والأوراد، وقوم اختصهم لمحبته، وهم أهل المحبة والوداد والصفاء واتباع المراد؛ لأن كلاً منهم في خدمته، وتحت طاعته، إذ كلهم قاصد وجهه، ومتوجه إليه. قال سبحانه وتعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] أي: ممنوعاً، وهذا عام في كل طريق، وظاهر في كل فريق. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: للحق تعالى الاختيار التام والمشيئة النافذة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فطائفة أقامهم الحقُّ تعالى لخدمته حتَّى صلحوا للجنة، وهم الزاهدون والعابدون، وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا لِقُربه والدخول إلى حضرته، وهم العارفون والعلماء.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «الزاهد صَيْدُ الحق من الدنيا، والعارف صيد الحق من الجنة». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: اعلم: أن المحبة أعلى المقامات، ومن علاماتها: الفناء عن كل ما سوى المحبوب، ومن فني عن كل ما سواه تولاه. قال تعالى على لسان نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا يَزالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، ولِسَانَهُ الذي يَنْطِقُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بِها»[1]... الحديث. فهؤلاء شهودهم بالقلب، ونظرهم بالبصيرة، وسمعهم بالكشف، ونطقهم بالحكم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٦ـ (ليسَ كلُّ مَن ثَبَتَ تخصِيصُه كَمُلَ تخليصُه).

قال السيد محمد الأهدل في شرحه: ليس كل من ثبت تخصيصه بالعلوم والأعمال والكرامات، كَمُلَ تخليصه من العلل والآفات؛ بل الغالب أنَّ الكرامات

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من طريق خالد بن مخلد، ثنا سليمان بن بلال، حدثني شريك بن أبي نمر، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَبْتُهُ، فكنت سمعه»... إلخ.
ورواه ابن حبان (٣٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١: ٤) والبغوي في شرح السنة (١٢٤٨).

إنما ترد مقدمات للمعرفة أو مقويات لليقين، واختيارات للصدق؛ إمَّا في حق من ظهرت على يديه، أو في حق من ظهرت له. انتهى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: التخصيص هنا هو: أن يظهر الحق سبحانه على بعض عباده أَثَرَتَهُ»، أي: نعمته وعنايته ويُوليه لطفه ورعايته، فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان، ويتخلَّص من رؤية الأغيار والأكوان، وهؤلاء هم خواصُّ المقرَّبين، أهل العلم بالله والحب له، ومنهم من يوفق عن بلوغ ذروة[1] الكمال ويربيه في حاله بما يليق به من علوم وأعمال، وهؤلاء عامة المقربين، وخاصة أصحاب اليمين العبَّاد والزهاد، وأهل المجاهدة والأوراد، وهؤلاء وإن شاركوا الأولين فيما يُتحفهم الحق سبحانه من لطائف الكرامات، وفيما يمنحهم إيَّاه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات، فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم، ولم ينفكوا عن مراعاة حظوظهم؛ بل هم ساكنون إلى أسباب، مغتبطون بوجود الحجاب، وقد يختصُّ الحق تعالى هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم؛ تسكيناً لنفوسهم، وتثبيتاً لليقين في قلوبهم، ويمنعها الأولين؛ لأنهم لا يحتاجون إليها؛ لما هم فيه من الرسوخ في اليقين، والقوة والتمكين، كما قال صاحب «عوارف المعارف»: وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معاني القدر أفضل ممن يكاشف بها، إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر من القادر، ومن أُهِّل بقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة.

وسئل الشبلي رضي الله عنه، وقيل له: إنَّ أبا تراب[2] ذكر أنه جاع في البادية

---

(١) ذروة الشيء، بالضم والكسر: عاليها، أي: عالي الشيء.

(٢) هو: أبو تراب النخشبي العارف، واسمه عسكر بن الحصين، من كبار مشايخ القوم، صحب حاتماً الأصم وغيره. مات سنة (٢٤٥هـ). (العبر ١: ٣٥٠، حلية الأولياء ١٠: ٤٥)

فرأى البادية كلها طعاماً. فقال: عبد رُفق به، ولو بَلَغَ إلى محل التحقيق لكان كمن قال: إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين.

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرمات إلا على يدي البُلْه من الصادقين.

وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله رضي الله عنه فقال له يوماً: ربَّما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يديَّ قضبان ذهب وقضبان فضَّة، فقال: أما علمت أنَّ الصبيان إذ بكوا أُعطوا خَشْخاشةً[1] ليشتغلوا بها.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق المحبة، وهو أعلى من الذي قبله، وإذا رأيته يشير إلى الذكر وقلبه معلَّق بالذكر الذي ذكر، فطريقه طريق العارفين، وهو أعلى درجة من جميع الأحوال.

وقال أبو يزيد رضي الله عنه: كنت في بدايتي يُريني الحقُّ تعالى الآيات والكرامات ولا ألتفت إليها، فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلاً. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٧ـ (السِّتْرُ على قِسمَيْنِ: سِتْرٌ عنِ المَعصِية، وسِتْرٌ فيها، فالعامَّةُ يَطلُبُونَ منَ اللّـهِ تَعَالَى السِّتْرَ فيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرتبتِهم عندَ الخَلْق، والخاصَّةُ يَطلُبُونَ السِّتْرَ عَنها خَشْيَةَ سُقُوطهم مِن نَظَرِ المَلِكِ الحقّ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: العامة يغلب عليهم شهود الخلق، والتصنُّع لهم، ومحبة حمدهم، وكراهة ذمهم، فهم يعملون المعصية ويستخِفُّون بها، ويطلبون الستر من الله عليهم فيها، أي: في حال كونهم عاملين بها، لئلا يراهم الخلق

---

(١) قال في المصباح: الخشخاش، بفتح الأول: نبات معروف. الواحدة: خشخاشة.

فيسقطوا من أعينهم، وهذا شأن المرائين الذين يستَخِفُّون نظر الجبَّار، ويهابون النَّاس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار.

والخاصة من أهل الإيمان واليقين بريئون من هذا الوصف الذميم، لا التفات لهم إلى الخلق مدحاً ولا ذماً، وهمتهم مصروفةٌ عن النظر إليهم والاعتماد عليهم في نفع، أو دفع، وحالهم إنما هو القناعة بعلم الله تعالى، ومراقبة نظره، فهم يطلبون الستر من الله تعالى عنها في أن يغيِّبها عن نظرهم لها، ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها، فيقعون في مخالفة ربهم، والتعرض لسخطه، والسقوط من عينه، وشتَّان ما بين الحالَيْن.

وإلى هذا المعنى أشار سيدي أبو الحسن رضي الله عنه في دعائه بقوله: «اللَّهُمَّ إنَّا نسألك التوبةَ ودوامَها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذَكِّرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها، ومن التفكر في طرائقها، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها، واستبدلها بالكراهة لها، والطعم لما هو بضدها». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١١٨ـ (شَتَّانَ بَيْنَ مَن يَستَدِلُّ بِهِ ومَن يَستَدِلُّ عَلَيْه، المُستَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحقَّ لأهلِه، وأثبَتَ الأمرَ مِن وُجُودِ أَصْلِه، والاستِدلالُ عَليهِ مِن عَدَمِ الوُصُولِ إلَيْه، وإلاَّ فمَتَى غَابَ حتَّى يُستَدَلَّ عَلَيْه! ومتَى بَعُدَ حتَّى تكُونَ الآثارُ هِيَ التي تُوصِلُ إلَيْه!).

قال الشيخ أبو الحسن علي الحجازي في شرحه: شتان بين من يستدل به على الآثار والأكوان، ومن يستدل عليه بالآثار، المستدل به عرف الحق لأهله.

الحق هو: ما وجب على العبد من جانب الحق. ومراد الشيخ ـ والله أعلم ـ بالحق في هذا الموطن الذي: هو ضد الباطل، لقوله عليه السلام: «أصدَقُ كلمةٍ قالها الشاعر: ألاَ كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ»[1].

والباطل هو: العدم المحض، قال تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [القصص: ٧٥]... الآية. ولهذا أشار بقوله: «وأثبت الأمر من وجود أصله»؛ لأنَّ الأمر ما وجد من الحق بغير سبب، ويؤيد مقالة الأستاذ ما قاله علي رضي الله عنه: «من عرف الله بالرجال فهو غافل أو جاهل، ومن عرف الرجال بالله فهو العارف». انتهى.

ثم قال رضي الله عنه: «والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه»، وهذا معلومٌ بالضرورة؛ لأنَّ الإنسان لا يستدل إلا على الغائب البعيد، والحق تعالى حاضر لا يغيب، ظاهر لا يحتجب، وإنما المحجوب أنت، فسبحان الظاهر قبل وجود المظاهر، الأول الآخر الظاهر الباطن، «وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟!»، ولهذا حُكِيَ عن بعض المريدين أنه قال لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال له: أسحقك الله، أتطلب مع العَيْن أين؟

وقال رضي الله عنه في غير هذا الكتاب: فما احتجب الحق عن العباد إلا لعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلا باهر نوره، فعظيم القرب هو الذي غيب عن شهود القرب، ولهذا أخذ في التعجب بقوله في هذا المحل: «ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»؛ لأنَّ الحق تعالى وراء القصد، والطلب عين البعد، كيف يُطلَب من هو قريب حاضر؟ فالطلب والقصد والقرب والبعد

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦)، وابن ماجه (٣٧٥٧) عن أبي هريرة.

صفة البعيد، وبماذا يدرك العبد بصفته من هو متنزه متعال في ذاته؟ فكل مخلوق محله العجز عن نيل إدراك هذا الكنز.

فائدة: اعلم أنَّ للمؤمنين حالات، منهم: مَن إيمانه عن تقليد، وهم العوام. ومنهم: من إيمانه عن دليل، وهو علماء الرسوم. ومنهم: من إيمانه عن كشف وشهود، وهذا ممن جمع بين العلم وعينه وحقه. انتهى ما ذكره الحجازي.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: بنو آدم في أول نشأتهم، ومبدأ خلقتهم، وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل، وعدم العلم. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ثم إن الله تعالى لما اختص بعضهم بخصوص عنايته، واختار منهم مَنْ أهَّله لولايته، جعلهم قسمين: مرادِين، ومريدين، وإن شئت قلت: مجذوبين وسالكين، وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق. قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فالمريدون السالكون إلى الله تعالى في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار، فالآثارُ والأكوان ظاهرةٌ لهم، وموجودة لديهم، والحق تعالى غَيْبٌ عنهم، فلم يروه، فهم يستدلون بها عليه في حال ترقِّيهم، والمرادون المجذبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم، وتعرَّف إليهم فعرفوه، فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم، فلم يروها، فهم يستدلون به عليها في حال تدلِّيهم، فهذا هو حال الفريقَيْن، وشتان ما بينهما، أي: بَعُدَ مَا بينهما، وذلك أن المستدل به على غيره عَرَفَ الحق الذي هو الوجود الواجب لأهله، وهو المختصُّ بوصف القدم، وأثبت الأمر المشار به إلى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثِر المتحقق وجوده، والمستدل بغيره عليه، على عكس ما ذكرناه؛ لأنّه استدل بالمجهول على المعلوم، وبالمعدوم على الموجود، وبالأمر الخفيِّ على

الظاهر الجليّ؛ وذلك لوجود الحجاب، ووقوفه مع الأسباب، وعدم احتضائه بالوصول والاقتراب، وإلاَّ فمتى غاب حتَّى يُسْتَدَلُ عليه بالأشياء الحاضرة؟! ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار القريبة هي التي توصِّل إليه؟! أو فُقد حتى تكون الآثار الموجودة هي التي تدل عليه؟! وأنشدوا:

عَجِبْتُ لِـمَن يَبْغي عَلَيْكَ شَهادةً   وأنتَ الذي أشهَدتَه كـلَّ مَشـهَدِ

قال في لطائف المنن: «واعلم أنَّ الأَدلَّة إنَّما نُصبت لمن طلب الحق، لا لمن شهده؛ فإنَّ الشاهد غنيٌّ بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل المسائل إليها كسبية، ثم تعود إلى نهايتها ضرورية، وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل فالمكوِّن أولى بغنائه عن الدليل منها». انتهى.

* * *

باب القبض والبسط

القبض: ذهني لا وجود لـه في الخارج، مفهومه: **سلب المسرَّة الحاصلة مع البسط المفارق للأحوال الملائمة.**

والبسط: **هو توسع النفس عند غلبة الظن عليها بحصول الأنس بالذهول عن توقع ما يحذر أو يرجى.**

ذكر ذلك أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى في شرح الأصل.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: القبض والبسط من الحالات التي يَتَلَوَّنُ فيها العارفون، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين.

وسببهما: الواردات التي تَرِدُ على باطن العبد. وقوتها، وضعفهما، بحسب قوة الواردات وضعفها.

قال رحمه الله تعالى:

١١٩ـ (العارفُونَ إذا بُسِطُوا أخوفُ مِنهُمْ إذا قُبِضُوا[١]، ولا يَقِفُ علَى حُدُودِ الأدَبِ في البَسْطِ إلاّ قليل).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: إنَّما اشتد خوف العارفين في البسط ما لم يشتد في القبض من قبل ملاءمته لهوى النفس بخلاف القبض، كما سيقُولُه المؤلف

---

(١) قوله: «العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا» اعتباراً بخوف المكر، وغيرهم إذا بسطوا أرجى منهم إذا قبضوا اغتراراً بظاهر الأمر. انتهى من شرح الأهدل.

الآن، فيخافون حينئذ من رجوعهم إليه، وذوقهم لطعم نفوسهم، وفي ذلك الطرد والبعد، ومن ثَمَّ يتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب، ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمرٌ عسيرٌ في هذا الحال، ولذلك لا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى تعالى، وقد قيل: «قف على البساط وإياك والانبساط».

قال في «لطائف المنن»: «البسط مزلَّة أقدام الرجال، وهو موجب لمزيد حذرهم، وكثرة لجائهم، والقبض أقرب إلى وجود السلامة؛ لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله تعالى وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه، والبسط خروجٌ عن حكم وقته، والقبض هو اللائق بهذه الدار، إذ هي وطن التكليف، وإبهام الخاتمة، وعدم العلم بالسابقة، والمطالبة بحقوق الله تعالى». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٠ـ (البَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنهُ حَظَّها بوُجُودِ الفَرَح، والقَبْضُ لا حَظَّ للنَّفْسِ فيه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: في هذا إشارة لما تقدَّمَ من أنَّ مراعاة الأدب في البسط أمرٌ عسير، وذلك لأنَّ في البسط وجود حظِّ النفس، فيستولي عليها الفرح بذلك، فلا يتمالك حتى يقع في سوء الأدب، والقبض ليس فيه حظٌّ للنفس، فلذلك كان أسلم.

وكان الأستاذ أبو عليٍّ الدقاقُ رضي الله عنه يقول: «القبض: حقُّ الحق منك، والبسط: حظ العبد منه، ولأن يكون بحقِّه منك أتمُّ من أن يكون بحظك منه».

باب الأنوار التي تنكشف بها الحقائق

وهي كما يعلم من شرح ابن عباد: عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية، واللطائف الروحانية من الله تعالى؛ ليطهره بذلك ويزكيه، حتى يصلح للورود عليه، والدخول إلى حضرته؛ لأنَّ الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار، متلوث بأقذار الأغيار.

قال رحمه الله تعالى:

١٢١ـ (الأنْوارُ مَطايا القُلُوبِ والأسرار).

يصل بها كلٌّ إلى حقيقة، فالقلب حقيقة من عالم الغيب، والسر حقيقة من عالم غيب الغيب؛ لأنَّ السر عندهم ما خفي في البيان، فالقلب له نور الإيمان الحقيقي، والسرُّ له نور الحق الخفي؛ لأن المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر به إليه. ذكر ذلك أبو الحسن الحجازي في شرحه.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٢ـ (النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ، كما أنَّ الظُّلْمةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فإذا أرادَ اللهُ تَعَالَى أنْ يَنصُرَ عَبْدَهُ أمَدَّهُ بِجُنُودِ الأنوار، وقَطَعَ عنهُ مَدَدَ الظُّلْمِ والأغيار).

قال ابنُ عَبَّاد رحمه الله تعالى: نور التوحيد واليقين، وظلمة الشرك والشكِّ جندان للقلب والنفس، والحرب بينهما سجال[1]، فإذا أراد الله عز وجل نصر

---

(١) أي: تارةً لهم وتارة عليهم.

عبده أمدَّ قلبه بجنوده، وقطع عن نفسه مدد جنودها، وإذا أراد الله خذلان عبده فعلى العكس، فإذا مال القلب إلى العمل بأمرٍ محمود مؤلم في الحال ملتذ به في المآل، ومالت نفسه إلى العمل بأمر مذموم ملتذٍّ به في الحال، مؤلم في المآل، وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذي هو من أمر الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلب، وبادرت الظلمات التي هي من وساوس الشيطان ولَـمّته[1] إلى نصرة النفس، وقام صف القتال بينهما، فإن سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة اهتدى القلب بنور الله تعالى، واستهان العاجلة، ورغب في الآجلة، وعمل بما مال إليه القلب وإنْ آلمه في الحال لما يرجوه من التنعُّم به في المآل. وإن سبقت له من الله تعالى الشقاوة ـ والعياذ بالله تعالى ـ ذهل القلب عن النور، وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل، واغترَّ بلذَّة العاجل، وعمل بما مالت إليه نفسه وإن آلمه في المآل لما يحصل لـه من لذَّة الحال.

وعند التقاء الصفَّين، والتحام القتال بين الجُنْدَيْن، لا سبيل للعبد إلاَّ فَزَعُهُ إلى الله تعالى، ولياذه به، وكثرة ذكره له، وصدق توكله عليه، واستعاذته به من الشيطان الرجيم. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٣ـ (لو أشرَقَ لك نُورُ اليَقِينِ لرَأيتَ الآخِرةَ أقرَبَ إليكَ مِن أنْ تَرحَلَ إلَيْها، ولَرَأيتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا قد ظَهَرَتْ كِسْفةُ الفَناءِ عليها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فيحق به الحق ويبطل به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق

---

(١) أي: صاحِبتُه ورفيقته، فاللمة: الصاحب أو الأصحاب في السفر. يقال: لا تسافروا حتى تصيبوا لمة، أي: رفقة، فيجوز أن تكون بفتح اللام، يقال: أصابت فلاناً من الجن لمة، وهو: المس، والشيء القليل.

نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتَّى كأنَّها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يُرْتحل إليها، فحقَّ بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه، قد انكسف نورها، وأسرع إليها الفناءُ والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها، حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادةَ في الدنيا، والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها.

ووجدانُ العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور، كما قال ﷺ: «إنَّ النُّورَ إذَا دَخَلَ القَلْبَ انشَرَحَ لـهُ الصَّدْرُ وانفَسَح»، قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال ﷺ: «نَعَمْ: التَّجافي عَن دَارِ الغُرُور، والإِنابةُ إلى دَارِ الـخُلُود، والاستِعدادُ لِلمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه»[1]، أو كما قال ﷺ، عند ذلك تموت شهواته، وتذهب دعاوى نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهيٍّ، ولا

---

(١) رواه الحاكم (٤: ٣١١) وسكت عنه، وقال الذهبي: عدي ساقط.

قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه الحاكم في المستدرك من رواية عدي بن الفضل، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود، قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فقال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح»، فقيل: يا رسول الله، هل لذلك من علم يعرف؟ قال: «نعم».. فذكره. قال: وقد سكت عليه الحاكم وهو ضعيف. ورواه البيهقي في الزهد من رواية عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود. ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق قال: أخبرنا عبد الرحمن المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر: رجل من بني هاشم وليس بمحمد بن علي، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، فذكر مثل رواية الحاكم إلا أنه قال: قيل: هل لذلك من آية يعرف بها؟ وقال في آخره: قبل الموت، وهذا مرسل ضعيف، وهو الصواب في رواية هذا الحديث. وما قبله ضعيف كما بينه الدارقطني في العلل.

تكُون له همَّة إلَّا المسارعة في الخيرات؛ والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل، وفوات صالح العمل. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٤ـ (رُبَّما وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأنْوارُ، فوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بصُوَرِ الآثار، فارْتَحَلْتَ مِن حيثُ نَزَلْتَ).

وقال رحمه الله تعالى:

١٢٥ـ (فَرِّغْ قَلبَكَ منَ الأغيار يَمْلأْهُ بالمَعارِفِ والأسرار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الأنوار الإلهية قد ترد على قلبك فلا تجد فيه موضعًا لاستقرارها؛ لما غلب عليه من رعونات البشرية، واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترحل من حيث تنزل؛ لأنها مقدَّسة مطهرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه، وتجلِّي المعارف والأسرار، ففرغه من الأغيار، وامح عنه صور الآثار. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى في شرحه: ربما وردت عليك الأنوار وهي أنوار الكشف والمشاهدة، فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، وهي الأكوان المتعلقة بعالم الشهادة، فارتحلت من حيث نزلت؛ لأنها لم تجد لها مكاناً تسكنه، ولا وطناً تستقر فيه.

واعلم: أن القلب له حقيقة، وهي: ما استودع فيه من أنوار ودائع الغيوب، وهي أنوار الإيمان واليقين الذي بها يدرك النور الحقيقي. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فإذا ظهرت الأنوار من حضرة الجلال والجمال، وتجلت في سماء القلب، أدركها القلب بذلك النور الذي أودعه الله في بصره، فإذا نظر القلب إلى الآثار، ووقف معها، صارت حجاباً له عن إدراك النور، فإذا أردت النور فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار.

الأغيار جمع غير، وهي: ما سوى الله تعالى، وأما المعارف والأسرار فهي: الأنوار الواردة من عين الحقيقة على قلوب أهل البصائر والاستبصار. روي: أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: «إني إذا اطلعت على قلب عبدي فلم أجد فيه حب الدنيا، ولا الآخرة ملأته من أنواري».

وقال الشيخ أحمد بن الوفا رضي الله عنه: المعرفة ثلاثة أشياء: الهيبة، والحياء، والأنس. انتهى.

والأسرار هي حقائق أنوار هذه الأحوال. انتهى ما ذكره الحجازي ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٦ـ (رُبَّما وَقَفَتِ القُلُوبُ معَ الأنوار، كما حُجِبَتِ النُّفُوسُ بكثائفِ الأغيار).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: القلوب نورانية، فتنحجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف. والنفوس ظلمانية، فتنحجب بمحبَّتها لكثائف الأغيار الظلمانية من العادات والشهوات.

فالقلوب محجوبة بالأنوار، كما أنَّ النفوس محجوبة بالظلمات، والحقُّ وراء ذلك.

كما قال أبو الحسن التستري رحمة الله عليه في قصيدته النونية (شعراً):

تَقَيَّدْتَ للأوهام لـمَّا تَداخَلَتْ ... عَلَيْكَ ونُورُ العَقلِ أورَثَكَ السِّجْنَا

وهِمْتَ بِأنوارٍ فَهِمنَا أُصُولَها ... ومَنْبَعَهَا مِن أيْنَ كان فما هِمْنَا

وقد تُحْجَبُ الأنوارُ لِلعَبْدِ مِثْلَما ... تُبَعِّدُ مِن إظلامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

انتهى.

وقال الشيخ الحجازي في شرحه: ربَّما وقفت القلوب مع الأنوار؛ إذ هي مواطنها وعالمها، فحجبت بها عن منوِّر النور وموجده، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار، وهي وجود عوالمها ومواطنها الحسية الكثيفة الظلمانية، فإذا أردت أن تكون إبراهيمي المشهد، فلا ترضَ بما سوى الله، ولا تقف مع ما يكشف لك عنه من الحالات، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، حتَّى إذا فنيت ولم تك شيئاً، بقيت به وصار المحو عين الثبات. انتهى.

* * *

باب بيان قرب العبد من الله تعالى

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه عند قول المصنف الآتي قريباً إن شاء الله تعالى: «قربك منه هو أن تكون شاهداً لقربه»... إلى آخره: فحقيقة شهادتك قربه بعد كشف الحس الخيالي، ودفع الوهم فإذا ارتفع الوهم «كان الله ولا شيء معه»، إذ وجود الحق تعالى منزه عن أوصاف الحدوث، وتحكمات الأوهام، سبحانه له الوجود المطلق، ولا يعلم ما هو إلا هو، ولا يستدل به إلا عليه، فإذا انجلى قلبك من صدا الأغيار وعرفك نفسك، وأشهدك إياك، تجلى عليك بالنعم، أي: بأنوار الحقائق التي بها تكون المعرفة، وتشهد القرب. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٧ـ (وُصُولُكَ إلى اللّـهِ وُصُولُكَ إلى العِلمِ به، وإلاَّ فجَلَّ رَبُّنا أنْ يَتَّصِلَ بشيءٍ أو يَتَّصِلَ بِهِ شيء).

قال السيد محمد الأهدل رحمه الله تعالى في شرحه: وصولك إلى الله تعالى وصولك إلى العلم به، على وجه يسقط به الاستدلال، وتبدو العظمة والإجلال، حتَّى يعرفَ أنه أجل من أن يُعرف، وأعظم من أن يحد أو يُكَيَّف؛ بل يغرق العبد في حقيقة العجز تحققاً بما قال الصديق الأكبر إذ قال: «سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»، ومستهدياً بما قاله سيد المرسلين لما وجه بالسرّ الأعظم إذ قال: «لا أُحْصي ثَناءً عَلَيْك، أنتَ كما أثنَيْتَ علَى نَفْسِك»[1]. هذا

---

(١) صحيح مسلم (٤٨٦).

الوصف المشار إليه عند القوم، وإلا فجلَّ ربنا أن يتصل بشيء، أو يتصل به شيء؛ لأن الاتصال والانفصال من سمات الحدوث، وما لا يعرى عن الحدوث لا يسبقه، وما لا يسبقه كان حادثاً مثله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: «متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له، بمن له شبيه ونظير، هيهات، هذا ظن عجيب؛ إلا بما لطف به اللطيف، من حيث لا دَرْك ولا وهم ولا إحاطة؛ إلا إشارة اليقين، وتحقيق الإيمان». انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٢٨ ـ (قُرْبُكَ مِنهُ أن تكُونَ مُشاهِداً لِقُربِه، وإلاَّ فمِن أيْنَ أنتَ ووُجُودُ قُرْبِهِ؟).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: القربُ الحقيقي قربُ الله تعالى منك. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وحظُّك من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط، فتستفيد بهذه المشاهدة شدَّة المراقبة، وغلبة الهيبة، والتأدب بآداب الحضرة، وأمَّا أنت فلا يليق بك إلاَّ وصف البعد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا: «إلهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك».

قال رحمه الله تعالى:

١٢٩ ـ (لو أنَّكَ لا تَصِلُ إلَيْهِ إلاَّ بَعْدَ فَناءِ مَساويك، ومَحْوِ دَعَاويك، لم تَصِلْ إلَيْهِ أبداً، ولكِنْ إذا أرادَ أنْ يُوصِلَكَ إلَيْهِ غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِه، ونَعْتَكَ بِنَعْتِه، فوَصَلَكَ إلَيْهِ بما مِنهُ إلَيْك، لا بما مِنكَ إلَيْه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الوصولُ إلى الله تعالى لا يكون إلا بمحو

صفات النفس، وقطع علاقات القلب، وشيء من ذلك لا يتصوَّر من العبد من حيثُ هو؛ لأنَّ ذلك طبعه وجبلّته، ولو لم يكن إلا إرادته وعمله في تحصيل هذا الغرض بنفسه، وهما من جملة المساوي والدعاوي المحتاج إلى محوها.

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: ولن يصل الولي إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته، وتدبير من تدبيراته، واختيار من اختياراته، فلو خَلَّى الله تعالى عبده وذلك؛ لم يصل إليه أبداً؛ ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إليه، تولَّى ذلك له، بأن يُظهر له من صفاته العلية، ونعوته القدسية، ما يغيب بذلك صفات عبده ونعوته عنه، ويكون ذلك علامة على محبته له، كما أشار إليه بقوله في الحديث الصحيح: «فإذَا أحبَبْتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التي يَمْشِي بِها»[1]. وعند ذلك لا تكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده، فيكون حينئذ واصلاً إلى الله عز وجل بما مَنَّ الله تعالى إليه من الفضل والكرم، لا بما مَنَّ العبدُ إليه من الاجتهاد والعمل، فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء. انتهى.

وقال السيد الأهدل في شرحه: وكُلُّ نعتٍ من نعوتك أو وصفٍ من أوصافك إذا أقبل الحق عليك بمقابلةٍ من أسمائه وصفاته تلاشى كل وجودك في وجوده، فيُغَيِّبُك عن شهودك شهوده، فمن قوبل باسم الجلالة غرق في بحر الانفراد بالحق على نعت تفريد الحق.

قال في «العوارف»: فيغلب كون الحق سبحانه على كون العبد، ويُسَمَّى الفناء المطلق، وينقسم إلى: فناء الظاهر، وإلى فناء الباطن.

---

(١) الحديث تقدم تخريجه، وقد رواه البخاري في صحيحه (١١: ٢٩٣) في الرقاق باب التواضع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

فأمَّا الفناء الظاهر فهو: أن يتجلى الحق سبحانه بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياراته وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق، ثم يأخذ في المعاملة مع الله بحسبه.

والفناء الباطن: أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق فلا يبقى له هاجس ولا وسواس. وليس من ضروريات الفناء أن يغيب إحساسه، وقد تتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وقد يتسع وعاء صاحب الفناء حتى يكون متحققاً بالفناء روحاً وقلباً، ولا يغيب عن كل ما يجري من قول وفعل، ويكون في كل قول وفعل مرجعه إلى الله تعالى، وينتظر الإذن في كليات أموره، فيكون في الأشياء بالله لا بنفسه. انتهى.

والمراد بالفناء: فناء الحظوظ والمخالفات، وسقوط الاختيارات والبقاء مع الحق في رضاه، وموافقته في جميع الحركات والسكنات. والله أعلم.

ومن قوبل باسمه الرحمن: تعلق بوجود الرحمانية فِكْرُهُ من العوالم الحسية، وقوفاً مع شكر نعمه الابتدائية.

ومن قوبل باسمه الرحيم تمكَّن في باب التعلق به، حتَّى لمْ يُعَرِّجْ على حوائجه بضراعته لأحد من خلقه.

ومن قوبل باسمه الملك: رأى نفسه في قبضته، فسلَّم له في مملكته، وقام بحق حرمته على بساط خدمته. ثم قال: وهكذا إلى آخر أسماء الله كلها للتخلق إلا الجلالة فإنها للتعلق، فاعلم ذلك وتأمله، واطلب الفتح من الله فيه علماً وعملاً وحالاً، ولا طريق إلى تحقيق ذلك إلا بفتح الفتاح العليم، ولله در القائل:

بِـلا عَمَـلٍ منِّـي إليـكَ اكْتَـسَبْتُهُ سِوَى مَـحْضِ فَضْلٍ لا بشـيءٍ يُعَلَّلُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. انتهى ما ذكره الأهدل ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٠ـ (مَنَعَكَ أنْ تَدَّعِيَ ما ليسَ لكَ ممَّا للمخلُوقينَ، أفيُبِيْحُ لكَ أن تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وهُوَ رَبُّ العالَمِين؟).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادِّعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه، عَقْدًا أو قولاً؛ لأن ذلك منازعةٌ له وتكبرٌ عليه. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: الكِبْرِياءُ رِدائي، والعَظَمةُ إزارِي، فمَن نازَعَني واحِدةً مِنهُما ألقَيْتُهُ في النَّار»[1].

ومعنى المنازعة: الدعوى قولاً وعبارة، والإضمارُ فعلاً وإشارة.

وإذا كان الحق تعالى مانعاً لك ومحرِّماً عليك أن تدَّعي ما ليس لك مِـمَّا أعطى المخلوقين من الأموال، ومُسَمِّياً ذلك ظلماً وعدواناً، فكيف يُبِيْحُ لك أن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته»، والضمير يعود إلى الله تعالى، والتقدير: قال الله تعالى: (العز ردائي). ورواه أحمد في المسند (٢: ٣٧٦) وأبو داود رقم (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»، ورواه ابن ماجه (٤١٧٥)، وابن حبان (٤٩ موارد الظمآن) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الحاكم (١: ٦١) عنَ أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

تدَّعي وصفه وهو رب العالمين، لا شريك له لا أنت ولا غيرك، فهو إذاً من أعظم الظلم، وأشدِّ العدوان، عافانا الله تعالى من ذلك.

قلت: وهذا المعنى الذي ضمَّنَه المؤلف رحمه الله تعالى في هذه المسألة هو الغرض الأقصى الذي هو مرمى نظر الصوفية، وكُلَّما صنَّفوه ودونوه وأمروا به ونهوا عنه من أفعال وأقوال وأحوال إنما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف، والمقام المنيف.

فشأنهم أبداً إنما هو العملُ على موت نفوسهم، وإسقاط حظوظها بالكلية.

وهذا هو: كيمياء السعادة الذي أعوز أكثر النَّـاس، ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس؛ إذ بذلك يستحق المرء عبودية الله تعالى الذي لا مقام للعبد أشرف منه، كما قال الشاعر:

أَلسْتَ لي خَلَفاً منِّي كَفَى شَرَفاً … فما وراءَكَ لي قَصْدٌ ومطلـوبُ

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائقُ خطرات الحظوظ، وخفيَّات هواجس الهوى، وكُلُّ ما يقتضي بقاء حظ النفس وثبوتها من محبة المقامات، وإيثار الألطاف والكرامات ذنوبًا عظيمة، وأخلاقاً لئيمة، قادحة في صدق العبودية، والإخلاص للربوبية، يَتُوبون من جميع ذلك إلى ربهم، ويتعوَّذُون به من شره، ويخافون من مساكنته وملاحظته غاية البعد ونهاية المكر والطَّرد، كما قيل:

إِذَا قُلْتُ ما أَذْنَبْتُ قالت مُجِيبةً … وجُودُكَ ذَنْبٌ لا يُقاسُ بِهِ ذَنْبُ

انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: منعك أن تدَّعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين من الخصوصيات والكرامات والأحوال التي لم تكن لك، ولا

تلبست بها، ولا شهدتها، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين؟ لأن العبد إذا عميت عين بصيرته، لحظ مصدر الحركة والسكون والنفع والضر والعطاء والمنع والقبض والبسط لغير الله، فإن شهدها من نفسه كان مدعياً وصف الربوبية، مشاركاً لها، وإن شهدها من غيره واستند إليه كان ممن اتخذ إلهاً غيره من حيث لا يشعر، وهذا هو الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل، وإلى هذا أشار الأستاذ الشيخ رسلان رضي الله عنه: «كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِي، وما يبين لك توحيدك إلا إذا خرجتَ عنك»، وقد ذكرت معنى ذلك في غير هذا الكتاب وهو شرح حكمه رضي الله عنه.

وقال في موضع آخر ـ بعد قول المصنف رحمه الله تعالى: (كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً) ـ: اعلم أن الحق جَلَّ وعلا أوجد لك صفة ونعوتًا تُضَاهِي صفاته لتكون دليلاً عليه، وطريقاً إليه، لما روي: «من عرف نفسه عرف ربه»[1]، «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه»، وجميع ما وصفك به الحق وصف نفسه به؛ لأنه جلَّ وعلا وصفك بالحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر، والإدراك، وقد وصف نفسه بذلك فإنْ أنت علمت فاحذر أن تدَّعي وصفه فتكون من الهالكين، أي: لا تجعل لك وجوداً، ولا إرادة، ولا اختياراً، ولا علماً، ولا قدرة معه تعالى.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. قال الأستاذ في غير هذا الكتاب:

---

(١) ليس بحديث، وإنما يروى في الإسرائيليات: «يا إنسان: اعرف نفسك تعرف ربك»، وأخذه يحيى بن معاذ الرازي فذكره باللفظ المتداول فصار الحفاظ ينسبونه إليه. انظر كشف الخفا (٢: ٣٦٢) والأسرار المرفوعة (٣٥١).

قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، تنزيه لله تعالى أن يكون لهم الخيرة معه، وبينتِ الآية أنَّ منِ ادّعَى الاختيار مع الله فهو مشرك، مُدَّعٍ للربوبية بلسان حاله، وإن تبرأ من ذلك بمقاله. انتهى كلام الأستاذ.

وصفات النفس أمانة عندك، وأنت حاملها ومسؤول عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فإذا خرجت عن حولك وقوتك، ووجودك وإيجادك، وصرت مع الله تعالى ساقط الاختيار والإرادة، فقد أديت الأمانة، وصرت من أهل الولاية، وصار الحاكم عليك المولى القدير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحانه وتعالى. انتهى ما ذكره الحجازي ملخصاً.

قال رحمه الله تعالى:

١٣١ـ (تَحَقَّقْ بأوصافِكَ يُمِدَّكَ بأوصافِه، تَحَقَّقْ بذُلِّكَ يُمِدَّكَ بِعِزَّتِه، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدَّكَ بِقُدرتِه، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدَّكَ بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه).

قال ابن عباد في شرحه: قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها: أوصاف الربوبية، فما لك ولها؟ فالزم أوصافك، وتعلق بأوصافه، وقُلْ من بساط الفقر الحقيقي: يا غني: من للفقير غيرك؟ ومن بساط الضعف: يا قوي: من للضعيف غيرك؟ ومن بساط العجز: يا قادر: من للعاجز غيرك؟ ومن بساط الذل: يا عزيز: من للذليل غيرك؟ تجد الإجابة كأنها طوع يديك «واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين». انتهى كلام سيدي أبي الحسن رضي الله عنه، وهو معنى ما ذكره المؤلف رحمة الله عليه ها هنا. انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه: «فإذا تحققت بصفاتك، وخرجت عنها بما شهدته من صفات كماله، وذهب عنك لوث الصلصال، واضمحل ناسوتك، أمدك بنوره، وأفاض عليك نوراً من أشعات جلاله وجماله، فتجد الحق بالحق لا بنفسك، فحاصل كلام الأستاذ، والله أعلم: أنَّ كل من تحقق بصفة من صفاته عجزاً أو فقراً أو ذلة إلى غير ذلك، مع علمه بتحقق كمال صفة ربه التي هي ضد تلك الصفة؛ أمده بها، أي: ألبسه خُلعة من أنوار تلك الصفة، حتى يصير متحققاً بحقيقة لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذه نهاية العارف، والله أعلم.

فائدة نفيسة: اعلم: أنَّ كُلَّ صفة تثبت للعبد مما تختص به الأجسام، فإذا وُصف الله بذلك فذلك محمول على نهايات الأعراض، لا بدايات الأعراض، مثاله: أن الحياء حالة تحصل للإنسان، ولكن لها مبدأ ومنتهى، أما المبدأ فهو التغير الجثماني الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إلى القبيح، وأما النهاية فهي أن يترك الإنسان ذلك الفعل، فإذا ورد الحياء في الله تعالى فليس المراد منه ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته؛ بل المراد ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته، فهذا هو القانون الكلي في هذا الباب. انتهى ما ذكره الحجازي.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٢ـ (لا تَـمُدَّنَّ يَدَكَ إلى الأَخْذِ منَ الخلائقِ إلاَّ أنْ تَرَى أنَّ المُعطِيَ فيهم مَوْلاَك، فإذا كنتَ كذلِكَ فخُذْ ما وافَقَكَ العِلمُ).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين، **أحدهما:** رزقٌ يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرفات، كالتجارات والصناعات

وغيرهما، وهذا حال أهل الأسباب. **والثاني**: رزقٌ يصل إليهم على أيدي الخلق من غير عمل ولا سعي، وهذا حال أرباب التجريد.

وكل واحد من القسمَيْن له آداب وأحكام تخصه.

وأحكام القسم الأول وآدابه لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى ، وهي مذكورة في فن الفقه وغيره، فواجب على كل من دخل في شيء من الأسباب تحصيل علمه وطلبه من حيث هو.

وأحكام القسم الثاني وآدابه هي التي تعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى ، وأجمل جميع ذلك في مراعاة شرطَيْن وجعلهما من شروط صحة الأخذ:

الشرط الأول: أن لا يرى العطاء إلا من الله عز وجل، وهذا هو الأصل، وإنما اشترطه على الآخذ؛ لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد، وتخليص التجريد، وبه يصح له مقام القناعة والتوكل، ويسقط عن قلبه همّ الرزق، وتزول به عنه علاقات الخلق، وإن لم يكن على هذا الوصف كان عبداً للناس، مُولَّهاً قلبه إليهم، فيكثر طمعه فيهم، ورغبته فيما في أيديهم، واستشرافه إليهم، فيقع بسبب ذلك في كبائر الذنوب، من معاصي القلب والجوارح، مثل المداهنة، والنفاق، والرياء، والتصنع، والتلبيس، والغش، وعدم النصيحة، وقلة الشفقة، وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله تعالى.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وُكِلَ إلى المخلوقين».

ولا يكفي في تلك الرؤية المذكورة أن يكون علماً وإيماناً فقط؛ بل لا بد أن يكون حالاً وذوقاً.

وإنما اشترطنا في رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالاً وذوقاً؛ لأنَّ ذلك هو اللائق بحال المتجرد، كما ذكرناه؛ لأنَّ التجريد حال شريف لا يُدْخل فيه بالاختيار والتعمد؛ لأن ذلك من اتباع هوى النفس، وطلب الحظ والراحة.

وإنما يقيم الحقُّ تعالى فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة، بعد كمال شغله بالله تعالى وحده بالهرب من كل ما يقطعه عن الله تعالى، فحينئذ يسلبه الحق تعالى من تدبيره واختياره، ويكاشفه بوحدانيته في إيراده وإصداره، ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال.

قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه: «لا ينبغي للصوفي أن يتعرض للقعود عن الكسب إلا أن يكون رجلاً مغلوباً، قد أغنته الحال عن المكاسب، وأما من كانت الحاجات به قائمة، ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف، فالعمل أولى به، والكسب بسعي أحلُّ له وأنفع، والقعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلُّف.

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: «ما دامت الأسباب قائمة في النفس فالاكتساب أولى».

وقد اشترط رسول الله ﷺ: في صحة قبول العطاء عدم الاستشراف إلى الناس، ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرنا من أهل التجريد إلا بهذه الرؤية المذكورة.

روى زيد بن خالد الجهني[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من

---

(١) زَيْد بن خالد الجُهَنِيّ، يكنى أبا عبد الرحمن، وقيل: أبو زرعة، وقيل: أبو طلحة، سكن المدينة وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح. توفي بالمدينة، وقيل: بمصر، وقيل: بالكوفة، وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وهو ابن خمس وثمانين، وقيل: مات سنة خمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وقيل: توفي آخر أيام معاوية، وقيل: سنة اثنتين وسبعين وهو ابن ثمانين سنة، والله أعلم. (أُسد الغابة ٢: ٣٤٠).

جاءه معروفٌ من أخيه من غيرِ مسألةٍ ولا إشرافِ نفس فلْيقبَلْه، فإنه رزقٌ ساقه الله تعالى إليه»[١].

فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح في التوحيد، فلا ينبغي للمريد أن يأخذ عطاء على هذا الوجه، وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق، فلا يضره ذلك؛ لأنه خلق ضعيف ذو فاقة، ورزقه معلوم لا بد منه، فاستشرافه إلى الرزق في الحقيقة استشراف إلى الرزاق، ولا ينافي حقيقة العبودية.

الشرط الثاني: أن لا يأخذ إلا ما يوافق العلم، وهذا شرط لازم للمتجرد.

فموافقة العلم التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى على قسمَيْن: موافقة العلم الظاهر، وموافقة العلم الباطن، فأمَّا موافقة العلم الظاهر فإنه لا يأخذه إلا من يد بالغ عاقل تقي، وقد جاء في الحديث: «لا تأكُلْ إلّا طعامَ تقيّ، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلَّا تقيّ»[٢]، فلا يأخذه من يد ظالم، ولا عامل بالربا، ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب، ولا يأخذه من يد صبي ولا عبد غير مأذون لهما، ولا معتوه.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢٣٦٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٠٣) بألفاظ مختلفة. وروى البخاري بمعناه عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت عمر يقول: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: «خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك».

ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ: «من بلغه معروف عن أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه».

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤٨٣٢)، والترمذي في جامعه (٢٣٩٥)، وأحمد في مسنده (٣: ٣٨)، وابن حبان (١: ٣٨٣ إحسان)، والحاكم في المستدرك (٤: ١٢٨)، من حديث أبي سعيد بلفظ: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي». قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي.

وأما موافقة العلم الباطن فبأن لا يأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة، فلا يأخذ إلا ما هو مفتقر إليه في الحال، ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجاته، من غير إشراف ولا إقبال، ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك إن كان في خُلُقِهِ سخاوة وبذل وإيثار، وتخلَّق بمحاسن الإخلاص؛ لا ليتوسل به إلى حظ عاجل من جاه أو رئاسة، أو قبول عند الناس، ولا يأخذ من منَّانٍ ولا فخور، ولا مظهر لعطيته، ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته.

وكان الحسن رضي الله عنه يقبل من أصحابه، وقال بشر رضي الله عنه: «ما سألت أحداً قط شيئاً من الدنيا إلا سريّاً السقطي؛ لأني قد صح عندي زهده في الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده، ويستبرم ببقائه عنده، فأكون قد أعنته على ما يحبه».

وإن بلغت به الحاجات كل مبلغ، وأشرف على الضعف، وتحققت الضرورة، وسأل مولاه فلم يُقدِّر له شيئاً، ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب، ويسأل مَنْ دون هؤلاء، ممن جهل حاله.

جاء في الأثر: «من جاع فلم يسأل فمات دخل النار»[1].

وقد سأل من الناس عند الحاجة والفاقة نبي الله موسى والخضر عليهما

---

(١) لا أصل له، بل ورد ما يعارضه، فعند الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من جاع أو احتاج فكتمه الناس، وأفضى به، إلى الله كان حقاً على الله أن يفتح له قوت سنة حلالاً»، وعند أبي داود والترمذي، وابن أبي الدنيا في الفرج، والدولابي في الكنز، والحاكم، وأبي نعيم في الحلية وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»، هذا لفظ الترمذي وقال: حسن صحيح.

السلام لقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، وكان أبو جعفر الحداد[1]، وهو شيخ الجنيد رضي الله عنه، يسأل من باب أو بابَيْن، بين العشاءَيْن، ويكون ذلك مطعومه عند حاجته من يوم أو يومَيْن، وكان له رضي الله عنه مقام في الزهد والتوكل. قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: «ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص».

ونقل عن أبي سعيد الخراز[2]رضي الله عنه أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول: ثَمَّ شيء لله تعالى.

ونقل عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاثة أيام ليلة، وليلةُ إفطاره يَطلُبُ من الأبواب.

وليجتنب المريدُ الأكلَ بالدين وقبول إرفاق النسوان، فإن قيل: كيف يرد ما يُعطاه في الوجوه التي حكمتم عليه بعدم الأخذ فيها، وهو إنما يأخذ من يد ربه، وهل الرادُّ لذلك إلا رادّاً على الله تعالى، فكيف يستقيم ذلك؟

قال رحمه الله تعالى:

١٣٣ـ (الصَّلاةُ طُـهْرةٌ للقُلُوبِ مِن أدْناسِ الذُّنُـوب، واستِفتـاحٌ لِبابِ الغُيُوب).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]،

---

(١) لم أجد لأبي جعفر الحداد هذا ترجمة، وإنما وجدتها لأبي حفص عمر الحداد، وكانت سنة وفاته (٢٦٤هـ) تقريباً.

(٢) هو: الزاهد الكبير أحمد بن عيسى الخراز، أبو سعيد، شيخ الصوفية، صحب ذا النون ونظراءه. أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. قال الجنيد: لو طالَبَنا الله بتحقيق ما عليه أبو سعيد لهلكنا. مات سنة (٢٨٦هـ). (العبر ١: ٤١٢، حلية الأولياء ١٠: ٢٤٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفي الحديث الصحيح «إنَّما مَثَلُ الصَّلاةِ كمَثَلِ نَهْرٍ عَذْبٍ يَمُرُّ ببابِ أحدِكُم، يَقتَحِمُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسَ مرَّات، فما تَرَوْنَ ذلك، أَيُبْقي مِن دَرَنِهِ شيئاً؟»[1] ... الحديث.

«واستفْتاحٌ لِبابِ الغُيُوب»، إذ هي محل الإعراض عن الأغيار والغيوب، فمن وجد هاتَيْن العلامتَيْن من صلاته فليشكر الله عليها، وإلا فليبك على نفسه. قاله الأهدل في شرحه.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى في معناه: لأن القلوب إذا طَهُرت وتزكَّت رفع عنها الحجب والأستار، فرأت ما غاب عنها من الأسرار.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٤ـ (الصَّلاةُ مَحَلُّ المُناجاة، ومَعْدِنُ المُصافاة، تَتَّسِعُ فيها مَيادينُ الأسرار، وتُشْرِقُ فيها شَوارِقُ الأنوار. عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فقَلَّلَ أعْدادَها، وعَلِمَ احتِياجَكَ إلى فَضْلِهِ فكَثَّرَ أمْدادَها).

لأنَّ فيها يكون الثناء والدعاء له. والمناجاة: مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار.

«ومعدن المُصَافاة» وهي: زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك، حتى يصفو قلبك وسرك، فيصفو لك حينئذ شهوده ويمحو ذاتك وجوده. قاله ابن عباد.

---

(١) رواه بهذا اللفظ مالك في الموطأ (١: ١٧٤) بلاغاً، وإسناده منقطع، وقد رواه بنحوه البخاري في صحيحه (٢: ٩)، ومسلم (رقم ٦٦٧)، والترمذي (رقم ٢٨٧٢)، والنسائي (١: ٢٣١) من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم (رقم ٦٦٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقال الحجازي في شرحه: لأنها خلوة الصادق مع الله، والخلوة عندهم: هي محادثة السر مع الحق حين لا ملك ولا أحد.

«تتسع فيها ميادين الأسرار»، وهي: قلوب العارفين، (وتشرق فيها شوارق الأنوار) وهي وجود الهداية والتوفيق للأدب والمعرفة، والخشوع، ولا سبيل إلى وصولك إلى الغيوب وتجليها عليك إلا بعد التلاشي والاضمحلال عن كل ما سوى الحق، هناك تستولي على لطيفة عرش قلبك الأنوار، ويكشف لك من الغيوب بحسب ما فتح عليك به من النور. قاله الحجازي رحمه الله تعالى في شرحه.

وقال ابن عباد: وهذه العبارات الست معانيها متقاربة؟ ولما كانت هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف من فوائد الصلاة، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها، كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجود الصلاة؛ فإنَّ الصلاة المعتبرة إنما هي صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين التي لا تنهض إلى بلوغ هذه المقاصد السنيَّة؛ ولذلك كانت الصلاة أمَّ العبادات وأساس الخيرات. قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فأخبر أنَّ المراد من الصلاة: الذكر.

وفي بعض الأخبار: «أنَّ العبدَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ رفعَ اللهُ الحُجُبَ بينَهُ وبينَه، وواجهَهُ بوجهِهِ الكريم، وقامَتِ الملائكةُ مِن لَدُنْ مَنْكِبَيْهِ إلى السَّماءِ يُصَلُّونَ بصَلاتِه، ويُؤَمِّنُونَ على دُعائِه، وأنَّ المُصلِّيَ لَيُنْثَرُ عَلَيْهِ البِرُّ من عَنَانِ السَّماءِ إلى مَفرِقِ رأسِه، ويناديهِ مُنَادٍ: «لو يَعلَمُ المَنَاجِي مَن يُناجي ما انفتل»[1]، وأن أبواب السماء

---

(١) أي: ما خرج من صلاته. لم أعثر عليه، لكن ذكره الغزالي في الإحياء، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: لم أجده.

تفتح للمصلي، وأن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين»[١].

وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه: حُدِّثت أنَّ المؤمن إذا توضَّأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرض خوفاً منه؛ لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا كبَّر حُجب عنه إبليس وضُرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه الكريم، فإذا قال: الله أكبر، اطَّلع الملَك على قلبه، فإذا ليس فيه أكبر من الله؛ فيقول الملك: صدقت الله أكبر في قلبك كما تقول. فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فينكشف له بذلك النور ملكوتُ السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات، قال: وإنَّ الغافل والجاهل إذا قام إلى الصلاة احتوشته[٢] الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملَك على قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فقال الملك: كذبت فليس الله أكبر في قلبك كما تقول. قال: فيثور من قلبه دخان يلحق عنان السماء، فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت، قال فيرد ذلك الحجاب صلاته، وتلتقم الشياطين قلبه، ولا تزال تنفخ فيه، وتنفث، وتوسوس إليه، وتزين له، حتى ينصرف من صلاته، لا يعقل ما كان فيه. انتهى.

* * *

(١) رواه ابن حبان في كتاب الضعفاء من حديث عباد بن كثير الرملي، عن حوشب، عن الحسن، عن أنس بن مالك.

(٢) أي: أحدقوا به وتجمعوا عليه.

باب بيان قرب الله تعالى من المخلوقات

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧].

فإذا استشعر العبد قرب الحق سبحانه منه أثمر له دوام المراقبة، وهي أصل عظيم من أصول التقوى، وقد نبه الله سبحانه عليها في كتابه المجيد. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وقال ﷺ في حديث جبريل حين سأله عن الإحسان قال: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاك»، قال: «صدقت..»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وابن حبان (١٥٩).

فقال: «يا غُلام، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلِماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْك، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تِجَاهَك[1]، إذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ الله، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ بالله»... الحديث[2].

وفي بعض كتب الله المنزلة يقول سبحانه وتعالى: «يا عبادي، إن كنتم لا تعلمون أني أنظر إليكم فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعلمون أني أنظر إليكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين؟».

وما أحسن قول القائل:

كُنْ حَيِيّاً إذَا خَلَوْتَ بِذَنْبٍ ... لَيسَ يَخْفَى علَى الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ

أَتَهاوَنْتَ بالإِلهِ تَعَالَى ... وتَوارَيْتَ عَن عُيُونِ العَبِيدِ

أَقَرَأْتَ القُرْآنَ أم لستَ تَدْري ... أنَّ مَوْلاكَ دُونَ حَبْلِ الوَرِيدِ

وقال الفضيل بن عياض: يا مسكين! تغلق بابك، وترخي سترك، وتستحيي من الناس، ولا تستحيي من المَلَكَيْنِ اللذَيْنِ معك، ولا تستحيي من القرآن الذي في صدرك، ولا تستحيي من الجليل سبحانه وهو لا تخفى عليه خافية.

وقال فَرْقَدٌ السبخي[3]: إنَّ المنافق لينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء،

(١) هو في الأول بمعنى: احفظ أوامره ونواهيه بامتثال الأولى واجتناب الثانية، وفي الثاني بمعنى: المراقبة، ولا تغفل عنه. مؤلف.

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني في الأوسط (٥٤١٧).

(٣) هو: فرقد بن يعقوب السبخي البصري، أبو يعقوب، من سبخة البصرة، وقيل: من سبخة الكوفة. قال ابن الجوزي: شغله التعبد عن حفظ الحديث؛ فلذلك يعرض النقلة عن حديثه، مات في أيام الطاعون بالبصرة سنة (١٣١هـ). (حلية الأولياء ٣: ٤٤، وصفة الصفوة ٣: ٢٧١، وتهذيب التهذيب ٤: ٤٨٣).

وإنما يراقب النّاس من لا يراقب الله عز وجل، وإن المؤمن يعلم أن الله يراه، ويعلم سره ونجواه، فقلبه دائماً بين يدي الله عز وجل.

وقد قال العلماء رحمهم الله تعالى: معنى المراقبة: أن يعلم العبد بأن الله تعالى يعلم ويسمع ويرى جميع أفعاله وأقواله وأحواله وخواطره وإراداته وتقلباته، فإذا حصل العلم بذلك في القلب، وتوالى فلم تعقبه غفلة، وقوي فلم تغلب عليه جهالة، أثمر الحياء والهيبة والتعظيم للمولى، فالعبد حينئذ مراقب.

قال ذو النون المصري: وعلامة المراقبة: إيثار ما آثر الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال السيد عبد الله الحداد في رسالة المعاونة: واعلم: أن المراقبة من أشرف المقامات، وأشرف المنازل، وأعلى الدرجات، وهي: مقام الإحسان المشار إليه بقوله عليه السلام: «أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنكَ تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَـرَاهُ فإنهُ يَـرَاك»، وكلُّ أحدٍ من المؤمنين يؤمن بأن الله لا يخفى عليه شيء من حركاته وسكناته؛ ولكن الثبات في دوام هذا المشهد، وحصول ثمرته التي أقلها أن يعمل فيما بينه وبين الله عملاً يستحيي أن يراه عليه رجل من الصالحين، وهذا عزيز وما وراءه أعزُّ منه إلى أن يصير العبد في آخر الأمر مستغرقاً بالله، وفانياً به عمن سواه، قد غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، والتحق بمقعد صدق عند مليك مقتدر. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٥ـ (الحقُّ ليسَ بِمحجُوب، وإنّما المحجُوبُ أنتَ عنِ النَّظَرِ إلَيْه، إذْ لو حَجَبَهُ شيءٌ لَسَتَرَهُ ما حَجَبَه، ولو كان لهُ ساتِر، لكانَ لِوُجُودِهِ حَاصِر، وكلُّ حاصِرٍ لِشيءٍ فهُوَ لهُ قَاهِر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]).

لأنه تعالى حجبك بشهود ظهوره، فكانت شدة ظهوره سبباً لخفائه عن الأبصار؛ لأن البصر فانٍ، والفناء لا يدرك البقاء. قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فوجودك حجبك عن النظر إليه بما تراكم على بصيرتك من العيوب العارضة، وما لازم بصرك من العيب اللازم الذي هو الفناء الحسي الذي لا يرتفع إلا في الدار الآخرة؛ فلذلك الرؤية موقوفة عليها، وإلا فالحجاب على الله تعالى محال؛ لأنَّ الحجاب في الحقيقة هو المانع، وهذا المانع إنما يقع على المحجوب، والحق جلَّ وعلا منزَّه متعال أن يستره حجاب «إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر» والقاهر للمقهور مالك، ولا يصح أن يكون مالك لشيء غيره سبحانه. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] فوقيةً تليق بجلاله، لا فوقية تزيده قرباً إلى العرش والسماء؛ بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما هو رفيع الدرجات عن الثرى، قيل لبعضهم: كيف يُرى الله في الدار الآخرة؟ قال: يُرِي نَفْسَهُ مخلوقاتِه، وليس في جهة من نفسه ولا مخلوقاته. انتهى من شرحي الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

وقال ابن عباد: الحجابُ على الحق تعالى مُحَال، واستدل المؤلف رحمه الله تعالى على ذلك بما ذكره، وهو بيِّنٌ لا إشكال فيه، والحجاب على العبد واجب من حيثُ ذاته؛ إذ هو عدم كما تقدم، ولا نسبة بين العدم وبين الوجود، فإذا أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمَّن شاء، كيف شاء، ومتى شاء، رأى مَن ليس كمثله شيء، وهذا ممّا يجب اعتقاده. انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٦ـ (كانَ اللهُ تَعَالَى ولا شيءَ معَهُ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كان).

كينونة لا يصحبها الزمان، ولا يقيدها وجود الأكوان، بل الأزمنة ها هنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق.

فلم يَبْقَ إلّا الحَقُّ لم يَبْـقَ كـائنٌ   فما ثَمَّ مَوصُولٌ وما ثَـمَّ بَـائنُ
بِذا جاءَ بُرهانُ العَيَانِ فلا أرَى   لِعَيْنِـيَ إلّا عَيْنَـهُ إذْ أُعَـاينُ

كذا في شرح الأهدل.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٧ـ (العَجَبُ كلُّ العَجَبِ ممَّن يَهرُبُ ممَّن لا انفكاكَ لهُ عَنهُ، ويَطلُبُ ما لا بقاءَ لهُ معَهُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]).

وهو مولاه الذي مَنَّ عليه بكل خير وأولاه؛ لأنه تعالى قيوم، والقيوم من دام بحجابه وقدسه، وكان قيام كل شيء به، وقوامه هو بنفسه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، ولا ملجأ منه إلا إليه «ويطلب ما لا بقاء له معه»، وهو: ما يوافق النَّفْس من شهواته وهواه، وذلك نتيجة عمى القلب، ووجود جهله بربه؛ لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني الذي لا بقاء معه على الباقي الذي لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة لآثر الباقي على الفاني. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، أي: تعمى البصائر عن درك الحقائق، فيعود الضرر على البصيرة، وأسباب ذلك ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله تعالى، والتصنع بطاعة الله، والطمع في

خلق الله، فعند عمى البصيرة يتوجه العبد للخلق، ويعرض عن الملك الحق. انتهى من شرح ابن عباد والأهدل.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه عند قول المؤلف رضي الله عنه: (شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمكَ ولا وجودك).

اعلم أن البصيرة هي عينُ القلب، وهي الوجهة التي تلي الحق؛ لأن كل إنسان له وجهتان: وجهة إلى نفسه، ووجهة إلى ربه، ولها نسبة ومضاهاة بعين الشمس الفلكية، فإذا بزغت عين البصيرة في ملك العقل أشرق ضوؤها في سماء الحواس، فيظهر شعاعه بأرض البدن، فيشهدك قربه منك؛ لأنك أَوَّلاً كنت في ظلمة الحواس، فلمّا أبرق عليك نور الهداية شهدت قربه بنور الإيمان، وهو شعاع البصيرة، وأما قوله: (وعين البصيرة) وهي بمثابة الناظر في العين الإنسانية، يشهدك عدمك لوجوده؛ لأنك في الوطن الأول كنت مع وجودك ونفسك، فشهدت قربه منك بنور استدل به العقل بعد أن انكشف عنه ظلمة الحواس، فلما انتقلت من عالم نفسك وعقلك إلى عالم روحك وسرك فنيت عن نفسك بما شهدت من وجود ربك؛ لأن عالم الأرواح من عالم الغيب، وعين البصيرة في عالم الغيب الملكوت، ولا سبيل إلى الاتصال بعالم ملكوت الله إلا بعد الفناء عما سوى الله، ومن فني عما سواه وجده؛ ولهذا كانت عين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده، لأنَّ عين البصيرة ـ والله أعلم ـ هي في المكاشفة، والمكاشفة عندهم هي: اطلاع البصيرة بنور اليقين على مكنون ملكوت الغيب. وهذا التعريف قاله الأستاذ الكبير سيدي محمد أبو الوفا رضي الله عنه.

وأما قوله: (وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) فنقول: حق البصيرة غايتها.

وقال الأستاذ الكبير سيدي محمد أبو الوفا[1] رضي الله عنه: غاية البصيرة النظر إلى الحق من الوجه الذي ينظر هو إليه منه. انتهى.

المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر به إليه، وذلك لا يحصل إلا بعد مقام الفناء، وهو: اضمحلال ما دون الحق علماً، ثم عيناً، ثم حقاً، فإذا صار العبد بلا كون صار مجموعه حق البصيرة، وهذا مقام البقاء بالله، وهذه الحالة ليس للعبد فيها وجود ولا عدم؛ لأن مقام البقاء أتم لما بقي بعد فناء الشواهد، وعدم المراتب، فإذا تحقق العبد بحقيقة الفناء ـ وهو أن يفنى عن الفناء حتى لا يشهد الفناء ـ بقي بالواحد الأحد الذي لا يفنى. انتهى ما ذكره الحجازي، وإنما أوردته هنا لما فيه من المناسبة للآية الكريمة.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٨ـ (أنتَ معَ الأكوانِ ما لم تَشهَدِ المُكَوِّنَ، فإذا شَهِدتَهُ كانتِ الأكوانُ معَك).

---

(١) هو: محمد بن أحمد أبو الفتح بن أبي الوفا، وهو بكنيته أشهر، الشاذلي المالكي؛ ولد بالقاهرة سنة (٧٩٠هـ). أخذ عن العز بن جماعة والبساطي وغيرهما، وأخذ التصوف عن عيسى المغربي. وتكلم على الناس بعد عمه سيدي علي، ولم يكن في بني وفا حينئذ أعلم منه، حضر مجلسه الأكابر. مات سنة (٨٥٢هـ). ومن نظمه:

الـروح منـي في المحبـة ذاهبـةْ فاسمَحْ بوصل لا عدِمتُك ذا هبةْ

(الضوء اللامع ٧: ٩٢ - ٩٣، والكواكب الدرية ٣: ١٩٣).

قال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: لأنك إذا كنت محجوباً بنفسك فلا يخلو حالك من أمرَيْن؛ إمَّا أن تكون طالباً للدنيا وشهواتها ولذاتها، أو طالباً للآخرة وشهواتها، وهذه كلها أسباب تؤدي لعمى البصيرة، وانطماس أنوار السَّريرة، إذ كلتا الحالتَيْن فيهما حظ نفس، وإن كان طلب الآخرة ممدوحاً؛ لكن العبد إذا كان معه نفس وكان طالباً على عمله الجزاء والأجر وكان مع الأكوان، بخلاف من هو طالب الله تعالى بالله، قد انحل من وثاق الأكوان الدنيوية، وتجلى لقلبه رب البرية، فشهده به، واضمحلت الأكوان عنده، «فإذا شهدته كان الأكوان معك» من غير نظر منك إليها؛ لأن من حَصُلَ له اللهُ تعالى حصل له كل شيء، ومن فاته فاته كل شيء، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، ألا ترى إلى أهل الكشف والمشاهدة لما عبدوه على موافقة إرادته لوجهه الكريم كان جزاؤهم النظر إلى وجهه الكريم، ومجاورة رب العالمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: فرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك، فإن كونك مع الأكوان يقتضي تقييدك بها، وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها، ثم هي خاذلتك ومُسْلِمَتُك أحوج ما تكون إليها، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكوِّن، وكونُ الأكوان معك يقتضي مِلكك لها، واستغناءَك عنها، فأنت حينئذ حرٌّ عنها، وهي محتاجة إليك، وخادمة لك، ومتبركة بك، حتى الجمادات والحيوانات. وهذه حالة نفسية يقتضيها شهودك للمكون. انتهى.

قال محمد بن المبارك[1] رضي الله عنه: كنت مع إبراهيم بن أدهم رضي الله

(١) هو: العابد الزاهد الراكع الساجد محمد بن المبارك الصوري، كان سمته صحيحاً وخلقه شحيحاً، أسند عن الأعلام والأثبات، وروى عن الأكابر الثقات. من كلامه: أعمال الصادقين بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح. وقال: من ألزم نفسه شيئاً لا يحتاج إليه ضيع من أحواله ما يحتاج إليه. (الكواكب الدرية ١: ٤٨٧).

عنه في طريق بيت المقدس، فنزلنا وقت القائلة تحت شجرة رمان، فصلينا ركعتين، فسمعتُ صوتاً من أصل الرمان: يا أبا اسحق: أكرمنا بأن تأكل شيئاً، فطأطأ إبراهيم رأسه، فقال ثلاث مرات، ثم قال: يا محمد: كن شفيعنا إليه ليتناول منا شيئاً، فقلت: يا أبا اسحق: لقد سمعت، فقام وأخذ منها رمانتين فأكل واحدة وناولني الأخرى فأكلتها، وفي هذه الحكاية: أن الشجرة كانت قصيرة ورمانها حامض، وأنها تطعم في كل عام مرة، فَعَلَتْ وارتفعت وحلا رمانها وصارت تطعم في كل عام مرتَيْن.

وكانت السباع تأتي سهل بن عبد الله رضي الله عنه، فيدخلهم بيتاً عنده ويضيفهم، ويطعمهم اللحم.

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو في بستان يحفظه، وقد أخذه النوم، وإذا حية في فيها طاقة نرجس تروحه بها[1].

هكذا حال من كان عظيم الهمة شريف الإرادة والنية، لا يسكن إلى أحد من المخلوقات، ولا يوطن نفسه على شيء من المصنوعات، يتكفل الله تعالى بأمره، ويجعل الكون خادماً له بأسره، رزقنا الله تعالى ما رزقهم، ووفقنا لما وفقهم بجوده وكرمه، آمين. انتهى.

---

(١) وقد ورد من هذا القبيل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن الحيوانات ذُلِّـلت لهم وائتمرت بأمرهم، فقد ذكر ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» (١: ٦٧١ - ٦٧٢) في ترجمة أبي عبد الرحمن مهران مولى رسول الله ﷺ الذي سماه رسول الله ﷺ: «سفينة»: أنه ركب سفينة في البحر فانكسرت بهم، قال: فتعلقت بشيء منها حتى خرجت إلى جزيرة فإذا فيها الأسد، فقلت: يا أبا الحارث، أنا سفينةُ مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه، حتى يدلني على الطريق. فلما خرجت إلى الطريق هَمْهَمَ، فظننت أنه يودعني، رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

١٣٩ـ (مَن عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كلِّ شيء، ومَن فَنِيَ بِهِ غابَ عَن كلِّ شيء، ومَن أَحَبَّهُ لم يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شيئاً).

خلاَّقاً، رزَّاقاً، فعَّالاً، محرِّكاً لكل شيء، فلا يستوحش من شيء، ويستأمن به كل شيء، كما تقدم من نعت العارفين[1]؛ لأنه تعالى خالق الخلائق، ومحركهم بغير علائق، كلٌّ منهم فيما هو به لائق.

«ومن فني به غاب عن كل شيء»، إذ لو عقل شيئاً ما أطلق عليه اسم الفناء ولا شهده، إذا الفناء: اضمحلال ما دون الحقِّ علماً ثم عيناً ثم حقاً، وحينئذ فلا يكون منه على الأشياء اعتماد، ولا له إليها استناد.

«ومَن أَحَبَّهُ لم يؤْثِرْ عليه شيئاً» من مراداته وشهواته لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن من أحب الله لم يكن عنده متسع لغيره، ولا التفات لشيء سواه، والمحبة أعلى المقامات وأجلها، وهي نتيجة مشاهدة المحبوب ورسوخ اليقين، إذ المشاهدة اليقين من غير شك، وهذه الأمور التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى هي من علامات بلوغ هذه المقامات العلية، وبها تصح وتكمل، فمن لم يجدها في نفسه

---

(١) المعرفة: تحقق العلم بجلال الله في سير العارف على قدر ما فتح له. والشهود: ملاحظة معنى المعرفة في الوجود حتى كأن المعرفة نصب عينه. والفناء: رؤية الحقِّ بلا خلق لما يبدو من جلاله الذي يضمحل معه وجود كل شيء. والغيبة: الاشتغال عن الشيء بوجه لا يمكن معه الشعور به. وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عملَه غيرَ محبوب، وإنما أخفى القوم أعمالهم للاكتفاء بنظر مولاهم ظاهراً كما اكتفوا به باطناً وإن كانوا سالمين من آفات الإظهار، فافهم. ثم وجود المعرفة إنما ينتهي بمحض الإجلال وإلا فبحر العزة والجلال لا يدرك، وإن كان ظهوره أجل من الشمس الضاحية. كذا رأيته في بعض الهوامش لبعض الشروح في هذا الموضع.مؤلف.

فلا ينبغي أن يدعي تلك المقامات، وليعمل على مجاهدة نفسه فيها يصححها ويكملها. انتهى من شرحي ابن عباد والحجازي رحمهما الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

١٤٠- (إنَّما حَجَبَ الحقَّ عَنكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنك).

وهو تصرفه فيك، إذ الذي شغلك بالصرف والجلب هو تعالى، فإذا انْفَصَلَتْ عنك تشهده به، لا بك، فحينئذ تكون مؤمناً حقاً، وما دُمْتَ مع نفسك فأنت محجوبٌ بها عن مشاهدة قربه منك. ذكر ذلك الأهدل والحجازي.

وقال ابن عباد في معنى ذلك: شدة القرب حجابٌ، كما أن شدة البعد حجابٌ؛ لأنَّ شدَّة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك، والمضمحلُّ الذاهب لا مناسبة بينه وبين الثابت الموجود، فكيف يراه؟!

قال في «لطائف المنن»: فعظيم القرب هو الذي غيب عنك شهود القرب.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: حقيقة القرب أن لا تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشمُّ رائحة المسك، فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، ولما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه، وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تُـمَوِّهُ بالشِّعبَيْنِ والعَلَـم ... والأمرُ أوضَحُ مِن نَارٍ على عَلَم
أَرَاكَ تَسألُ عَن نَجْدٍ وأنتَ بِهـا ... وعـن تِهامـةَ هـذا فِعْـلُ مُـتَّهَم

انتهى.

قال رحمه الله تعالى:

١٤١- (إنَّما احتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِه، وخَفِيَ عنِ الأبصارِ لِعظيمِ نُورِه).

فكأن شدة ظهوره سبب لخفائه، إذ ليس حجاب عنه إلا المظاهر المشغلة عن الإقبال عليه، (وخفي عن الأبصار لعظيم نوره) الذي هو وجود ظهوره.

قال ابن عباد: هذه عبارة قد تداولها الناس، وضربوا لمعناها مثالاً بالشمس؛ وذلك أنَّ الشَّمْسَ نورُها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة، وقوة نورها هي التي حجبت الأبصار الضعيفة عن أدارك كنهها، فقد صار ظهورها الذي أوجبه وجود نورها حجاباً لها، وليس الحجاب على الحقيقة منها، فإن الظاهر لذاته لا يُحجب من ذاته، وإنما الحجاب عليه من غيره.

والحجاب ها هنا: ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور، فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظم نوره، وأنشدوا:

لقد ظَهَرْتَ فلا تَخْفَى علَى أحَدٍ ... إلاَّ علَى أكْمَهٍ[1] لا يَعْرِفُ القَمَرَا

لكِنْ بَطَنْتَ بما أظْهَرْتَ مُحْتَجِباً ... وكيْفَ يَعْرِفُ مَن بِالعِزَّةِ اسْتَتَرا

وأنشدوا أيضاً:

بالنُّور يَظهَرُ ما تَرَى مِن صُورةٍ ... وبِهِ وجُودُ الكائناتِ بلا امْتِرَا

لكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ ... حِسّاً ويُدْرِكُهُ البَصِيْرُ منَ الوَرَى

فإذا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لم تَجِدْ ... شيئاً سِوَاهُ علَى الذَّوَاتِ مصوَّرا

وإذا طَلَبْتَ حقيقةً مِن غَيْرِهِ ... فبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزالُ مُعَثَّرا

انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: اعلم: أن الحق تعالى ظاهر متجلٍّ للقلوب والسرائر بالأنوار، وللظواهر بوجود الآثار أي: آثار صنعه وقدرته،

---

(١) الأكمه: هو الذي يولد أعمى خلقة.

فهو أقرب إليك منك، حاضر معك ناظر؛ لأنه تعالى لو احتجب عن العالم طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة؛ ولكن لَمَّا اختفى عن الأبصار لشدة ظهوره، وضعفت الإدراكات عنه لعظيم نوره، يسمى ذلك الظهور حجاباً، ولك مثال ظاهر في الكون، وهو: ضعف بصر الخفاش عن إدراك نور الشمس، مع أنها ظاهرة غير محجوبة، وإنما احتجب عنه لضعف بصره، فهو لا يبصر إلا في ظلمة الليل وذهاب النور، كذلك أنت لما ضعف بصرك وبصيرتك عن إدراكه لشدة ظهوره وعظيم نوره صرت تعشو في ظلمة ليل الطبيعة، وليس لك براح من هذا الموطن إلا بعد كشف الغطاء عن عينك، وهو غطاء الوهم والخيال، فإذا أراد الله تعالى أن يختص عبداً من عباده بشيء من الأنوار الربانية والمعارف الإلهية، أمده بنور من نوره، فأذهب ذلك النور ظلمة الطبيعة، وأشعل مصباح البصيرة من نور اليقين، فأدرك النور النوارني، أي: أدرك بنور الإيمان واليقين نوراً أغناه عن الدليل والبرهان، ولهذا المعنى أشار الأستاذ في غير هذا الكتاب بقوله: «إن المعرفة العيانية، تغني عن المعرفة البرهانية»، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فأهل الكشف والعيان جعل الله لهم قوة نورانية في بداياتهم، واستغنوا في تحصيل المطلوبات بإدراك بصائر أهل الدليل والبرهان عن مواهب أهل الكشف والعيان، كما ضعف إدراك أبصار الخفافيش عن نور الشمس. والله تعالى أعلم بالصواب. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٤٢ـ (تَطَلُّعُكَ إلى بقاءِ غيرِهِ دليلٌ علَى عَدَمِ وِجْدانِكَ لهُ، واستِيحاشُكَ بِفُقدانِ ما سِواهُ دليلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلَتِكَ به).

«تَطَلُّعُكَ إلى بَقَاءِ غَيْرِهِ» أي: من الواردات والأحوال «دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ

وِجْدانِكَ لهُ» إذ لو وجدته كنت تكتفي به عن غيره، (واستِيحَاشُكَ بِفُقْدانِ ما سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلَتِكَ بِهِ)؛ لأنَّ المستأنسَ به لا يستوحش بوجود شيء ولا بفقده، فأفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. قال عليه السلام: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ»(١).

فمن كان همه غير الله كان مطلبه ووبالاً عليه، ومن استوحش مما سواه كان دليلاً على وقوفه وبقاء حظه معه، وعدم وصله به؛ لأن من رضي بما سواه كان حجابه عنه، وقيل: إنَّ بعضهم سُئِلَ عن أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى، فقال: أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره. انتهى. من شرحي الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

قال رضي الله عنه:

١٤٣ـ (ما تَجِدُهُ القُلُوبُ منَ الهُمُومِ والأَحزان، فلأجْلِ ما مُنِعَتْ مِن وُجُودِ العَيَان).

إذ لو عاينَتْ جمال الفاعل لحل عنها ألم البعد، كما اتفق في قصة النسوة ﴿ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]. حُكِيَ: أنَّ شاباً ضُرِبَ تسعةً وتسعين سوطاً فما صاح ولا استغاث ولا تأوَّه فلمَّا ضُرِبَ الواحدة التي كملت بها المائة صاح واستغاث، فتبعه الشبلي رضي الله عنه، فسأله عن أمره، فقال: العين التي ضربت من أجلها كانت تنظر إِلَيَّ في التسعة والتسعين، وفي الواحدة حجبت عني.

فإذا كانت مشاهدة الحبيب الفاني تذهب ألم الأبدان وحزن القلوب، فما بالك بمن شاهد القريب المجيب؟! انتهى من شَرْحَيِ الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦)، وابن ماجه (٣٧٥٧) عن أبي هريرة.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: وجدان الهموم والأحزان الدنيوية من نتائج رؤية النَّفْسِ، واعتبارها، وبقاء حظها، وهو الذي منع العبدَ من وجود العيان، فلو فني عن رؤية نفسه، وذهب عن مراعاة حظِّه؛ لظفر بوجود العيان، ولم يكن له هَمٌّ ولا حزن البتة؛ بل يكون متصل الحُبور، دائم الفرح والسرور، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فالمعيَّة المذكورة لا يجتمع معها حزن، وهي ما قلناه من وجود العيان. والعيان ـ والله أعلم ـ درجة فوق درجة اليقين، كما قال الشاعر:

كَبُرَ العيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ ... صَارَ اليَقِينُ منَ العَيَانِ تَوهُّما

قال الشبلي رضي الله عنه: «مَن عرف الله تعالى لا يكون له غمٌّ أبداً»، فاستنارةُ القلب بنور المعرفة، واحتظاؤه بوجود العيان والرؤية، يخرج منه الهمَّ، ويحل محلَّه الروحانية، على أن في وجود الهموم والأحزان ـ لمن لم يبلغ هذا المقام، إذا لم يقدر على دفعها عن نفسه ـ فوائد جليلة جزيلة، لا ينبغي أن تستحقر، من قِبَل إنها موجبةٌ لخمود النفس، وصفاء القلب، وزوال الأشر والبطر، والفرح بالدنيا، ثم هي كفَّاراتٌ إنْ كانت في الأمور الدنيوية، ودرجاتٌ إن كانت في الأمور الأخروية.

والهم متعلق بما يكون في المستقبل، والحزن بما يكون[1] في الماضي. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٤٤ـ (مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبالِ النّاسِ عَلَيْكَ بِالبِرِّ والمَدْحِ والإكرام، أو تَوَجُّهُهم بالذّمِّ إليك فارْجِعْ إلى عِلْمِ اللّهِ فِيك، فإنْ كان لا يُقْنِعُكَ عِلمُه، فمُصِيبتُكَ بِعَدَمِ قَناعتِكَ بِعِلمِهِ أَشَدُّ مِن مُصِيبتِكَ بِوُجُودِ الأذى مِنهُم).

---

(١) في نسخة: كان.

«مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إقبالِ النَّاسِ عَلَيْكَ بالبِرِّ والمَدْحِ والإكرام، أو تَوَجُّهُهُم بالذَّمِّ إلَيْك» وذلك لضعف اليقين، ولعدم الصدق في حال التمكين، «فارْجِعْ إلى عِلْمِ اللّـهِ فيك» فلك فيه قنع وغنى عن الكونَيْن، فإن علم منك ما يواجهونك به، فاجهد على ستره إياك عن ما يوجب نقصك عندهم؛ لكن حكمك في الأول شهود المنة فقط، وفي الثاني وجود الاستغفار والتوبة، «فإنْ كانَ لا يُقْنِعُكَ عِلمُهُ» فيك، بواسطة حبك لنفسك، فذلك عين البعد الناشئ عن الكبر، وصحَّ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[١]، والكبر: ثمرة العجب، ومن أعجبته نفسه وأحوالها لا يصفو له قدم في العبودية، فهو لا ينتفع بعلم الله فيه، وإذا كان الأمر كذلك «فمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَناعَتِكَ بِعِلمِهِ أَشَدُّ مِن مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأذى مِنهُم» فيك؛ لأن وجود الأذى من العباد فانٍ يترتب عليه ثواب باق، وعدم قناعتك بعلم الله فيك يطفئ نور قلبك، وسكون قلبك إلى قبول المدح أشد عليه من المعاصي، ومن استوى عنده الذم والمدح من العباد لوجود فنائه بالله عنهم كان ذلك دليلاً على قُرْبِهِ من الله تعالى وبُعده عن أحوالهم، وذلك عين الكمال.

قال إبراهيم التيمي[٢] رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيَّ؟

---

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتمام الحديث: فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بطر الحق ـ يعني: رده ـ وغمط الناس». ورواه الترمذي والبيهقي في الأسماء والصفات، وغيرهم.

(٢) هو: إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، الإمام القدوة الفقيه، عابد الكوفة، كان شاباً صالحاً قانتاً لله، عالماً فقيهاً كبير القدر، كان إذا سجد كأنه جذم حائط، يتحرك على ظهره العصافير، يقال: قتله الحجاج، وقيل: مات سنة (٩٢هـ) ولم يبلغ الأربعين. (سير أعلام النبلاء ٥: ٦٠، وتهذيب التهذيب ١: ١٧٦). =

فقال: يقولون: إنَّكَ مُراءٍ، فقال: الآن طاب العمل. انتهى. من شرحي الأهدل والحجازي رحمها الله تعالى.

قال رضي الله عنه:

١٤٥ ـ (إنَّما أَجْرَى الأذى عَليكَ مِنهُم كي لا تكُونَ ساكِناً إليهم، أرادَ أنْ يُزعِجَكَ عَن كلِّ شيء؛ حتَّى لا يَشغَلَكَ عَنهُ شيء).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: وجود أذى النَّاس للعبد نعمة عظيمة عليه، لا سيما ممن اعتاد منه الملاطفة والإكرام، والمبرة والاحترام؛ لأن ذلك يفيده عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فيتحقق بذلك عبوديتُه لربه عز وجل.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «آذاني إنسانٌ مرة، فضقت ذرعاً بذلك، فنمت فرأيت قائلاً يقول: من علامة الصِّدِّيقيَّة كثرة أعدائها، ثم لا يبالي بهم».

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري[1] رضي الله عنه: «الأنس بالخلق

= (ومن كلامه): كفى من العلم خشية الله، ومن الجهل أن يُعجَب الرجل بعلمه. وقال: يهلك الناس في خلَّتين: فضول المال وفضول الكلام. (الطبقات للمناوي ١: ١٤٩).

(١) عبد الوهاب بن عبد الحكم، ويقال: ابن الحكم بن نافع، أبو الحسن الوراق، نسائي الأصل، صحب الإمام أحمد وسمع منه، وكان صالحاً ورعاً زاهداً. وذكره أبو الحسين ابن المنادي فقال: كان يسكن الجانب الغربي ببغداد وحدث بألوف وكان من الصالحين العقلاء.

وقال ابنه الحسن: كان أبي عبد الوهاب إذا وقعت منه قطعة فأكثر لا يأخذها ولا يأمر أحداً أن يأخذها، فقلت له يوماً: يا أبتِ، الساعة سقطت منك هذه القطعة فلِمَ لا تأخذها؟ فقال: قد رأيتها، ولكني لا أعوِّد نفسي أن آخذ شيئاً من الأرض كان لي أو لغيري.

وقال ابنه أيضاً: ما رأيت أبي ضاحكاً قط إلا متبسماً، وما رأيته مازحاً قط! ولقد رآني مرة وأنا أضحك مع أمي، فجعل يقول: صاحب قرآن يضحك هذا الضحك! وإنما كنت مع أمي.

وحشة، والطمأنينة إليهم حمقٌ، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهنٌ، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً جعل أنسه به، وبذكره، وتوكله عليه، وصان سره عن النظر إليهم، وظاهره عن الاعتماد عليهم».

وقد قالوا: الزهاد يخرجون المال من الكيس تقرباً إلى الله تعالى، وأهل الصفا يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققاً بالله عز وجل.

قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله تعالى حظُّهم في بداياتهم أن يُسَلَّط الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا، ويتكمل فيهم المزايا، وكي لا يُسَاكِنُوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومَنْ آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقَّك بوجود امتنانه؛ ولذلك قال ﷺ: «مَن أسدَى إليكُم مَعرُوفاً فكافِئُوهُ، فإنْ لم تَقْدِرُوا فادْعُوا لهُ»[1]، كلُّ ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، وليتعلق بالملك الحق.

وقال منصور الحربي وغيره: إنه رأى بشر بن الحارث ـ يعني: في المنام ـ قال: فقلت له: ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق؟ قال: تركتهما الساعة بين يدي الله عز وجل يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه سبحانه وتعالى.

واختلف في وفاة عبد الوهاب؛ فقيل: سنة خمسين ومئتين، وقيل: سنة إحدى وخمسين ومئتين، وهو أثبت، وصلى عليه الأمير الموفق ابن المتوكل على الله، ودفن بباب البردان. (طبقات الحنابلة ١: ٢٠٩).

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند (٢: ٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢١٦)، وأبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٥: ٨٢)، وابن حبان (موارد الظمآن ٢٠٧١)، والحاكم في المستدرك (١: ٤١٢) عن ابن عمر، ورواه أحمد (٢: ٥١٢)، والحاكم (١: ٤١٣)، من حديث أبي هريرة، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، والطبراني في «الكبير» من حديث الحكم بن عمير.

قال: وتسليطُ الخلق على أولياء الله تعالى في مبدأ طرقهم سنة الله تعالى في أحبائه وأصفيائه.

وكذلك من استحلى حالاً، وساكن مقاماً، فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تتأله بغيره.

وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: اللُّطْفُ حجاب عن اللطيف، يعني السكون إليه، والوقوف عنده، وشدة الفرح به، ولذلك قال سري السقطي رضي الله عنه: لو أنَّ رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، وعليه جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في أيديها أسيراً. انتهى ملخصاً.

* * *

باب ذكر بعض خصائص العارف بالله تعالى

وهو من اتصف بالمعرفة وهي: تحقق العلم بجلال الله في سر العارف على قدر ما فتح له. كذا رأيته منقولاً.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرح الأصل: اعلم أنَّ أفضل العبادة والطاعة المعرفة؛ لأنَّ معرفة كيفية العمل بالطاعة ينشأ عنها نتيجة وهي: التقوى، والتقوى ينشأ عنها نتيجة وهي: علم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعلم الهداية ينشأ عنه نتيجة وهي: المعرفة، فالمعرفة لب اللب، وغاية الغايات، وهي تختلف بحسب حال العارفين؛ لأنَّ معرفة كل عارف على قدر ما أمده الحق من التعرف.

قال بعض المحققين: من تعرف إليه بأفعاله عرف نفسه بآلائه، ومن تعرف إليه بصفات ذاته عرف ذاته بإحاطة صفاته، ومن تعرف إليه بذاته محق عنه المعارف والمعروف والمعرفة، وكل ما يتعرف به. وثبت بلا إضافة، لا لمضمر ولا لمظهر ولعل هذا معنى قول الأستاذ.

قال رضي الله عنه:

١٤٦ـ (ما العارِفُ مَن إذا أشارَ[1] وَجَدَ الحقَّ أقرَبَ إلَيْهِ مِن إشارتِهِ؛ بلِ

---

(١) قوله: «من إذا أشار»، أي: إلى معنى من الحقيقة، والإشارة ألطف من العبارة، وهي كناية وتلويح وإيماء لا تصريح، وهي التي يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم =

العَارِفُ: مَن لا إشَارةَ له؛ لِفَنائِهِ في وُجُودِه، وانطِوائِهِ في شُهُودِه).

لأنَّ الإشارة مع الشفعية، والعارف: من انتقل من الشفع إلى سر الوتر، ومن بيان الشهود إلى تحقيق السجود، وهو عين الجمع وحقيقة الفناء، ولأن الإشارة تكون مع القرب مع حضور الغير، وتكون مع العبد، والقرب والبعد صفة العبد، وبماذا يدرك العبد صفته؟ ولهذا كان العارف لا إشارة له لفنائه في وجوده بما أمده به من أنوار المعرفة الحقيقية، فانقطعت عنه العبارة وسقطت عنه التفرقة، وذهبت عنه الإشارة، والجمع على الله بالله؛ لأن الجمع ما أسقط التفرقة، وقطع الإشارة، وغاب في مشاهدة التوحيد، مع صحة التمكين، والبراءة من التلوين، وهو جمع علم، ثم عين، ثم حق، فإذا أردت أن تخرج من سجن وجودك إلى سعة شهودك، فافْنَ عن وجودك، وحولك وقوتك، تشهد ما مَنَّ الله تعالى به عليك من أسرار الغيوب المكتتمة عنك بك. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٤٧ـ (مَطلَبُ العارِفِينَ منَ اللّـهِ عزَّ وجَلَّ: الصِّدْقُ في العُبُودِيَّة، والقِيامُ بحقِّ الرُّبُوبيَّة).

وهما متلازمان فمن صدق في العبودية فقد قام بحق الربوبية، ومن قام بحق

= لأسرار التوحيد، وتحقيق القول في الإشارة إنما هو: كون العبد متعلقاً بنوع من أنواع الأسماء والصفات، حتى تكون أحواله كلها جارية على ما يقتضيه ذلك النوع حالاً وعملاً وقولاً، فتظهر كل أحكامه في أعمال العبد حتى يفهم عنه في كل ورد وصدر، فمن كانت إشارته للفضل والكرم، أو ضد ذلك فأعماله على نوع من الشكر والالتجاء بوجه يشهد فيه المنة لمولاه، والعارف الكامل همته وراء ذلك كله؛ إذ كل شيء عنده مضمحل دون مولاه، فلا يتوقف حاله على اسم ولا صفة ولا غير ذلك. انتهى. من شرح السيد محمد الأهدل على الحكم. (مؤلف).

الربوبية، فقد صدق في العبودية، والصدق أعلى مراتب السالكين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وإنَّما طلب العارفون هذا لأنه غاية ما يطلب.

قال الشيخ أبو مدين رحمه الله: شتَّان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور. انتهى من شرحي الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

قال رضي الله عنه:

١٤٨ـ (العارِفُ لا يَزُولُ اضْطِرارُهُ، ولا يكُونُ معَ غيرِ اللّٰـهِ قَرارُه).

«العارِفُ لا يَزُولُ اضطِرارُه» إذ هو يرى فقر نفسه وعجزها وضعفها في كل حال، «ولا يكُونُ معَ غَيْرِ اللّٰـهِ قَرارُه» إذ لا يرى غنياً سواه، ولا قوياً قادراً إلا إياه. كذا في شرح الأهدل.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: معرفة العارفين هي معرفتهم بأنفسهم، وبما هي من الفاقات والافتقار إلى العزيز الجبَّار، وبقدر ما يتحققون بذلك في أنفسهم تكون معرفتهم بالله عز وجل. كما جاء في الخبر: «من عرف نفسه عرف ربه»، فلذلك كان العارف لا يفارقه الاضطرار.

قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]: «الولي لا يزال مضطراً».

قال ابن عطاء: معنى كلام الشيخ هذا: أنَّ العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم،

فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم، وإنما لم يكن له مع غير الله قرار لوجود وحشته من الأشياء، ونفوره بقلبه عنها. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٤٩ـ (الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقبَضُوا، لِشُهُودِهِمُ الثَّناءَ منَ الخَلْق، والعارِفُونَ إذا مُدِحُوا انبَسطُوا، لِشُهُودِهِم ذلك منَ المَلِكِ الحَقّ).

«الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقَبَضُوا، لِشُهُودِهِمُ الثَّناءَ منَ الخَلْقِ» فهم محجوبون عن الحق بالخلق اعتماداً على قوله ﷺ: «إنَّ المدح هو الذبح»، وقوله للآخر: «قطعتَ عنق صاحبك»[1]، وحذراً من أن يكونوا من الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، «والعارِفُونَ إذا مُدِحُوا انبَسَطُوا لِشُهُودِهِم ذلك منَ المَلِكِ الحقّ» فهم محجوبون عن الخلق بالحق، عاملين على قوله عليه السلام: «إذا مُدِحَ المؤمن في وجهه رَبَا الإيمان في قلبه»[2]، وعلى مقتضى قولهم: ألسنة الخلق أقلام الحق، فهم يرون أنَّ مدحهم مدح لسيدهم، إذ مدح الصنعة عائد لصانعها من غير إعجاب بأنفسهم ولا اتكال على أعمالهم وأحوالهم، وذلك بواسطة خروجهم عن كل ما سوى الله تعالى، فهم لم يشهدوا غيره؛ ولهذا أشار الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه لمَّا سأله بعض من حضر مجلسه وهو يتكلم في التجريد ورفع الهمة عن الخلق: حسبي يا سيدي كلام جدك المصطفى ﷺ لما قال: «جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى مَحَبَّةِ مَن يُحْسِنُ

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٩) باب إذا زكى رجل رجلاً كفاه، ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١: ٤٢٤) عن خلاد بن السائب، ورواه الحاكم في مستدركه (٣: ٥٩٧) وسكت عنه، عن أسامة بن زيد، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (٨٥٥).

إليها»[١]. قال: إنَّا لا نشهد الإحسان إلا من الله. هل في الوجود غير الله؟ وإن كان ولا بد فكالهباء في الهوى، إن فتشته لم تجده شيئاً. انتهى من شرحي الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

وقال ابن عباد رحمه الله: وعلامة الصادق في حب المدح ـ وإن كان صاحب هذا المقام لا يحتاج إلى علامة ـ أن لا يكره ذمَّ النَّاس لـه من حيث نسبة ذلك إليهم؛ لأنهم مصرَّفون في قبضة القدرة، فيسمح لهم ويَصْفَح عنهم، ولا يجد في قلبه عليهم، ولا يصل شيء من الأذى إليهم[٢]، كما قيل في هذا المعنى:

رُبَّ رَام لي بأحْجـارِ الأَذَى لم أجِدْ بُدّاً منَ العَطْفِ عَلَيْهِ

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٢: ٢٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤: ١٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦: ٨٩٨٣)، والخطيب البغدادي في تاريخه (٤: ٢٧٧ و١١: ٩٤) عن ابن مسعود. وصحح البيهقي في شعب الإيمان وقفه، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (٣٥٨٠).

(٢) قال الأهدل في شرحه: وقال رجل لسفيان الثوري: لو أنك نشرت ما معك من العلم رجاء أن ينتفع به عباد الله وتؤجر على ذلك؟ فقال: لو أعلم الذي يطلب العلم لا يريد به إلا وجه الله تعالى لكنت أنا الذي آتيه إلى منزله وأحدثه بما عندي، لما أرجو أن ينفعه الله به. وقال بعض العلماء: زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل: كلما ازداد ريّاً ازداد مرارة. وجاء في الخبر عنه عليه السلام: «إذا كان الكلام إلى العالم أحب من الصمت فقد هلك»، وقال عيسى عليه السلام: «لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير». وجاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم»، وفي المعنى لبعضهم:

ومَن منَحَ الجُهالَ علماً أضـاعَهُ ومَن منَعَ المستوجِبِينَ فقد ظلَمْ

قال علماؤنا: ومن علَّم العلم لمن طلب به الدنيا كبائع سيف من قاطع طريق قائلاً: إنما ابتعته ليجاهد به ويحمي المسلمين عن عدوهم، والذي يحمل العبد على تعلم ما لا يليق في ذكر ما يجب صونه إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة، والاغترار بها وبأربابها وزهرتها. انتهى ملخصاً.

فعَــسَى يَطَّلِــعُ اللهُ عَــلَى فَرَح القَوْم فيُدْنِيْـني إلَيْـهِ[١]

انتهى.

* * *

(١) في نسخة:

فعسى أن يطّلعَ اللهُ على ذلك الحالِ فيُدنيني إليهِ

باب التفرس والاستدلال بالشيء على الشيء

من العلامات الدالة على الشيء، أي: على وجوده بالقرائن الدالة عليه.

قال رضي الله عنه:

١٥٠ـ (مَن رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَن كلِّ ما سُئِلَ، ومُعَبِّراً عَن كلِّ ما شَهِدَ، وذاكِراً كلَّ ما عَلِمَ، فاستَدِلَّ بِذلك عَلَى وُجُودِ جَهْلِه).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الإجابة عن كلّ سؤال، والتعبير بكل مشهود، والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتصف بها، كما قال: أمَّا الإجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الإحاطة بجميع المعلومات، وذلك محال في حقِّه. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فكيف يتصور منه هذه الإجابة عن كل سؤال لولا وجود جهله؟! وأيضاً فإنه يجب عليه أن يُراعي حال السائل من وجود الأهلية لما سأل عنه، فيمتنع عن إجابة من لا أهلية فيه لذلك، فمن لا يسلك هذه المسالك فهو جاهل.

وأمَّا التعبير بكل مشهود؛ فلأن فيه نوعاً من إفشاء السر الذي يجب كتمه، وقد قالوا: قلوبُ الأحرار قبور الأسرار، والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإشهاره بالتعبير عنه خيانة، والله لا يحب الخائنين، وأيضاً فإن الأمور المشهودة لا يُستعمل فيها إلَّا الإشارات والإيماء، لا العبارات؛ لأن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضاً وانغلاقًا؛ لأن الأمور الذوقيَّة يستحيل إدراك حقائقها بالعبارات النطقية، فيؤدي ذلك إلى الإنكار والقدح في علوم السادة الأخيار.

قال أبو علي الروذباري[١]: «علمنا هذا إشارة، فإذا صارت عبارة خفي».

وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفريقه بين المعلومات، وقد يكون له علم يختص به، فإذا ذكره لغيره استغربه، وإن كان ينتفع به هو، فعدم تفريقه بين المعلومات في ذكرها من وجود جهله. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥١ـ (مِن عَلامةِ النُّجْحِ في النِّهايات: الرُّجُوعُ إلى اللّهِ عزَّ وجَلَّ في البِدايات).

«مِن عَلامةِ النُّجْحِ في النِّهايات» بالحصول على مقاصدها المرادة منها، يشير إلى مقام المحبة؛ لأنه أعلى المقامات، «الرُّجُوعُ إلى الله عزَّ وجَلّ في البِدايات» بالتوكل عليه في تحصيل مقاصدها، وإقامة حقوقها، يشير إلى موطن العبادة، والعمل بالشكر، اقتداءً بالحبيب الأعظم ﷺ حيث قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]. انتهى. من شرحي الأهدل والحجازي رحمهما الله تعالى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: للمريد بدايةٌ ونهاية، فبدايته حالُ سلوكه،

---

(١) هو: أبو علي أحمد بن محمد الروذباري، بغدادي، أقام بمصر ومات بها سنة ٣٢٢هـ، ومن كلامه: «المريد من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، والمراد لا يريد من الكونَيْن شيئاً غيره». وسئل رضي الله عنه عن الذي يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر فيَّ اختلاف الأحوال. فقال: «نعم قد وصل؛ ولكن إلى سقر»، وسئل عن التصوف، فقال: هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٦)، ومسلم (٢٨١٩) باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

ونهايته حال وصوله؛ فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والاستعانة به، أفلح ونجح في نهايته، وكان وصوله إلى الله تعالى، وأُمِنَ عليه من الرجوع والانقطاع.

قال بعض المشايخ: «ما رجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا ما رجعوا»، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلُّقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق، انقطع ورجع من حيث جاء.

قال بعض العلماء: «من ظن أن يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله بنفسه وُكِلَ إلى نفسه»، فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله على ما هو سبيله، ولا يرى حول نفسه ولا قوتها في كثير من عمله ولا قليله، فهذا أساس السلوك الذي ينبني عليه قواعده. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٢ـ (مِن عَلامةِ مَوتِ القَلْبِ: عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى ما فاتَكَ مِنَ المُوافَقات، وتَرْكُ النَّدَمِ علَى ما فَعَلْتَ مِن وُجُودِ الزَّلاَّت).

قال ابنُ عباد رحمه الله تعالى: القلبُ إذا كان حيّاً بالإيمان حزن على ما فاته من الطَّاعات، وندم على ما فعله من الزَّلَّات، ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطَّاعات، ويوفق له من اجتناب المعاصي والسيئات. وقد جاء في الحديث: «من سرته حسنتُه وساءته سيئتُه فهو مؤمن»[1]، وإن لم يكن العبد بهذا

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١: ١٨)، والخطيب في تاريخه (٤: ٣١٩ و٦: ٥٧) عن عمر، والبيهقي في الشعب (٦٩٩٤)، والطبراني في الأوسط (٦٤٧٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٩٢١٨)، عن أبي موسى. ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير (٨٧٥١).

الوصف، وعدم الحزن على ما فاته، والندم على ما أتاه، فهو ميِّت القلب، وإنَّما كان ذلك من قِبَل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد وسخطه عليه، فإذا وفق الله تعالى عبده للصالحات سرَّه ذلك؛ لأنه علامة على رضاه عنه، وغُلِّبَ حينئذ رجاؤه، وإذا خذله ولم يعصمه فعمل بالمعاصي ساءه ذلك وأحزنه، لأنه علامة على سخطه عليه، وغلب حينئذ خوفه.

والرجاء يبعث على الاجتهاد في الطاعات، وليس من مقتضاه تركها، وعدم الحزن على ما فاته منها أمناً واغتراراً، والخوف يبعث على المبالغة في اجتناب المعاصي والسيئات، وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها إياساً وقنوطاً. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٣ـ (مَن وَجَدَ ثَمرَةَ عَمَلِهِ عاجِلاً، فهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُول).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: ثمرة العمل: وجدان الحلاوة فيه، والنعيم به، ويتصور ذلك في أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تَكَرُّهٍ واستثقالٍ له، هذا هو غالب الأمر، قال بعض العارفين: «ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة يُحتاج إلى الصبر فيها، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة، وإنما هي مجاهدة النفس، ثم مخالفة الهوى، ثم مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم».

وقال ثابت البَنَّاني[1]: «كابدتُ القرآن عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة».

---

(١) هو: ثابت بن مسلم البناني، يكنى أبا محمد، من العباد الكبار، فعن بكر بن عبد الله قال: من سَرَّه أن ينظر إلى أعبد رجل أدركناه في زماننا فلينظر إلى ثابت البناني.

أسند ثابت عن ابن عمرو وابن الزبير وشداد وأنس في آخرين. وتوفي في ولاية خالد بن عبد الله على العراق. (صفة الصفوة ٣: ١٧٥ - ١٧٧).

وقال بعض العلماء: «كنتُ أقرأ القرآن فلم أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه رضي الله عنهم، ثُمَّ رُفعت إلى مقام فوقه، وكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى، فأنا الآن كأني أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا صبر عنه».

وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم، إنما تثمره الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى.

قال أبو تراب رضي الله عنه: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل».

والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله تعالى.

ورد في الخبر: «لا يَقْبَلُ الله تَعَالَى مِنْ مُسَمِّعٍ ولا مُرَاءٍ»[1]، دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول مع قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقبول الله تعالى لعمل العبد، ورضاه به، هو من ثوابه المعجل، وذلك على وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «كلّ عمل ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة»، فحصل من هذا أنَّ وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضي لوجود الرضا والجزاء، ولذلك قال الحسن رضي الله عنه: «تفقدوا الحلاوة في ثلاث، فإن وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدكم، وإن لم تجدوها

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء في كتاب الزكاة، وقال الإمام ابن السبكي في الطبقات في آخر ترجمته للغزالي (٦: ٢٩٨): لم أجد له إسناداً.

فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وفي السجود»، وزاد غيره: «وعند الصدقة وبالأسحار».

قلت: وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون إلا في مقام المعرفة الخاصة، وهي التي تنافيها المعصية.

قيل لبعضهم: بمَ تعرف أنك عرفته؟ فقال: لم أقصد مخالفته إلَّا وَرَدَ على قلبي استحياء منه.

وقال إسماعيل بن نجيد[1] رضي الله عنه:«التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر، فإن العصيان في حال العرفان بعيد»، فإن وقعت منه زلَّة أو هفوة بحكم ـ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ـ وجد لذلك لا محالة مرارة وألماً في قلبه، فوجدان هذه المرارة والألم في المعصية علامة صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم في الطاعات، فهذه هي الحلاوة التي هي الميزان للأعمال التي هي مقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه.

وأمَّا الحلاوة التي يجدها من دون أهل هذا المقام في بعض العبادات فمدخولة معلولة إلَّا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة.

والحلاوة على الإطلاق إذا وجدها العامل في العمل لا ينبغي له أن يقف معها، ولا يفرح بها، ولا يسكن إليها، وكذلك أيضاً لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته، وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بحصولها، لتكون ميزاناً لأعماله، ومحكّاً لأحواله فقط.

---

(١) هو: أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، صحب أبا عثمان الحيري، ولقي الجنيد، وأخذ الحديث عن أحمد بن خليل، وأسند الحديث ورواه، وكان ثقة، توفي بمكة سنة ٣٣٦هـ. (الرسالة القشيرية ١: ١٧١).

قال الواسطي رضي الله عنه: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة».

قال في لطائف المنن: «وصدق الواسطي رضي الله عنه، وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب الحلاوة في الطاعة تصير قائماً فيها، متطلباً لحلاوتها، فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها. وتحب دوامها لا قياماً بالوفاء؛ لكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائماً لله تعالى، وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً معجلاً في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك». انتهى ما ذكر ابن عباد رحمه الله تعالى.

قال رضي الله عنه:

١٥٤ـ (إذا أَرَدْتَ أَنْ تَعرِفَ قَدْرَكَ عِندَهُ فانظُرْ في ماذا يُقِيمُك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا ميزان صحيح، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أرادَ أنْ يَعلَمَ مَنْزِلتَهُ عِندَ الله فلْيَنْظُرْ كيفَ مَنْزِلةُ اللّـهِ تَعَالَى مِن قَلْبِه، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْزِلُ العَبْدَ عِنْدَهُ حيثُ أنزَلَه العَبْدُ مِن نَفْسِه»[١].

وهذا الإنزال المذكور المنسوب إلى العبد هو معنى الإقامة المذكورة؛ إذ العبد لا فعل له على التحقيق.

قال الفضيل بن عياض: «إنما يطيع العبدُ ربَّه على قدر منزلته منه».

وقال وهب بن منبه[٢] رضي الله عنه: «قرأت في بعض الكتب: يا ابن آدم،

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس، وأبو نعيم في الحلية (١٠: ٤٣) عن أبي هريرة، وعن سمرة، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٣٨٦) بلفظ: «من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده»، ورمز لضعفه.

(٢) هو: العالم العابد صاحب الكتب السابقة والأنفاس الصادقة وهب بن منبه، عالم أهل اليمن،=

أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني بما يصلحك، لأني عالم بخلقي، إنَّما أُكْرِمُ من أكرمني، وأهين من هان عليه أمري، لست بناظر في حقِّ عبدي حتى ينظر عبدي في حقي». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: فإن أقامك في طلب الدنيا ومحبة شهواتها ولذاتها العاجلة فقد أهانك وأبعدك عن بابه؛ لأنَّ من طلب الدنيا ونعيمها صار لا قيمة له؛ لأنه أحبَّ غير الله وطلبه، ومن أحبَّ شيئاً صار عبده.

وإن أقامك في طلب الحالات والـمقامات والمكاشفات صرت عبدها، وصغرت قيمتك.

وإن أقامك عبدًا له حراً لما سواه فقد عظمت منة الله عليك، وكبر قدركَ عنده، وصرت به؛ لأن من كان بالله فني عن كل ما سواه، حتى عن عمله وشهوده وفنائه، ومن لم يكن بالله كان بنفسه، فإن أنت استدلَّيْت على مقامك بما أقامك، فإن كنت من أهل الشريعة فالزم نفسك الوقوف عند مرسومها، وإن كنت من أهل الخدمة فافْنِ عن نظرك لها، وإن كنت من أهل الحقيقة فافْنِ عن الفناء بالفناء حتى

= ولد سنة (٣٤هـ)، جد واجتهد بحيث لم يضع جنبه على الأرض ثلاثين سنة، أخذ عن ابن الحنفية، وغالب أخذه عن ابن عباس، صار من أكابر الزهاد، ورؤوس العباد، وكان جده أحد أكاسرة ملوك الفرس، كان إذا دخل على ابن الزبير أيام خلافته قام وأجلسه على سريره ولم يفعل ذلك لغيره. مات بصنعاء سنة (١١٤هـ، وقيل: ١٢٠هـ)، خرَّج له الجماعة سوى ابن ماجه.

ومن (كلامه): عليكم بالتكسب، فإنه ما افتقر أحد إلا رق دينه وقل عمله وذهبت مروءته واستخفَّ به. (حلية الأولياء ٤: ٣٣، وفيات الأعيان ٢: ١٨٠، الشذرات ١: ١٥٠، الكواكب الدرية ١: ٣١٧).

لا ترى لك فناء؛ لأن الحقيقة عندهم سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه، ولهذا كان الصوفي في أعلى المقامات؛ لأنه جمع بين المقامات والحالات كلها مع الفناء بالله عنها. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٥ـ (الحُزْنُ علَى فُقدانِ الطَّاعةِ، معَ عَدَمِ النُّـهُوضِ إليها، مِن عَلامةِ الاغْترِار).

وهو التعلق بشيء لا حقيـقة له؛ لأنَّ عدم النهوض إلى الطاعة حرمان من الله، وخذلان في الدين؛ لأنَّ الدين المجاهدة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والاستقامة على طريق الحق لا تكون إلا بالمجاهدة، والمعرفة التي هي نتيجة المجاهدة، فمن جد وجد، ومن كسل وقع في الحرمان والندم، فلا تعتقد أنَّ حزنك على فقدان المجاهدة والطاعة ينفعك، وأنت مستغرق في ندم الغفلة والجهالة. كذا في شرح الحجازي رحمه الله تعالى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا هو الحزن الكاذب(١) الذي يكون معه البكاء الكاذب(٢) كما قالوا: كم من عين جارية وقلب قاس، وهو من مكر الله تعالى الخفي، حيث منعه ما ينفعه، وأعطاه ما يغترُّ به من الحزن والبكاء.

---

(١) قوله: هذا هو الحزن الكاذب ... إلخ. قال الأهدل في شرح الأصل: وليس المراد حزن القلب ولا توهم اللب؛ وإنما المراد اتباع الأمر والاستسلام للقهر. قال أبو سليمان: ليس البكاء بتعصير العيون؛ وإنما البكاء أن تترك الذي تبكي عليه. انتهى.

(٢) في نسخة: بكاء الكذابين، وفي أخرى: عند البكاء الكاذب.

سَمِعَتْ رابعةُ العدوية[1] رضي الله عنها رجلاً يقول: واحزناه! فقالت: «بل قل: واقِلَّة حزناه، لو كنتَ محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفَّس».

وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا، وهو مقام من مقامات السالكين، وهو يبعث على الانكماش في الأعمال، والنهوض إلى الطَّاعات على كل حال.

قال الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: «صاحب الحزن يَقْطَعُ من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن في سنين». وفي الخبر: «إنّ اللّـهَ تعالى يحبُّ كلَّ قلب حزين»[2]، وفي التوراة: «إذا أحب الله تعالى عبداً نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغضه نصب في قلبه مزماراً».

---

(١) رابعة العدوية المقدسية ثم المصرية: رأس العابدات، ورئيسة الناسكات، كانت في عصر الحسن البصري رضي الله عنه، وهي إحدى النساء اللاتي تقدمن ومهرن في الفضل والصلاح، كانت تصلي العشاء وتصُفُّ قدميها للصلاة وتقول: قد نامت العيون وغفلت الغافلون وبقيت رابعة الخاطئة بين يديك، فلعلك أن تنظر إليها نظرة تمنعها من النوم عن خدمتك، ثم تقول: وعزتك وجلالك، لا أنام عن خدمتك في ليلٍ ولا نهار إلا غلَبَةً حتى ألقاك.
وكانت تنشد:

ولقد جعلتـك في الفـؤاد محـدِّثي ... وأبَحْتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسـمُ منـي للجليـس مـؤانسٌ ... وحبيـبُ قلبـي في الفـؤادِ أنيـسي

ماتت رضي الله عنها سنة (١٨٠هـ)، وقيل غير ذلك. (وفيات الأعيان ١: ١٨٢، والشذرات ١: ١٩٣، والكواكب الدرية ١: ٢٠٠).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦: ٩٠)، وابن أبي الدنيا في الهم والحزن (٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٣٠٩) وقال: رواه البزار والطبراني، وإسنادهما حسن. ورواه الحاكم في المستدرك (٤: ٣١٥) وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: مع ضعف أبي بكر بن مريم منقطع. انتهى عن أبي الدرداء.

وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر[١].

فإذاً الحزن الذي يجده العبد من نفسه إن لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامة الاغترار، وليس بمقام السالكين الأبرار. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٦ ـ (مَتَى كنتَ ـ إذا أُعطِيتَ ـ بَسَطَكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المَنْعُ، فاستَدِلَّ بذلكَ علَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِك، وعَدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِك).

لأنَّ ملازمة الصدق في العبودية الصبر على مراد سيده مع الرضا بمراده، فإذا حصل للسالك مقام الصَّبر مع الرضا والتسليم نقل إلى مقام الفناء. ومقام الفناء يقتضي القيام بحق الربوبية، وحق المولى على العبد أن يكون بمراده، وذلك أعلى المقامات؛ لأنَّ السالك ما دام مع وجوده طالباً من الله تعالى ما يريده لنفسه من طلب الزلفى والكرامة في الدنيا والآخرة فهو مريد طفيلي. كذا في شرح الحجازي رحمه الله تعالى.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: القبض عند المنع، والبسط عند العطاء من علامة بقاء الحظ والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين، فمن وجد ذلك فليعرف به عدم صدقه في عبوديته، وأنه طفيلي بين أهل الله تعالى في ادِّعائه مقاماتهم، وهو لم يتوصل لها.

والطُّفَيْلي: هو الذي يأتي الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير

(١) هذا جزء من حديث طويل مشهور في وصف هند بن أبي هالة رسولَ الله ﷺ، وروى عنه سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وهند خاله. رواه الترمذي في الشمائل (٢٢٦).

دعوة، فمن تحقق في حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الأحوال والأقوال والأفعال، نظراً إلى ما من الله إليه من رعاية الحق وحياطته وتوليه، وكان للحق من حيث الحق له، لا من حيث هو للحق.

ولكن أكثر العبيد يشيرون إليه بالمعرفة ويظهرون حالة المحَّبة، فإذا ورد عليهم وارد بلاء أو خلاف مرادهم رجعت نفوسهم إلى حدِّ الإشفاق عليها، والاهتمام بها، ونسوا ما ادَّعوا به وأشاروا إليه، ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق لنسوا في جنب ما أشاروا عليه جميعَ الموارد ساء أم سرَّ؛ لأن من حصل في ميدان الوصول لا تعترض عليه عارضة خلاف، وأذهله حاله عما سواه. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٧ـ (مِن عَلامةِ اتِّبَاعِ الهَوَى المُسارَعةُ إلى نَوافلِ الخَيْرات، والتَّكاسُلُ عنِ القيامِ بالواجِبات).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذه من الصور التي يتبين فيها خِفَّةُ الباطن وثقلُ الحق على النَّفْس، وما ذكره هو حال أكثر النَّاس، فترى الواحد منهم إذا عقد التوبة لا همَّة له إلا في نوافل الصيام والقيام، وتكْرار المشي إلى بيت الله الحرام، وما أشبه ذلك من النوافل، وهو مع ذلك غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات، ولا متحلل لما لزم ذمته من التبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم، ولم يحتفلوا بمجاهدة أهوائهم التي استرقتهم وملكتهم، ولو أخذوا في ذلك لكان لهم فيه أعظمُ شغل، ولم يجدوا فسحة لشيء من الطاعات والنوافل.

قال بعض العلماء: «من كانت الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع».

وقال محمد بن أبي الورد[1] رضي الله عنه: «هلاك الناس في حرفتَيْن؛ اشتغال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل الجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما حُرموا الوصول بتضييعهم الأصول».

وقال الخوَّاص رضي الله عنه: «انقطع الخلق عن الله بخصلتَيْن، إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيَّعُوا الفرائض، والثانية: أنهم عملوا أعمالاً بالظاهر، ولم يأخذوا بالباطن أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبى الله أن يقبل من عاملٍ عملاً إلا بالصدق وإصابة الحق».

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: «فأفضل شيء للعبد معرفتُه بنفسه، ووقوفه على حَدِّهِ، وإحكامه لحالته التي أقيم فيها، وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نُهي عنه بعلم يدبره في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك، ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض؛ لأنَّ النفل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال، فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٥٨ـ (ما استُودِعَ في غَيْبِ السَّرائِر ظَهَرَ في شَهادةِ الظَّواهِر).

---

(١) هو: محمد بن أبي الورد، من أكابر شيوخ الوقت، له همَّة في الإرشاد، وقد سار ذكره في الآفاق، وانتهت إليه رياسة الصوفية بالعراق. صحب السقطي والمحاسبي والحافي وغيرهم، وأسند الحديث عن أبي النظر وغيره. مات سنة (٢٦٣هـ).
(ومن كلامه): الغفلة عن الطاعة نقمة. وقال: إنما مُنِعَ الناس الوصول، لتضييع الأصول.
(صفة الصفوة ٢: ٢٢٣، والطبقات للسلمي ٢٤٩ - ٢٥٣، والكواكب الدرية ١: ٤٧٦).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: هذا بيان علامة يُعْرف بها حال المريد السالك، وما انغمر به باطنه من المزيد المُتدارِك؛ لأن الظاهر مرآة الباطن، كما قيل: «الأسِرَّةُ تدل على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره»، فلما استودع الله تعالى القلوب والأسرار لا بدَّ أن تظهر آثار ذلك على الجوارح، فَيَسْتَدِلّ بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته، والوصول به، وما أشبه ذلك من الأغراض والمقاصد.

قال أبو حفص رضي الله عنه: «حسنُ أدبِ الظَّاهر عنوانُ حسن أدب الباطن، فإنَّ النبي ﷺ قال: «لو خَشَعَ قلبُهُ لَخَشَعَتْ جَوارِحُه»[1]، فمن ادَّعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره من اللهج بذكره، والمسارعة إلى متابعة أمره، والاغتباط بوجوده، والاستبشار عند يقين شهوده، والفرار عن القواطع الشاغلة عنه، والإضراب عن الوسائط المبعدة منه، فهو كذَّاب في دعواه، متخذ إلهه هواه، فإن كان موصوفاً بأضداد هذه الخصال، منحرفاً بظاهره عن جادة الاعتدال، فهو في دعواه أكذب، وحاله إلى النفاق والشرك أقرب. انتهى.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (كتاب الصلاة) قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه». قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسمَّه. انتهى.
قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسمَّ. انتهى.

باب تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ [لقمان: ٢٠]

أي: أتـمَّها عليكم، والنعمة: كل نفع قصد به الإحسان، ظاهره ما يُعلم بالمشاهدة، وباطنه ما لا يعلم إلا بدليل.

ثم قيل الظاهرة: البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك.

وقال ابن عباس: «الظاهرة ما سوَّى مِنْ خَلْقِكَ، والباطنة: ما ستر من عيوبك». كذا في تفسير النسفي.

قال رضي الله عنه:

١٥٩ـ (نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوجُودٌ عنْهُما، ولا بُدَّ لكُلِّ مُكَوَّنٍ منْهُما: نِعمةُ الإيجاد، ونِعمةُ الإمْداد).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد نعمتان لازمتان لكل مكوَّن موجود باق؛ لأنه في ذاته معدوم متلاش، فنعمة الإيجاد إزالة العدم السابق، ولولا ذلك لم يزل معدوماً، ونعمة الإمداد إزالة العدم اللاحق، ولولا ذلك لتلاشى وفني.

قال سيدي أبو مدين: «الحق تعالى مُمِدٌّ والوجود مُسْتَمِدٌّ، والمادة من عين الوجود، فلو انقطعت المادة انهدم الوجود». انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الحجازي في شرحه: وهاتان النعمتان تضمنتهما نعم لا تحصى كلها شملت العالمين، وكل عالم مستمد على حسب حاله وما يناسبه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، أنعم عليك أولاً: بالإيجاد من غير شريك له ولا مدبر ولا معين، وثانياً: بتوالي الإمداد فيما أقامك فيه ورضيه لك، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]. انتهى. من الشرح المذكور.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: ومما لا ينبغي أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس: نعمة إيجاد الإيمان، ومحبة الطاعة في قلبك، وإمدادها، وكذلك كراهة الكفر والمعصية، فإنَّ ذلك من النعم العظيمة، التي لا مدخل للعبد فيها، ولا له وسيلة إليها؛ ولولا تولي الله تعالى بهاتَيْن النعمتَيْن في القسمَيْن، لتاهَ في ظلمات الضلالة، وغرق في بحر الجهالة، وقد نبه الله عز وجل في كتابه الكريم على هذا المعنى، فقال عز من قائل: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: وإنَّ من فكر في صنوف الضلالة، وكثرة طرق المحال، وشدة أغاليظ الناس في البدع والأهواء، وما يتشعب بكل قوم من مختلفي النِّحَل والآراء، ثم فكر في ضعفه ونقصان عقله، وكثرة تحيره في الأمور وشدة جهله، وتناقص تدبيره في أحواله وشدة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله في أعماله، ثم رأى خالص يقينه وقوة استبصاره في دينه، وبقاء وجه توحيده عن غيرة الشرك، وضاء عين عرفانه عن وهْمِ الشك، علم أن ذلك ليس من طاقته، ولا بجهده وكده، وسعة وجده؛ بل بفضل ربه وسابغ

طَوْله، قال الله عز جل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فهو الظاهر بنعمائه، وآثار نعمه عليك متظاهرة، والباطن بآلائه، وزوائد كرمه لديك متواترة. انتهى.

فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة، ويتوكل على مولاه في بقائها وحفظها عليه، ولا يعتمد في ذلك على عقله وعلمه.

قال بعض العارفين: «من نظر في توحيده إلى عقله لم ينجه توحيده من النار».

قال الشيخ أبو طالب المكي بعد أن ذكر ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «أَحِبُّوا اللّٰـهَ تعالى لِما أَسْدَى عليكم مِن نِعَمِه، ولما يَغْذُوكم بِهِ أيضاً»[1]: فمن أفضل ما غذانا به نعمة الإيمان به والمعرفة له وغذاؤه لنا منه دوام ذلك، ومدده بروح منه، وتثبيتاً عليه في تصريف الأحوال، إذ هو أفضل الأعمال التي هي مكان النوال فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا في الذنوب، ولو قلب قلوبنا في الشك والضلال كما يقلب نياتنا في الأعمال، أيُّ شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء كنا نُعَوِّل؟ وبأي شيء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول، واستطاعة بقوة وحول، هي كفر نعمة الإيمان، وأخاف على من توهم ذلك أنه يسلب الإيمان؛ لأنه بدَّل شُكْرَ نعمة الله كُفْراً. انتهى كلام أبي طالب رضي الله عنه، وهو حسن في هذا المعنى. انتهى.

---

(١) رواه الترمذي في الرقائق (٣٧٨٩)، والحاكم في المستدرك (٣: ١٥٠) عن ابن عباس، ولفظه: «أحبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ به من نعمه، وأحبُّوني لحبِّ الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»، قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قال رضي الله عنه:

١٦٠ـ (مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعةَ والغِنَى بهِ عَنْها، فاعلَمْ أنّهُ أسبَغَ عَلَيْكَ نِعمَهُ ظاهرةً وباطِنة).

«ظاهرة»: وهي الموافقة لمراده تعالى منك، «وباطنةً»: شهوده وهي المنة، فتكون قد وفيت بمعظم حقوق الله عليك، وهو الشكر له، ظاهراً وباطناً؛ لأنه ما شكره من لم يمتثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيَّع عهوده، كذا في شرح الحجازي.

وقال ابن عباد رحمه الله تعالى: المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر في الظاهر، والتعلُّق بالله في الباطن، وهو الاستغناء به عن غيره؛ فإذا رزق الله تعالى العبد هذَيْن الأمرَيْن، فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية الأمر في الدنيا والآخرة، سبحانه جلَّ وعلا. انتهى.

قال رضي الله عنه:

١٦١ـ (مِن تَمامِ النِّعْمةِ عَلَيْكَ؛ أنْ يَرزُقَكَ ما يَكفِيك، ويَمنَعَكَ ما يُطْغِيك).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد؛ لما في ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية، أما مصالح الدين في عدم الزيادة على الكفاية فظاهر؛ إذ لو وجدها ربَّما أوجب له طغياناً، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ـ٧]، فالاستغناء هو: وجود الزيادة على الكفاية، وهو سبب الطغيان، والطغيان أصل كل معصية لله عز وجل.

وقصة ثعلبة بن حاطب حين طلب الدعاء من النبي ﷺ أن يرزقه الله مالاً، وما آل إليه أمره مشهور[١].

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ قال: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي»[٢].

وأما مصالح الدنيا في ذلك فقد ذكر التنبيه عليها في قول المؤلف رحمه الله: «لِيَقِلَّ ما تفرح بهِ يِقِلَّ ما تحزن عليه».

وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل توصُّله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى، ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أي: لا تنس نصيبك في الآخرة أن تتوصَّل إليه بما آتاك الله من الدنيا.

---

(١) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له حتى يرزقه الله مالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة؛ قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ...». القصة ذكرها كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

وثعلبة بن حاطب اسم لرجلَيْن من الصحابة، أحدهما: ثعلبة بن حاطب بن عمر بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس الأنصاري، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق في البدريِّين، وكذا ذكره ابن الكلبي، وقال: إنه قتل بأحد. والثاني: ثعلبة بن حاطب أو أبي حاطب الأنصاري، ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضرار. (إتحاف السادة المتقين).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١: ١٧٢)، وابن حبان في صحيحه (٨٠٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٥٢)، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير (٤٠٠٩). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٨٤): رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبينة، وقد وثقه ابن حبَّان.

وأما مصالح الدنيا في ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه؛ إذ بذلك يحصل له طيب العيش، وراحة القلب والبدن، وصيانة الوجه عن ذل السؤال عند وجود الحاجة والفاقة.

فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، ويقنع بما أباح له من هذه المنَّة الجسيمة، فيستعجل بذلك راحة نفسه، والاستغناء عن بني جنسه، ويحصل له بذلك حلاوة الزهد في الأمور العاجلة، ويجافي القلب عن زهراتها، فَإِنْ طَلَبَ الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قُسِمَ له منها خِيْفَ عليه من اقتحام المهالك، إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك.

قال بعض العارفين: «كلّ من لا يعرف قدر ما زُوي عنه من الدنيا ابتلي بأحد وجهين: إمَّا بحرصٍ مع فقرٍ يَتَقَطَّع به حسرات، أو رغبةٍ في غناء ينسيه شكر ما أنعم به عليه».

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ الغِنَى عَن كثرةِ العَرَض، وإنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْس»[(١)].

وغنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين، وعزّ أهل التقوى من المؤمنين المحسنين، ولقد صدق الشاعر في قوله:

غِنَـى الـنَّفْسِ مـا يَكفِيـكَ مِـن سَـدِّ   فإنْ زِدْتَ شيئاً عادَ ذَاكَ الغِنَـى فَقْـرَا

انتهى.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣)، وابن ماجه (٤١٣٧)، وأحمد في المسند (٢: ٢٤٣). قال الترمذي: حسن صحيح عن أبي هريرة.

(٢) الخَلة (بفتح الخاء): الفقر والحاجة.

قال رضي الله عنه:

١٦٢ـ (مَتى جَعَلَكَ في الظَّاهِرِ مُمْتَـثِلاً لأمرِهِ، ورَزَقَكَ في الباطِنِ الاستِسلامَ لِقَهْرِهِ، فقد أعظَمَ المِنَّـةَ عَليك).

بتوفيقه لك بالقيام بما يريده منك ويختار.

قال بعض المحققين رضي الله عنه: القومُ يَصِلُون إلى حالةٍ لا يبقى لهم فيها دعاء ولا سؤال، لا يسألون في طلب الانتفاع ولا في دفع المضار، فيصير دعاؤهم بأمر من حيث قلوبهم تارة لأجلهم، وتارة لأجل الخلق، فينطقون بالدعاء وهم في غيبة عنهم. اللَّهُمَّ ارزقنا حُسْنَ الأَدَبِ مَعَكَ في جميع الأحوال. انتهى.

فمتى وفقت للأدب في جميع الأحوال من غير تكليف ولا ثقل فقد عظمت منة الله عليك وأُعْطِيْتَ بما تطلبه عاجلاً؛ لأنك بمراده. والله أعلم بذلك. انتهى من شرح أبي الحسن الحجازي رحمه الله تعالى.

* * *

باب بيان الشكر

قد ورد في الأمر به وفضله آيات وأخبار، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال ﷺ: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُم لِساناً ذاكِراً، وقَلْباً شاكِراً»[١]، وقال ﷺ: «الإيمانُ نِصفانِ: نِصْفٌ صَبْرٌ، ونِصْفٌ شُكْر»[٢]، وقال ﷺ: «إنَّ لِلنِّعَمِ أَوَابدَ كأوابِدِ الْوَحْشِ، فقَيِّدُوها بِالشكر»[٣]، وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عنِ العَبْدِ يأكُلُ الأكْلَةَ فيَحْمَدُهُ عليها، ويَشرَبُ الشَّرْبَةَ فيَحمَدُهُ عليها»[٤].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٣٠٩٤)، وابن ماجه في سننه (١٨٥٦)، وأحمد في مسنده (٥: ٢٨٢) عن ثوبان. ولفظه كما في الجامع الصغير للسيوطي (٧٥٤٤): «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة مؤمنة تعينه على أمر الآخرة»، قال الترمذي: حسن. ورمز السيوطي لحسنه. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢: ٦٩): لم يسمع سالم بن أبي الجعد من ثوبان.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٧١٥)، والديلمي في الفردوس (١: ٣٧٨) عن أنس رضي الله عنه من رواية يزيد الرقاشي، ويزيد ضعيف، ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير (٣١٠٦).

(٣) رواه البخاري (٥١٧٩)، بلفظ: «إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما ندَّ عليكم منها فاصنعوا به هكذا».

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي في سننه (١٨١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٦٨٩)، وأحمد في المسند (٣: ١٠٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى تعالى: «عليكم بمداومة الشكر على النعم، فَقَلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم».

وقال العلامة السيد عبد الله الحداد في رسالة المعاونة: وعليك بالشكر على ما أنعم الله به عليك، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ولله عليك من النعم ما تعجز عن عدده وإحصائه، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ولو أنَّ الفقير المريض من الموحدين تفكر فيما لله عليه من النِّعَمِ لأشغله الشكر عن مكابدة الصبر، فعليك ببذل الاستطاعة في شكر ربك، ثم الاعتراف بالعجز عن القيام بما يجب عليك من شكر.

واعلم أنَّ الشُّكرَ سببٌ لإبقاء النِّعم الموجودة، ووسيلةٌ إلى حصول النِّعم المفقودة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، والله تعالى أكرم من أن ينزع نعمة عن شاكر، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، أي: بتركهم الشكر عليها، واعلم أنه كما يجب عليك أن تشكر الله على النعم الخاصة، كالعلم والصحة، كذلك يجب عليك أن تشكره على النعم العامة، كإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ورفع السماء، وبسط الأرض.

وأصل الشكر معرفة القلب بالنعم، وأنها من الله وحده لم يصل إليه شيء منها بحوله وقوته؛ بل بفضل الله ورحمته.

وغاية الشكر: أن تطيع الله بِكُلِّ نعمةٍ أَنْعَمَ بِهَا عليك، فإنْ لم تُطِعْهُ فقد تركت الشُّكر عليها، وإنْ عصيت بها فقد وقعت في الكفر، وإن عنده تتبدل النعم بالنقم، ومن بقيت عليه نعمة مع عصيان الله بها فهو مستدرج، قال الله تعالى:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ يُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ»[1].

ومن الشكر كثرة الثناء على الله تعالى، والفرح بالنعم من حيث إنها وسيلة إلى نيل القرب من الله، أو من حيثُ إنَّهَا دالة على عناية الله بعبده، ومِنَ الشُّكر تعظيمُ النِّعْمَة، وإن كانت صغيرة، ومِنَ الشُّكرِ التَّحَدُّثُ بالنعم من غير خروج إلى ما يوهم تزكية النفس في الدينيات، والتبجح بالدنيا في الدنيويات. والأعمال بالنيات، والخير كله في الاقتداء بالسلف الصالح في جميع الحالات، والله تعالى أعلم. انتهى ملخصاً.

قال رضي الله عنه:

١٦٣ـ (مَن لم يَشْكُرِ النِّعَمَ فقد تَعَرَّضَ لِزَوالِها، ومَن شَكَرَها فقد قَيَّدَها بِعِقالِها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: شُكْرُ النِّعَمِ موجبٌ لبقائها. والزيادة منها، وكفرانها، وعدم شكرها، موجبٌ لزوالها وانفصالها.

واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذا اللفظ فقالوا: «الشكر قيد للنِّعم». وقالوا: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود».

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللِّسان، وشكر بسائر الجوارح.

فشكر القلب: أن يعلم أنَّ النِّعم كلها من الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٢).

وشكر اللِّسان: الثناء على الله تعالى، وكثرة الحمد والمدح له، ويدخل فيه التحدث بالنعم وإظهارُها ونشرها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ومن شُكْرِ اللِّسان: شكر الوسائط بالثناء عليهم، والدعاء لهم، وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى»(١).

وشكر سائر الجوارح: أن يعمل بها العمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فجعل العمل شكراً، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قام حتى انتفخت قدماه، فقيل: يا رسول الله، أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٢).

وأجمع العبارات للشكر، قول من قال: الشُّكْرُ معرفةٌ بالجَنَانِ، وَذكرٌ باللِّسان، وعملٌ بالأركان. انتهى ما ذكره ابن عباد ملخصاً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤: ٢٧٨ و٣٧٥)، وابنه عبد الله في زوائد المسند (٤: ٣٧٥) إلا أنه ذكره مطوَّلاً بلفظ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»، ورواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٩٣)، وحَسَّنَ الشيخ أحمد بن الصديق إسناده في تخريج أحاديث كتاب السنة، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١١)، وفي قضاء الحوائج (٧٧)، والطبراني في الكبير، وأبو الشيخ في الأمثال (١١١)، والخرائطي في فضيلة الشكر (٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢: ١: ١٢٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٤، ٤٥، ٣٧٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (٧: ١٨٣)، وكتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترمَ قدماه (٢: ٤٤)، ورواه مسلم (٢٨١٩).

قال رضي الله عنه:

١٦٤ـ (مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوُجْدانِها، عَرَفَها بِوُجْدانِ فُقْدانِها).

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: أكثر النَّاسِ لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها، وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم، حين وجدوها عندهم.

قال السريُّ السَّقَطِيُّ رضي الله عنه: «من لم يعرف قَدْرَ النِّعم سُلِبَها من حيث لا يعلم».

ومن دُعَاءِ بعض الصالحين: «اللَّهُمَّ عرِّفْنَا نِعْمَتَكَ بِدَوامِهَا، ولا تُعَرِّفْهَا لنَا بِزَوَالِـهَا».

قلت: ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله ﷺ بالنظر إلى من هو أسفل منَّا، لئلا نزدري نعمة الله علينا، والسعيد من وعظ بغيره، قال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «انْظُرُوا إلى مَن هُو أسفَلَ مِنكُم، ولا تَنْظُرُوا إلى مَن هُو فَوْقَكُم، فهُو أَجْدَرُ ألاَّ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله تَعَالى عَلَيْكُم»[1]، ورُوي أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «إذا نَظَرَ أَحَدُكُم إلى مَن فُضِّلَ عَلَيْهِ بِالمالِ والخَلْقِ فلْيَنْظُرْ إلى مَن هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّن فُضِّلَ عَلَيْه»[2]، فإذا عرف نعم الله تعالى اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه، ولا يكون له سبيل إليها. انتهى المراد مما ذكره ابن عباد رحمه الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤: ٩ زهد) رقم (٢٩٦٣)، والترمذي في جامعه (٢٥١٣)، وابن ماجه في سننه (٤١٤٢)، وأحمد في المسند (٢: ٤٨٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨: ١١٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٩٠)، ومسلم (٤: ٨ زهد)، وأحمد في المسند (٢: ٣١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وها أنا أذكر إن شاء الله تعالى في شرح تلخيص المناجاة ما سنح لي من شرحه مقتصراً عليه لوضوحه. وبالله التوفيق.

* * *

خاتـمة
في ذكر شيء من مناجاته مع ربه سبحانه وتعالى

قال رضي الله عنه:

١٦٥ـ (إلَهي: أنا الفَقِيرُ في غِنَاي، فكيفَ لا أكُونُ فقيراً في فَقْرِي!).

١٦٦ـ (إلَهي: أنا الـجاهِلُ في عِلْمي، فكيفَ لا أكُونُ جَهُولاً في جَهْلي!).

العبد موصوف بصفات النقص، وهي ذاتية له، والكمـال العارض له المنسوب إليه نقصان على التحقيق.

ومن ثمَّ كان ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من كونه فقيراً في غناه، جاهلاً في علمه، صحيحاً مستقيماً، وكان قصده رضي الله عنه بهذا الاعتراف بدوام الاضطرار، ولزوم الفاقة والافتقار، وأنه لا استغناء له عن مولاه عز وجل، ولا ينفك عن الاحتياج إليه، والتعلق به، والسؤال والطلب منه في كل حال من أحواله، كما قال بعضهم:

إنِّي إلَيْكَ مـدىَ الأنفـاسِ مُحتـاجُ ... لو كان في مِفْرَقِي الإكلِيْلُ والتَّاجُ

وهذا منه دليلٌ على تَـحَقُّقه في مقام العبودية التي اقتضتها عظمة الربوبية.

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «ما أظهر عبدٌ فقره إلى الله تعالى في وقت الدعاء في شيء يَحِلُّ به إلا قال الله تعالى لملائكته: (لولا أن لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك)».

١٦٧ـ (إلَهي: مِنِّي ما يَليقُ بلُؤْمي، ومِنْكَ ما يَليقُ بِكَرَمِك).

لؤم العبد الذي رُكِّب عليه يقتضي مبارزة مولاه بالعظائم والكبائر، وكرمُ المولى الذي مُتَّصِفٌ به يقتضي منه التجاوزَ والعفو عن عبده وقبولَ عُذْرِه.

وهذا الكلام من ألطف وجوه السؤال والرغبة، وهو من آداب الدعاء.

١٦٨ـ (إلَهي: وَصَفْتَ نفْسَكَ باللُّطْفِ والرَّأْفةِ بي قَبْلَ وجُوْدِ ضَعفي، أفتَمْنَعُني مِنهُما بَعْدَ وجُودِ ضَعْفي!).

اللطف والرأفة وصفان لله عز وجل اتَّصف بهما في الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته، وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لا يزال، بعد وجود ذات العبد وصفاته، وهي إسباغُ نعمه عليه، وإيصال أفضاله إليه، فكيف يُتَصَوَّرُ إذ ذاك منعه إياهما؟

١٦٩ـ (إلَهي: إنْ ظَهَرَتِ المَحَاسِنُ مِنِّي فبفَضْلِك، ولكَ المِنَّةُ عَلَيَّ، وإنْ ظَهَرَتِ المساوِئُ مِنِّي فبِعَدْلِك، ولكَ الحُجةُ عليَّ).

ظهورُ المحاسن على العبد ـ وهي أنواع الطَّاعات، والحسنات، والصِّفات المحمودات ـ فضل من الله تعالى، والمنَّة له عليه لعدم استحقاقه لذلك.

وظهورُ المساوئ منه ـ وهي: ضروب المعاصي، والسيئات، والأوصاف المذمومات ـ عَدْلٌ من الله تعالى؛ إذ لَهُ أنْ يفعل بعبده ما يشاء والحجة له عليه؛ لأنه رب وهو عبد.

ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام، من أحسن المناجاة، وهي مقتضية لوجود إسعافه له، وموالاة ألطافه عليه؛ لما فيها من الثناء على الله تعالى، وذكر صفاته العلية،

والتَّعَلُّق بها، والاعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة، ولما فيها أيضاً من رؤية ضعف النفس، والإقرار عليها بالنقص والقصور.

١٧٠ ـ (إِلَهِي: ما أَلطَفَكَ بي معَ عظيمِ جَهْلي، وما أَرحَمَكَ بي معَ قَبيحِ فِعْلي).

شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار، فيستحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط.

١٧١ـ (إلَهي: كلَّما أخرَسَني لُؤْمي، أَنْطَقَني كَرَمُك، وكُلَّما آيَسَتْني أوصافي أطْمَعَتْني مِنَنُك).

لؤم العبد ومخالفته وعصيانه يخرس لسانه عن السؤال والطَّلب، وكرمُ المولى وفضله وإحسانه يُنْطِقُهُ بذلك.

وأوصافُ العبد الذَّميمة التي اقتضتها طبـيعته وجبلَّته تؤيسه من حصول الاستقامة على طريق الحق، ومِنَنُ الله تعالى التي شملت البرَّ والفاجر تطمعه في ذلك.

١٧٢ـ (إلَهي: مَن كانت مَحَاسِنُهُ مَساوي، فكيفَ لا تكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوي! ومَن كانَتْ حَقِيقَتُهُ دَعَاوِي، فكيفَ لا تكُونُ دَعاوِيْهِ دَعاوِي!).

هذا مثل ما تقدم من أنَّ الكمال المنسوب إلى العبد نقصانٌ على التحقيق يوجب للعبد مقام الخوف، فما ظنك بنقصانه؟!

١٧٣ـ (إلَهي: هذا ذُلِّي ظاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْك، وهَذَا حالي لا يَـخْفَى عَلَيْك).

هذا تطارح منه على مولاه، ومبالغة في بثِّ شكواه، وتلطُّف في سؤال رحماه، وبمثل هذا يُرْجى إجابة الدعاء، واستحقاق جزيل العطاء.

(مِنْكَ أطلُبُ الوصُولَ إلَيْك)

هذه صفة العارفين المحققين: لا يسبق نظرهم إلَّا إلى الله عز وجل، ولا يطلبون إلا منه، ولا يكون مطلبهم إلا الوصول إليه لا غير.

(وبِكَ أستَدِلُّ عَلَيك)

لا بغيرك، لأنك الظاهر قبل وجود كل ظاهر؛ بل بظهورك خفيت المظاهر. قيل لبعض العارفين: «بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي».

وقال أبو القاسم النصرأبادي رضي الله عنه: «الأشياءُ أدلة منه، ولا دليل عليه سواه».

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: «لا دليل على الله سواه، وإنما العلم يطلب لآداب الخدمة».

(فاهْدِنِي بِنُورِكَ إلَيْكَ)

وهو نور الإيمان واليقين.

(وأقِمْني بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْك)

حتى أكون ممتثلاً لأمرك، مستسلماً لقهرك.

١٧٤ـ (إلَهي: عَلِّمْني مِن عِلْمِكَ المخزُون)

إضافة العلم إلى الله تعالى هنا إضافة تشريف، والعلم المخزون هو العلم اللَّدُنِّي الذي اختزنه عنده، فلم يؤته إلاَّ للمخصُوصين من الأولياء، كما قال تعالى في شأن الخَضِر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ منَ العِلْمِ كهَيْئةِ الـمَكْنُونِ لا يَعلَمُهُ إلا العُلَماءُ بالله، فإذا نَطَقُوا بِهِ لا يُنْكِرُهُ إلا أهلُ الغِرَّةِ بالله»(١).

(وصُنِّي بِسِرِّ اسمِكَ المَصُونِ)

الصونُ المطلوب هو: صيانته عن رؤية الأغيار بما يتجلَّى لقلبه من الأسرار.

١٧٥ـ (إلهي: حَقِّقْني بِحقائقِ أهلِ القُـرْب)

حقائق أهل القرب هي: الغنا في التوحيد، والتحقق بالتجريد، فتبطل في حقهم رؤية الأسباب، ويزول عن مطمح كل ستر وحجاب.

(واسلُكْ بي مَسَالِكَ أهلِ الـجَذْب)

أهلُ الجذبِ هُمُ المَحْبُوبُونَ، ومسالكهم في غاية السهولة، لا تعب عليهم فيها ولا مشقة؛ بل يجدون اللذَّة والحلاوة في أعمالهم، وذلك من قِبَلِ أنَّهُ أخرجهم

---

(١) قال العراقي: رواه عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي في الأربعين التي جمعها في التصوف من رواية عبد السلام بن صالح، عن سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وعبد السلام بن صالح أبو الصلت الهروي ضعيف جداً. انتهى.
وقال السيوطي في اللآلئ المصنوعة: عبد السلام بن صالح كان رجلاً صالحاً إلا أنه شيعي، وهو من رجال ابن ماجه، وقد اختلف فيه، فقال أبو حاتم: لم يكن عندي بصدوق، وقال العقيلي: رافضي خبيث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الدارقطني: رافضي متهم. وقال عياش الدهري: سمعتُ يحيى يوثق أبا الصلت. وقال ابن محرز عن يحيى: ليس ممن يكذب، وأثنى عليه يحيى بن يسار في تاريخ مرو. وقال السيوطي: فالحاصل: أنَّ حديثه في مرتبة الضعيف الذي ليس بموضوع. قال: وقد أورد القطب القسطلَّاني هذا الحديث في كتاب له في التصوف، وقال: إن له شاهداً من مرسل سعيد بن المسيب. انتهى.

من أسر نفوسهم، وتولاَّهم بكلاءته[١] ورعايته، من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة.

١٧٦ـ **(إلَهي: أغْنِني بتدبِيرِكَ لي عَن تدبِيرِي، وبِاختيارِكَ لي عنِ اختيارِي، وأوْقِفْني عَلَى مَرَاكِزِ اضطِرارِي).**

المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والاقتدار هو الله عز وجل، فمن كان له دعوى في شيء من ذلك فقد نازع الله تعالى في ربوبيته، وخلع عن عنقه ربقة عبوديته؛ فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره، وأن يوقفه على مراكز اضطراره. والمراكز: موضع الاستقرار والثبوت. وهي استعارة حسنة.

١٧٧ ـ **(إلَهي: أخْرِجْني مِن ذُلِّ نَفْسي)**

ذُلُّ النَّفْس الذي طلب الإخراج منه هو ذلُّها لغير الله بالطمع والحرص.

(وطَهِّرْني مِن شَكِّي وشِرْكي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسي)

الشَّكُ والشِّرْكُ هما سبب الطَّمع والحرص الموجبين لوقوع الذُّل والهوان، وهذه الأوصاف مجانبةٌ لحقائق الإيمـان والتوحيد، عافانا الله تعالى من الشكّ والشرك.

والشَّكُ ضيقُ الصَّدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبُـهَا، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلمَ قلبُه، وأصابه من أجله الهمُّ والحزنُ، وطهارتُه منه إنما تكونُ بوجود ضدِّه؛ وهو اليقين، فبه يتسع الصدر فينشرح، ويزول عنه الحرج والضيق، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه، وعند ذلك يجد القلبُ الـرَّوْحَ والفرح بالله تعالى، وبفضله. وفي الحديث

---

(١) أي: حفظه.

عن رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّـهَ تَعَالَى بِقِسْطِهِ وبعدلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ[1] والفَرَحَ في الرِّضَا واليَقِين، وجَعَلَ الهَمَّ والحَزَنَ في الشَّكِّ والسَّخَط»[2].

والشِّركُ: تعلُّق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبِّب، ونسيانُه له تعلُّق الصَّيد بالشَّرَكِ، ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيحلو له الهوى، فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التي يتوصَّلُ بها إلى بغيته إذ لا يرى غَيْرَها، فَيَرْتَبِكُ من أجل ذلك في حبائل الشِرك، وطهارتُه مِنْهُ بِضدِّهِ، وهو: نور التَّوحيد الذي يقذفه الحق تعالى في قلبه فتطمئن بذلك نفسُه، وتسكنُ عن الشَّره والطيش الذي أصابها، وكلما قوي نورُ التَّوحيد في قلبه كان خلاصه من الشِّرك أكثر فَتُمْحَى عنه الأسباب، ويثبتُ فيه خالص التوحيد.

فإذا تطهر العبد من الشَّكِ والشِّرك تولاه الله تعالى بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد.

١٧٨ـ (إلَهي: بِكَ أستَنصِرُ فانصُرْنِي، وعَلَيْكَ أتوَكَّلُ فلا تَكِلْني، وإيَّاكَ أسألُ فلا تُخَيِّبْني، وفي فضْلِكَ أرغَبُ فلا تَحرِمْني، ولِجَنابِكَ أنْتَسِبُ فلا تُبْعِدْني، وبِبَابِكَ أقِفُ فلا تَطرُدْني).

---

(١) الرَّوح: الراحة والرحمة والسعة. (مختار القاموس).

(٢) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الطبقات (ص٦٩)، وقال في الموضعَيْن: غريب، والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف. ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٤: ٧١) وأبو نعيم في الحلية (٤: ١٢١٩، ٧: ١٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١١١٦)، والقشيري في الرسالة (ص١٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وسنده أضعف من الذي قبله. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين (٣٢) وهناد في الزهد (١: ٦٢٩) رقم (٥٤٦) موقوفاً على ابن مسعود وإسناده ضعيف أيضاً، وقال محقق كتاب الزهد لهناد: وثبت مرفوعاً بسند لا يقل عن درجة الحسن، وله شاهد مرفوع عن أبي سعيد رفعه في الحلية (٥: ١٠٦).

تَعَلَّقْ بالله تعالى في كل مطلب من هذه المطالب، واضْرِبْ عن الوسائط والأسباب، وذلك من تحقُّقِه بالتَّوحيد الذي سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده. ومعاني هذه الكلمات قريب بعضها من بعض.

١٧٩ـ (أنتَ الّذي أشْرَقْت الأنوارَ في قُلُوبِ أوليائِكَ حتَّى عَرَفُوكَ ووَحَّدُوكَ، وأنْتَ الّذي أزَلْتَ الأغيارَ مِن قُلُوبِ أحبابِكَ حتَّى لم يُحِبُّوا سِواك، ولم يَلجَؤُوا إلى غَيْرِك، أنتَ المُؤْنِسُ لـهُم حيثُ أوحَشَتْهُمُ العَوالم).

سببُ إيحاش العوالم لهم: ما هي عليه من الفاقة والافتقار، والحاجة والاضطرار، فكُلُّ واحد منها جالب لنفسه، طالب لحظِّه من كمال نقصه ووفاء بخسه، والله تعالى غنيٌّ حميد، عزيز مجيد، وهو مع ذلك لطيف بعباده، عطوفٌ عليهم، متودِّدٌ إليهم، رؤوفٌ بهم، فلمَّا شاهدوا هذا كُلَّه مشاهدة يقين ومعاينةً بإشهاده إياهم، لم يتمالكوا أنْ أحبُّوه، وآووْا إليه، وقصروا هِمَمَهُم عليه، وجعلوه معتَمد أنسهم، وبدلاً عن أبناء جنسهم، فحصلوا إذ ذاك على غاية النَّعيم، وفازوا بالحظ العظيم.

(وأنتَ الَّذي هَدَيْتَهُم حتَّى استَبانَتْ لـهُمُ الـمَعالم).

لما تولَّى الله تعالى هدايتهم إلى طريق التوحيد والمعرفة أبانَ لهم علامات ذلك ودلائله، فعند نظرهم في تلك العلامات والأدلة انشرحت صدورُهم بأنوار الإيمان واليقين، فلم يتداخلهم شكٌّ ولم يخالجهم رَيْبٌ.

والمعالم: جمع مَعْلَم. وهذه الأربعة مطالب[1] متضمنة لأَسْنَى الرَّغائب.

---

(١) وهي: إشراق الأنوار في قلبه، وإزالة الأغيار عن سِرِّه، وإيناسه له، وهدايته إياه.

(ماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ؟! وما الَّذي فَقَدَ مَن وَجَدَك؟!).

قد تقدَّم غيرُ مرة أنَّ ما سوى الله تعالى عدم وظلمة، وأنَّ الوجود الحق والنُّور اليقين المحقق إنما هو الله عز وجل.

فإن كان الأمر على هذا صح ما قاله المؤلف ها هنا، وكان حق لا مرية فيه.

(لقد خَابَ مَن رَضِيَ دُوْنَكَ بَدَلاً، ولقد خَسِرَ مَن بَغَى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً).

هذا بيِّنٌ، وهو مبنيٌّ على ما تقدم الآن في الكلام.

(كيفَ يُرْجَى سِواكَ وأنتَ ما قَطَعْتَ الإحسان؟! وكيفَ يُطلَبُ مِن غيرِكَ وأنتَ ما بَدَّلْتَ عادةَ الامتنان؟!).

هذا تعجيب مِمَّن كان على هذا الوصف، وهو أعجب من كل عجيب، والمعنى في هذا بيِّنٌ.

(يا مَن أذاقَ أحِبَّاءَهُ حلاوةَ مُؤَانَستِهِ فقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقين)

التَّمَلُّق هو: التَّلَطُّف في التَّوَدُّدِ. وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بيِّن.

(ويا مَن ألْبَسَ أولياءَهُ ملابِسَ هَيْبَتِهِ فقامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّين).

استعزازهم بعزَّته هو رفع هممهم عن تعلقها بغير الله تعالى تِيهاً وتكبراً عليها، وثقة منهم به؛ وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته، حتى لم يهابوا معه غيره، ولم تتأله قلوبهم إلى سواه؛ ولذلك قالوا: المعرفةُ حَقْر الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره.

وقال بعض المشايخ: «إذا عظم الربُّ في القلب صَغُر الخلق في العين».

١٨٠ـ (أنتَ الذَّاكِرُ مِن قَبْلِ الذَّاكِرين، وأنتَ البادِئُ بالإِحسانِ مِن قَبْلِ تَوَجُّهِ العابِدِين، وأنتَ الـجَوَادُ بالعطاءِ مِن قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِين، وأنتَ الوَهَّابُ لنا، ثُمَّ أنتَ لِـمَا وَهَبْتَنا من الـمُسْتَقرِضين).

الحق سبحانه وتعالى له الأولية فيما ذكر كما ذكر.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: «غلطتُ في بداية أمري في أربعة أشياء: توهمتُ أنِّي أذكره وأعرفه وأُحبه وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبُه لي أوَّل حتى طلبته».

وإذا كانت الأَوَّلِيَّة له في ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسَّل بها سوى فضله وكرمه.

واستقراضُ الرب من عبده ما وهبه له غاية في ترفيعه لقدره، وإبانته لشرفه، ووعده مع ذلك جزيل الثواب عليه نهاية في إكرامه وتفضله عليه.

١٨١ـ (إلَهي: اطلُبْني بِرحمتِكَ حتَّى أَصِلَ إليْكَ، واجْذُبْني بِمِنَّتِكَ حتَّى أُقْبِلَ عَلَيْك).

لا سبيل للعبد إلى وصوله إلى الله تعالى إلا برحمته؛ فلذلك طلب منه أن يطلبه بها، ولا يتأتى له الإقبال عليه إلا بمنته؛ فلذلك طلب منه أن يجذبه إليه بها؛ وذلك لتحقق الأولية التي ذكرناها من قبل.

١٨٢ـ (إلَهي: إنَّ رَجَائي لا يَنقَطِعُ عَنْكَ وإنْ عَصَيْتُك، كما أنَّ خَوْفي لا يُزَايِلُني وإنْ أطَعْتُك).

الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد، واعتدالهما واستواؤهما هو

المطلوب، سواء كان العبد في طاعة أو معصية، وقد مَثَّلُوا ذلك بكفتي الميزان، وجَنَاحَي الطَّائر، وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والأولياء، وذلك أن منشأهما عندهم إنما هو شهود الصفات المخوفة والمرجوَّة، وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها، وكذلك مشاهدتها لا تفاوت فيها، فإنْ وقع فيها تفاوت كانت مشاهدته ناقصة، وأحواله معلومة، فلذلك يتصور وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطَّاعة، وغلبة الرجاء مع ارتكابه للمعصية، كما وصف به المؤلف نَفْسَهُ.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: «يكاد رجائي لك مع الذُّنوب يغلبه رجائي لك مع الأعمال؛ لأنِّي أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أُحررها وأنا بالآفة معروف؟! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!».

وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: «من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل».

١٨٣ ـ (إلَهي: كيفَ أَخِيبُ وأنتَ أَمَلي؟! أم كيفَ أُهانُ وعَلَيْكَ مُتَّكَلي؟!).

لـمَّا تعلق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يَخيبَ أمله، أو يناله هوانٌ يؤدي تحمله.

١٨٤ ـ (أنتَ الذي لا إلهَ غَيْرُك، تَعَرَّفْتَ لِكلِّ شيءٍ فما جَهِلَكَ شيء، وأنتَ الذي تَعَرَّفْتَ إليَّ في كلِّ شيء، فرَأَيْتُكَ ظاهراً في كلِّ شيء، فأنتَ الظَّاهِرُ لِكلِّ شيء).

هذا كله تقدم معناه، ولفظه في كلام المؤلف على غاية الكمال والتمام.

والحاصل منه؛ أنَّ الظُهور التَّام لله تعالى بكل اعتبار، ثم إنَّهُ عَبَّر هُنَا عن ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ لَمْ يَذْكُرْهَا فِيمَا تَقَدَّمَ، وهي قوله رضي الله عنه: (يا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ فَصَارَ العَرْشُ غَيْباً في رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ العَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ).

كأنه أشار بهذا المعنى إلى قولـه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

ورحمانيةُ الله تعالى كَوْنُهُ رَحْمَاناً. والرحمن اسم الله تعالى يقتضي وجودَ كُلِّ موجود، وهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ هَاهُنَا هِيَ: الرحمة العامة التي وسعت كل شيء كما وسع علمه كُلَّ شيء في قوله تعالى مخبراً عن حملة العرش إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

ويفهم من معنى «الاستواء» القهر والغلبة، ومقتضاهما في حق الله تعالى ألاَّ يكون لغيره وجودٌ مع وجوده، ولا ظهورٌ مع ظهوره، فلا جَرم لَمَّا كان الحق تعالى مستوياً برحمانيته على عرشه الذي العوالم كلها في طيِّه، كان العرش غيباً في الرحمانية مندرجاً فيها، والعوالم كلها غيب في العرش؛ لأنها في طيِّه، فلا ظهور إذاً للعرش، ولا للعوالم، وإنما الظهور التام له عز وجل.

(مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار)

كما بين العوالم والعرش.

(ومَـحَوْتَ الأغيارَ بِمُحِيطاتِ أفلاكِ الأنوار)

كما بين الرحمة والرحمانية. ومحيطات أفلاك الأنوار هي أسماء الله تعالى الحسنى، والله أعلم.

(يا منِ احْتَجَبَ في سُرادِقاتِ عِزِّهِ عَن أنْ تُدْرِكَهُ الأبصار)

عزَّة الله تعالى اقتضت كونَ كلِّ ما سواه محجوباً عن رؤيته لله عز وجل، فإنَّ العزيز معناه المنيع الذي لا يوصل إليه، وذكر السرادقات مضافة إلى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن.

(يا مَن تَجَلَّى بِكمالِ بَهائِهِ فتَحَقَّقَتْ عَظَمتُهُ الأسرار)

كمال بهائه محاسن صفاته وأسمائه، فبظهور ذلك وتجلِّيه بها تحققت عظمته أسرار العارفين.

(كيفَ تَخْفَى وأنتَ الظَّاهِر؟! أم كيفَ تَغِيبُ وأنتَ الرَّقيبُ الحاضِر؟!).

هذا كله بَيِّنٌ لا إشكال فيه، وقد تقدم معناه غير مرة من كلام المؤلف رحمه الله.

* * *

وهذا آخر ما يسَّر الله تعالى جمعه من شرح تلخيص تبويب الحكم.

والله سبحانه المسؤول أن يعفو عن الخطأ في المعنى الذي وقع عن سبق قلم، أو خلل في الفهم وسقم، مع أني لم أتعرض لإيضاح شيء من كلام المؤلف رحمه الله تعالى من تلقاء نفسي، إذ لا إدراك لأمثالي في فهم المراد منه، ولا للقاصرين من أبناء جنسي.

وقد وقع الفراغ منه ذلك بعون القادر المالك، في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة الحرام آخر شهور السنة السادسة والستين بعد المئتين والألف من الهجرة

النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة وأكمل التحية، بقلم جامعه المسكين الفقير إلى عفو الغني القدير: أبي بكر بن محمد بن عمر الملا سامحه الله تعالى، وأسبغ عليه نعمه ووالى، وغفر له ولوالديه ولذريته ولمشايخه وأحبته، آمين.

كذا بخط شيخنا أطال الله عمره، وختم بالصالحات عمله، وقد وقع الفراغ منه بقلم أفقر الورى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عرفج، رابع عشر جمادى أولىٰ من سنة ألف ومئتين وسبعٍ وستين من هجرته ﷺ.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله تعالى[1].

* * *

---

(١) وأقول: أنا المفتقر إلى عفو المولى يحيى ابن الشيخ محمد ابن الشيخ أبي بكر الملا عفا الله عنه: قد وقع الفراغ من مراجعته ومقابلته وتصحيحه والتعليق عليه في اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٩هـ. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.




فهارسُ الكتاب






فهرسُ الآياتِ القرآنية

فهرسُ الأحاديثِ النبوية

* * *

فهرسُ الأبيات الشعرية

فهرس الحكم على الترتيب الهجائي

الحكمة | الصفحة

الحكمة | الصفحة

الحكمة	الصفحة

الحكمة | الصفحة

الحكمة | الصفحة

الحكمة | الصفحة

الحكمة | الصفحة

* * *

فهرس الأعلام المترجَم لهم في الكتاب

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

مقدمات التحقيق

النصُّ المحقق للشرح

بابُ العلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

باب العزلة

باب رعاية الوقت

الموضوع	الصفحة

باب الذكر

باب الفكر في مصنوعات الله

الموضوع — الصفحة

باب الزهد

باب مدح الفقر والفاقة

باب تزكية النفس والتحذير منها

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

باب الاعتدال بين الخوف والرجاء

الموضوع **الصفحة**

باب آداب طلب الدعاء

باب التسليم بأمر الله تعالى وترك الاختيار

الموضوع **الصفحة**

باب الصبر على البلايا والشدائد

باب ذكر خفايا ألطافه ومننه على العباد

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

باب الصحبة

باب الطمع

باب التواضع

الموضوع	الصفحة

الصفحة

الموضوع

باب مراتب السالكين عموماً وخصوصاً

باب القبض والبسط

الموضوع	الصفحة

باب الأنوار التي تنكشف بها الحقائق

باب قرب العبد من الله والتخلق بأخلاقه

الموضوع | **الصفحة**

باب قرب الله تعالى من المخلوقات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

باب بعض خصائص العارف بالله تعالى

باب التفرس والاستدلال بالشيء على الشيء

الموضوع | الصفحة

باب تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾

* * *

صدَرَ للمُحَقِّق

تحقيق آثار العلّامة
الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملّا الأحسائي

- هداية المحتذي شرح شمائل الترمذي.
- وسيلة الرضوان في أدعية ختم القرآن.
- وسيلة الفلاح في أذكار المساء والصباح.
- إتحاف الناسك بأذكار المناسك.
- تجريد الكوكب المنير في الصلاة على البشير النذير ﷺ.
- تحفة الأخيار بمختصر الأذكار (النووية).
- حادي الأنام إلى دار السلام.
- الرد الفصيح على منكر العمل بالحديث الصريح..
- زواهر القلائد على مهمات القواعد (في القواعد الفقهية).
- متن إتحاف الطالب (في فقه العبادات).
- متن وسيلة الطلب فيما لا يسع المكلف جهله من الأحكام (في فقه العبادات).
- منظومة تحفة الطلاب في الفقه.
- منهاج الراغب إلى إتحاف الطالب.
- نبذه ملخَّصة من مجالس السيد الإمام عبد الله الحداد، مع ما ذيّله الشيخ أحمد الشجّار.
- سراج الظُّلَم شرح تلخيص الحِكَم (العطائية).

وحقق لغيره من العلماء الآثارَ الآتية:

ـ سلم المريد في أحكام التجويد، للعلامة الشيخ محمد بن أبي بكر الملا.

ـ أحكام المناسك، للشيخ عبد الله بن أبي بكر الملا.

ـ النصيحة العامة للخاصة من الناس والعامة، للشيخ عبد الله بن أبي بكر أيضاً.

ـ صفوة الدلائل في الصلاة على سيِّد الأواخر والأوائل ﷺ، للشيخ محمد بن أحمد بن عمير.

ـ فتح القوي بشرح الأربعين للنووي، للشيخ أحمد بن عبد الرحمن العبد اللطيف.

ـ متن تحفة المبتدئ في فقه الصلاة، للشيخ برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا.

ـ مسلك البيان في شرح قلادة العقيان نظم شعب الإيمان، للشيخ محمد بن عبد الرحيم الملا.

ـ مفتاح القرب في شرح منظومة آداب الأكل والشرب، للشيخ محمد بن عبد الرحيم أيضاً.

ـ نصيحة المسلمين عن إحداث ما ليس من الدين، للشيخ أحمد بن محمد المصري الأحسائي.

وله من التحقيقات قيدَ الطبع

للإمام الشيخ أبي بكر بن محمد بن عمر الملا:

ـ مئة حديث مشتملة على شعب الإيمان وجوامع الكلم المتضمنة مهمات الترغيب والترهيب في رياضة النفس.

ـ متن جواهر المسائل في الفقه.

ـ منهل الصفا في شمائل المصطفى ﷺ.

ـ الأدعية المباركة.

ـ خلاصة الاكتفا في مغازي المصطفى ﷺ والثلاثة الخلفا.

ـ خلاصة اللطائف (لطائف المعارف لابن رجب).

ـ الزهر العاطر في تلخيص صيد الخاطر.

ـ عقد البضاعة في شرح بنت ساعة.

ـ القلائد العسجدية في شرح الشنشورية.

ـ كشف الالتباس فيما يحل ويحرم من الحرير في اللباس.

ـ الكوكب المنير في الصلاة والسلام على البشير النذير ﷺ.

ولغيره من العلماء:

ـ مختصر قمع الحرص والزهد والقناعة ورد السؤال بالكتمان والضراعة، للشيخ محمد بن عمر الملا.

ـ قلائد الذهب في شرح وسيلة الطلب، للشيخ عبد الله بن أبي بكر الملا.

ـ قمع المعاند عن انتهاك حرمة المساجد، للشيخ عبد الله بن أبي بكر الملا.

ـ إتحاف ذي اللب الصريح بشرح صلاة التسبيح، للشيخ أحمد بن عبد الرحمن العبد اللطيف.

* * *